

سلسلة مقالات نشرت في مجلة الفتح القاهرية

الدكتور مصطفى السباعي

بعناية وتقديم

محمود شاكر



آلامٌ وآمالٌ

سلسلة مقالات نُشرت في مجلة الفتح القاهرية


بسم الله الرحمن الرحيم



سلسلة مقالات نشرت في مجلة الفتح القاهرية

الدكتور مصطفى السباعي

بعناية وتقديم

محمود شاكر

دار الوراق

للنشر والتوزيع

طبع بإذن خطي من ورثة المؤلف

الطبعة الأولى لدار الوراق

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م



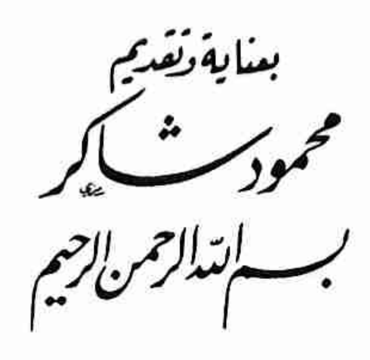
للنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - هاتف: ٠٣/٤٦٣٩٢٠ ص ب: ٦٣٨٠ / ١٤

E. Mail: msibaie @hotmail.com

المملكة العربية السعودية - الرياض - الرمز - ١١٤١١ - ص ب ٩

هاتف ٤٥٥١١٤٢ - فاكس: ٤٥٣٠٠٧١



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبدالله الصادق الأمين، وعلى إخوانه من الرسل والنبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذه مقالات لشابٍ نشأ في طاعة الله وهو في العشرينات من عمره كتبها في مجلة «الفتح» القاهرية. فكانت عباراتها قويةً تخرج من قلب فتىً مؤمنٍ، يُصوّر واقع أُمته وما تُعانيه، يتألّم من هذا الواقع، ويُكابد من الأحداث، ويتحرّق في داخله من النكبات التي تنزل بالمسلمين، ومن المصائب التي تحلّ بديارهم، وتجرحه تصرّفات تلامذة الغرب من شعبه فيشعر أنهم بؤرة الشرّ في المجتمع، وعين العدوّ في الديار، وسلاحه في المحنة، ويده في الشدّة، ومراسله عند البلاء، ومبعوثه في الفساد.

يكتب هذا الشاب من قلبٍ مجروحٍ، وفؤادٍ مثلومٍ، وكبدٍ دامٍ، يكتب بمداد هو دم القلب، ودمع العين، وعصارة النفس، ونتاج ذوبان الكَبد.

يكتب ليُؤدّي دوره، ويُقدّم مُهمّته المناطة به، وليعذر نفسه، ويُعبّر عما يُكنّه فؤاده، وليُنبّه أمته، ويُشجّع جيله، ويُحمّس أترابه، ويُثير شباب أُمته.

يكتب عسى أن يرتاح وقد أدّى ما عليه، ولعله يطمئن وقد قدّم ما يجب عليه لذا كانت تخرج الكلمات ساخنةً قويةً، والعبارات لاهبةً متينةً،

والزفرات حرّى محرقةً يفعل ذلك ليُخفّف من حماسته ويقلّل من ثورته فإذا بعباراته تلسعه بحرّها فيتنامى إقدامه ويزداد اندفاعه ويُتابع جهاده ويتقدّم باللواء رافعه بيمناه لا يُبالي بما يلقاه إذ عبّأ ريح الجنة أنفه وملأت رؤيتها ناظريه، فهو يُجاهد في دنياه ليسكنها في أُخراه.

جهاد في سبيل الله، وصبر ابتغاء مرضاة الله، ودأب محبةً لله، ونهوض بالعمل طاعة لله، وقد قال رسول الله، ﷺ: «**سبعة يُظلّهم الله تعالى في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه مُعلّق في المساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصبٍ وجمالٍ، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شِماله ما تُنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**».

ينشأ الشاب في طاعة الله يتحدّث الحديث، أو يُلقي الكلمة، أو يكتب المقالة صادقاً مُخلصاً، غير هيّابٍ ولا وجلٍ، تخرج الكلمات من قلبه فتقع في القلوب فيكون لها تأثيرها، فالكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب وإذا خرج من الفم فلا يتجاوز الآذان.

يستمع الناس إلى هذا الشاب الذي نشأ في طاعة الله أو يقرؤون له فيتأثّرون به إذ تقع كلماته في قلوبهم فتتفاعل معها. ويُحاول الرجال السير على نهجه واتباع خطاه فيكون الرائد لهم والقدوة رغم شبابه، ويتحدّثون عنه ويثنون عليه فيتأثّر به من يسمع كلامهم فيكون الأسوة، ويُكلّمون أبناءهم عنه، ويمدحون ويُطنبون، ويطلبون منهم أن يكونوا مثله، وأن يعملوا عمله، ويدعون الله أن يُحقّق رجاءهم، ويحاول الأبناء تلبية طلب آبائهم وتحقيق رجائهم فيلتفّون حوله، ويعملون على تقليده والأخذ منه فيكون القائد.

وهكذا كان صاحب هذه المقالات **مصطفى بن حسني السباعي**، رحمه الله، وأسكنه فسيح جنّاته، وجعل هذه المقالات في ميزان حسناته بما نبّه فيها وحذّر، ورسم الطريق وهو الاقتداء بمنهج سيّد البشر وصحبه

الكرام، وكان على رأس إخوانه في هذا، فسار بهم إلى فلسطين مجاهداً، ودعا إلى تطبيق الشرع نائباً، وإلى الالتزام قائداً، وإلى التوجيه مُدرساً، وإلى مطالبة المسؤولين زعيماً. وكان له أثر لا يُنكر، وتأثير لا يُغفل، سمعته يُلقي كلمةً على مدرج الجامعة السورية بمناسبة افتتاح كلية الشريعة التي اختير عميداً لها، وكان بحضور رئيس الجمهورية يومذاك وعليّة القوم، وكنت أجلس في آخر المدرج، وقد أخذتْ به الحماسة فكانت رؤوس الحضور تموج حسب حركة يديه كما تتمايل سنابل القمح تُحرّكها الرياح تأثراً بكلامه وتفاعلاً معه.

وهذه المقالات شاهدة على ذلك فنرجو أن يجد فيه القارىء صحة ما نقول، وأن يكون لها الأثر في النفس والعمل بالفكر والجوارح.

هذه المقالات كُتبت وصاحبها في مقتبل العمر، وريعان الشباب، وبدء العمل، وأول الدرب، وحداثة العلم، ومع الأيام ومرور السنوات ازداد فكره توقّداً، وسيره إقداماً، ونشاطه إخلاصاً، وعلمه سعةً ونبوغاً، وأيامه خبرةً، وجهاده حماسةً فكان بحقٍّ علماً في كل مجالٍ، ويكفي أن نقول: كان قدوة عصره، ورجل زمانه، رحمه الله، فقد قدّم ما يجب الانتفاع به، والسعي للعمل به، والسلام.

غرة شهر شعبان ١٤٢٠هـ

محمود شاكر

نكبة الدين في أخلاق علمائه...[1]

إذا أراد الباحث في تاريخ الإسلام والمسلمين أن يكشف الستار عن الداء الذي كان مبعث تشتت المسلمين وخذلان أمرهم في العصور الأخيرة، فسيبدو له أن لعلماء المسلمين النصيب الأوفر في ذلك. ونحن نقول هذا بعد تتبع لوقائع التاريخ، غير آبهين بما سيلمزنا به بعضهم من تحامل أو تجاهل، فما كنا لنقول غير الحق، وما كنا لندعو إلا إليه، ولئن كان في الجهر بالحق بعض الألم، فإن في السكوت عليه الألم كله والبلاء كله. وما نحسب أحداً يرضى من الشيء بأكثره، وهو كاره لأقله. أو يتحمل من العناء أشده، وهو متبرم بيسيره. وما على الذين يبغون شفاء النفوس من آلام العلل، إلا أن يصرحوا بالداء ودوائه، غير مكترثين بنفرة المريض من الدواء، ولا بحزن أهله من تفاقم الداء، وإلا كانوا غاشين مخادعين...

من أبرز ما يمتاز به الإسلام عن غيره من الأديان، أنه قسم واجبات المجتمع تقسيماً عادلاً حكيماً، وجعل هذه الواجبات موزَّعة بين الأفراد جميعاً، لا منوطة بفرد واحد ولا بهيئةٍ واحدة، فواجب الأغنياء تعهد الفقراء بالعطية والإحسان، وواجب الفقراء كف أيديهم عن مال غيرهم والرضا بما قسم الله لهم، وواجب الرجل تهذيب أبنائه ورعاية بيته باللطف والمعروف، وواجب الحكام سياسة الناس بالعدل ورعاية حقوقهم ومصالحهم، وهكذا

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العام الثاني عشر عام ١٣٥٦هـ.

دواليك. وهنالك فئة جعل الله واجبها أكبر من كل واجب، ومنزلتها أعز من كل منزلة، وسلطانها فوق كل سلطان، أولئك هم العلماء ورثة الأنبياء، و«سراج العباد، ومنار البلاد، وقوام الأمة، وينابيع الحكمة، وغيظ الشيطان. بهم تحيا قلوب أهل الحق وتموت قلوب أهل الزيغ. مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء يهتدي بها في ظلمات البر والبحر. إذا انطمست النجوم تحيروا، وإذا أسفر عنها الظلام أبصروا»[١]، هؤلاء هم الذين جعلهم الله موازين الحق في خلقه: يردّون الباغي، ويرشدون الضال، ويعلمون الجاهل، ويقفون سداً منيعاً دون فشو الظلم، وطغيان القوة، وانتهاك حرمات الله، سواء أكان من ينصحونه أم يردّونه أم يعلمونه حاكماً جمعت في يديه القوة، أو غنياً عظمت لديه الثروة، أو ظالماً رسخت قدماه في الظلم والعدوان، فكلهم في الحق سواء، وكلهم - في نظر العلماء - يستوجبون النصح والإرشاد، والأخذ بأيديهم إلى سبل السداد.. أرأيت مثل هذه المكانة السامية أعطيت لفريق غير العلماء، أرأيت سيادة تعلو كل سيادة كهذه التي أوتيها العلماء؟ فهل ترى بعد ذلك عجباً أن يحصر الله خشيته بهم ويقصرها عليهم دون الناس أجمعين فيقول ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[٢] وهل ترى غريباً أن يرفع الله من شأنهم حتى يقرّر أن لهم من سمو المكانة ورفعة المنزلة ما ليس للمؤمنين جميعاً؟ ذلك حيث يقول الله جلت حكمته ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[٣]... بخ بخ، ما أجملها من شهادة، وما أحسنها من بشارة. وأيم الله لو لم يكن لأهل العلم غير هاتين الآيتين لحازوا بهما شرف الدنيا ورفعة الآخرة!..

ذلك هو واجب العلماء في نظر الإسلام، وتلك هي منزلتهم فيه. ولقد أدرك علماء السلف، رضوان الله عليهم، هذا الواجب العظيم الملقى

---

(١) من كلام أبي بكر محمد بن الحسين الآجري، رحمه الله، المتوفى سنة ٢٦٠هـ، في كتابه «أخلاق العلماء».

(٢) فاطر، الآية: ٢٨.

(٣) المجادلة، الآية: ١١.

على عاتقهم، وتلك المكانة السامية التي وضعهم الإسلام فيها، فعرفوا كيف يؤدون الواجب، وكيف يستعملون الحق. وكيف يصونون هذه المكانة ويأبون أن يتخلوا عنها لغيرهم، فأتوا من جلائل الأعمال ما جعلهم زينة مجتمعهم وروحه وريحانه ونوره وبركته، وما اضطر التاريخ لأن يفسح لهم في سجلاته فيسطروا بها صفحات من نور تملأ الأبصار إشراقاً وضياء...

هذا منذر بن سعيد قاضي الجماعة بقرطبة، لم يكد يعلم أن أمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر بنى مدينة (الزهراء) وصنع فيها الصرح الممرَّد واتخذ لقبته قراميد من ذهب وفضة، حتى غضب لدين الله، وهاله تبذير الحاكم في مال الدولة بطريق غير مشروع، فرأى أنه هو المسؤول عن ذلك أمام الله، وأنه هو الذي يحق له أن ينهى عن هذا الإسراف المضر بمصالح المسلمين، فما هو إلا أن أظهر للناصر ألمه مما عمل وأخذ يؤنبه ويقول له «ما ظننت أن الشيطان أخزاه الله يبلغ بك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين، مع ما آتاك الله وفضلك به على العالمين، حتى أنزلك منازل الكافرين» فاقشعرَّ عبدالرحمن الناصر من قوله، وقال له: انظر ما تقول، كيف أنزلني منازلهم؟ قال: نعم أليس الله تبارك وتعالى يقول ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾﴾[1]! فوجم الخليفة ونكس رأسه ملياً ودموعه تجري على لحيته خوفاً من الله وتأثراً مما سمع، ثم أقبل على القاضي وقال: جزاك الله خيراً عنا وعن المسلمين والدين، وأكثر فينا من أمثالك، فالذي قلتَ والله هو الحق. وقام من مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى، وأمر بنقض سقف القبة وأعاد قراميدها تراباً. أرأيت إلى سلطان الدنيا كيف يقف خاشعاً ذليلاً أمام سلطان العلم والدين! ثم أرأيت كيف عرف هذا العالم واجبه فأداه على وجه يرضي الله ورسوله؟ ولو أن عالماً من علماء الدنيا وقف موقفه لقال للخليفة

---

(١) الزخرف، الآيتان: ٣٣ ـ ٣٤.

الناصر: إنك عززت الإسلام وغظت أعداءه!...

وإليك مثلاً آخر يريك كيف كان العالم يرى نفسه صاحب الأمر والنهي في الدولة حين يحيد عظماؤها عن سنن الحق وشرائع الدين. كان الملك الصالح إسماعيل يلي دمشق، وكان الملك نجم الدين أيوب يلي مصر، وكان قاضي القضاة في دمشق سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام، فبلغه أن الملك الصالح استعان بالإفرنج على ملك مصر على أن يسلم إليهم لقاء معونتهم «صيدا» وقلعة «الشقيف» وغيرها من حصون المسلمين، وأن الإفرنج دخلوا دمشق لشراء السلاح، فشق ذلك على الشيخ وغم منه غماً شديداً، وأفتى الناس بتحريم مبايعتهم لأنهم يقاتلون به المسلمين، وامتنع عن الدعاء في الخطبة للملك الصالح، وقال في آخر خطبته قبل أن ينزل: «اللهم أبرم لهذه الأمة أمراً ورشداً تعزّ فيه وليك وتذل فيه عدوك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهى فيه عن معصيتك» والناس يبتهلون بالدعاء والتأمين، فبلغ الملك الصالح ما فعل الشيخ فغضب وعزله عن القضاء، فرحل الشيخ عن دمشق إلى مصر، وبينا هو في الطريق أدركته رسل الملك الصالح، وطلبوا منه الرجوع ليعود إلى منصبه، على أن يعتذر للملك ويقبل يده، فقال لهم: والله ما أرضى أن يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل يده. يا قوم أنتم في واد وأنا في واد، ثم مضى حتى وصل إلى مصر فاستقبله ملكها وأمراؤها، وأسند إليه منصب القضاء، فأزال أموراً منكرة في الدين، ثم رأى أن أمراء الدولة من الأتراك لا يزالون أرقاء، وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، فقرر بيعهم في وقت معين، وأعلن أنه لا يصح لهم بيع ولا شراء ولا نكاح ولا معاملة، وأخيراً ـ بعد قصة طويلة ـ باعهم واحداً واحداً على ملأ من الأمة وقبض أثمانهم وصرفها في مصالح المسلمين.. تلك والله هي العظمة، وذلك هو السلطان الذي يجعل أمراء الدولة خاضعين لحكمه يعرضهم للبيع واحداً بعد واحد وهم ساكتون لهيبة إخلاصه وزهده بما في أيديهم من عرض الدنيا؟!..

هذه زهرة من رياض أولئك العلماء الأتقياء نقدمها فوّاحة الشذى لنعقد

المقارنة بين علمائنا في الماضي وعلمائنا في الحاضر، فنرى كيف نُكب المسلمون بعلمائهم، فنكبوا بعزهم واستقلالهم.. رأيت فيما مضى عظم المهمة التي ألقاها الإسلام على العلماء، ورأيت كيف استطاع العلماء أن يدفعوا الشرّ ويكبحوا من جماح القوة الطاغية، فاستقامت أمور المسلمين وازدهرت حياتهم، فهل عرف علماؤنا اليوم مهمتهم، وهل تحلوا بالصفات المفروضة فيهم، وهل استطاعوا أن يدفعوا الأذى عن أمتهم؟ الكلام على هذا ينقسم إلى ثلاث نواح: الناحية الخلقية، والناحية العلمية، والناحية السياسية. أما الناحية الخلقية فقد وصل علماؤنا إلى درجة من الأخلاق لا يصح أن يصل إليها من وضعهم الله في مثل منزلتهم ومكانتهم. لقد ركنوا إلى الدنيا ومالؤوا أهلها وانغمسوا في مادتها حتى أصبح همهم الوحيد الاستكثار منها والتفاخر بها، متناسين كل ما ينبغي أن يكون عليه العالم من زهد وورع وخشية من الله ومراقبة لجلاله.

وإنك ليأخذك العجب حين تعلم أن العفة والزهد بلغا عن علمائنا في الصدر الأول مبلغاً مدهشاً لا تكاد تصدّقه، فانعكس الحال تماماً في علماء هذا العصر حتى بلغ انكبابهم على المادة مبلغاً لا يكاد يصدقه العقل. فبينا ترى إماماً كالخليل بن أحمد - وهو من هو في علمه وفضله - يقول عنه تلميذه النضر بن شُميل: «أقام الخليل في خص من أخصاص البصرة لا يقدر على فلسين، وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال، ولقد سمعته يوماً يقول: إني لأغلق عليّ بابي فما يجاوزني همي»، وبينا ترى عالماً كسعيد بن المسيب وهو من جلة التابعين يدعى إلى نيف وثلاثين ألفاً ليأخذها فيرفضها ويقول: لا حاجة لي فيها ولا في ملك بني مروان حتى ألقى الله فيحكم بيني وبينهم. وبينا ترى الشيخ شمس الدين البساطي قاضي قضاة المالكية يتعفف عن تناول راتبه من بيت المال ويرضى بأن يخرج في الغلس بشبكته فيصطاد ما يبيعه بقوت ذلك اليوم وهو في هيئة الصيادين ثم يجيء من خوخة في بيته فيدخل منزله ويلبس ملابس القضاة ويخرج من الباب إلى الدهليز ويجلس مجلس القضاء للحكم بين الناس!. وبينا ترى الفضيل بن عياض - وهو الذي طبقت

شهرته الآفاق في عصره - يأتي إليه الرشيد كبير ملوك الأرض في زمنه فيطرق بابه ليلاً ليسمع منه موعظة يعظه بها، فيعظه الفضيل بما وعظه، حتى إذا هم الرشيد بالخروج قال له: أعليك دين؟ قال: نعم دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم يلهمني حجتي. قال الرشيد: إنما أعني دين العباد. قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره. فأعطاه ألف دينار فردَّها وقال: أنا أدلك على النجاة وتكافئني بمثل هذا؟ سلمك الله ووفقك!.

بينما ترى زهد أمثال هؤلاء الأجلاء قد بلغ مبلغاً يملأ القلوب روعة وجلالاً، إذا بك ترى علماء هذا العصر يتكاثرون بالأموال، ويتفاخرون بالثياب، ويتباهون بالأثاث والحلي والمركبات، ويتكالبون على الدنيا تكالب من لا يرى الخروج منها أبداً. ولست أريد أن أضرب لك الأمثال بفلان وفلان فأعين أشخاصاً بأسمائهم، ولكني سأقص عليك طرفاً مما أعلمه عنهم، فهذا فلان ما زال يكد ويكدح في الأموال من مختلف الطرق حتى إذا اجتمع له مبلغ لا بأس به أرسله إلى أحد المصارف المالية على أن يأخذ فائدته عن طريق الربا. يفعل هذا وهو يعلم أن الربا حرام، وكثيراً ما كان يعظ الناس وينهاهم عن الربا، ولقد سأله بعض أصحابه مرة عن هذا العمل وهو يعلم حرمته فأجاب: إن لي أطفالاً صغاراً أخشى عليهم العيلة من بعدي!!.

وهذا فلان أراد أن تكون له وظيفة من وظائف العلماء فسعى لها بكل جهده وتقرب إلى من بيدهم التوظيف بأعمال لا يقرها الإسلام، وأراق ماء وجهه على سبيل يذهب بالعزة والكرامة، حتى إذا نالها انقلب على الدين حرباً عواناً، فأخذ ينهب هذا ويسلب ذلك تحت ستار الدين والعلم.. ويا لبؤس العلم إن كان هذا من أدعيائه.

وهذا فلان اتخذ لنفسه خطةً أن لا يفتي سائلاً إلا إذا وضع له أجرة الفتوى بيده، وربما ساوم في الأجرة وجاول فيها كمن يبيع سلعة من السلع، مع أنه مكفيّ المؤنة وافر المال ويتقاضى من خزائن الحكومة أموالاً كثيرة، ولقد بلغ من حرصه على جمع المال أن جاءه عامل من العمال

الذين يشتغلون في بناء بيت له فطلب منه تأريخ مسجد جديد ببيتين من الشعر. فنظم له بيتين تضمنا تاريخ المسجد، فلما جاء العامل ليقبض منه أجرة عمله أعطاه الأجرة ناقصة نقصاناً كبيراً فقال له: يا مولانا أين بقية أجرتي؟ قال: أنسيت؟ ألم أنظم لك بيتين من الشعر؟ ألم تعلم أني تعبت فيهما كثيراً كما تعبت أنت في عملك؟ وأصر الشيخ على أن يأخذ أجرة نظمه البيتين من أجرة العامل البائس الفقير!

وهذا فلان بلغ من حبه للمال أن كان يتلاعب بأحكام الدين فيحرّم الحلال ويحل الحرام وفق ما يشتهي السائل، حتى لقد اختصم اثنان في قضية فأتى أحدهما يستفتيه فيها ووعده بإجزال العطاء إن هو أفتاه بما يهوى، فأجابه الشيخ إلى ما طلب، فلما علم خصمه الثاني بذلك أسرع إلى الشيخ وبذل له من المال فوق ما بذل ذلك وطلب منه الجواب بخلاف ما أجاب به خصمه، فسرعان ما أجابه الشيخ إلى طلبه غير متحرج ولا متأثم!

إن في القلب من أمثال هؤلاء جروحاً مضنية، ولو زدت على ذلك ما نلحظه في كثير من العلماء من غيبة ونميمة وتخاصم على الدنيا وتزلف إلى الحكام وحرص على تبكيت بعضهم لبعض وانتقاص كل من أقدار الآخرين، لعلمت أن حالة علمائنا من الناحية الخلقية حالة تضني الكبد من الأسى!

ولست أزعم أن جميع علمائنا اليوم كما وصفت لك، ففيهم من لا يزال على ما عهد في العلماء من ورع وتقوى وابتعاد عن الدنيا وشهواتها، ولكن هؤلاء قليلون بحيث لا يصح أن يجعلوا مناط الحكم في مثل هذه المسائل، وإنما أتكلم عن الكثرة الغالبة، وهم كما وصفت لك وفوق ما وصفت، ولولا أن في الفؤاد رادعاً من الدين، وفي النفس خشية من الفضيحة، لصرحت لك بكثير مما يبكي ويؤلم، فحسبك اليوم ما سمعت، وإلى الله الشكوى مما عمت به البلوى؛ والله حسبنا ونعم الوكيل.

أما الكلام عن الناحية العلمية في علمائنا اليوم فسأحدثك بها ـ إن شاء الله ـ.

نكبة الإسلام في تعليم أبنائه[1]

لمن يشكو الحزين إن تملكه الأسى، وامتلأ فؤادُه بالحسرات؟ لمن يبثّ المحزون ما يلقاه من تكاثر الهموم وتدافع الآلام؟ فقد والله آذتني هذه الآلام حتى ما أكاد أطيق لها احتمالاً، ولطالما تساءلت في نفسي: لئن كان هذا هو مبلغ ما أعانيه من الأحزان وأنا في ريعان الصبا وعنفوان الشباب، فكيف تكون الحال إذا امتدَّت بي الحياة حتى بلغت زمن المشيب؟

لا تحسبنَّ أيها القارىء الكريم أنني أشكو آلاماً كهذه التي يشكوها مرضى الأجسام والقلوب! ولا كتلك التي يضج منها أصحاب الأموال والأعمال، ولا هي كالتي يتوهمها أهل الحبّ والغرام؛ فأنا بحمد الله لست أجد من هذا كله قليلاً ولا كثيراً، وإنما أشكو آلاماً تتصل بحياة هذه الأمة وسيرتها وسمعتها، آلاماً مبعثها هذه الدسائس على دين الله الآخذ بعضها برقاب بعض، مع ما نراه من استسلام الحماة ونوم الذادة، وإهمال القادة. آلاماً طالما صبرتُ وحملتُ نفسي على تحملها، فما كنت أزداد كل يوم بما أرى وأسمع إلا ألماً على ألم، وأسى فوق أسى؛ حتى فاض الإناء ولم يبق في قوس الصبر منزع، فما بد من أن ألقي إليك هذه الآلام في كلمات متعاقبة، أقتطعها من فؤادي، وأنتزعها من قرارة نفسي، لا لأندب وأنوح كما يفعل أهل اليأس والجوع، بل لأستثير فيك لواعج الألم وحرقة الفؤاد،

---

(١) مقال الفتح الغراء العدد: ٥٨١ العام الثاني عشر شوال ١٣٥٦هـ.

عسى أن تجتمع الآلام فتنبعث منها الآمال فتقوى بها العزائم فتكون من ورائها الأعمال فتنفرج بعدها الكربة إن شاء الله، ولو بحثتَ لرأيت آلام الناس مصدر كثير من أعمالهم؛ فأعرني سمعك وفقك الله، وكن لي ذلك الشهم الذي عناه شاعرنا القديم بقوله:

ولا بدَّ من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

بَيْدَ أني لا أريد منك التوجع إلا أن تعقبه بالعمل. ولا التسلية إلا أن يسيغها منك الأمل، ولا المؤاساة إلا أن تكون الجهادَ حتى يحين الأجل؛ فإن وفيت لي بذلك ـ وهذا ظني بك ـ فأنتَ ذو المروءة، وأخو الشدَّة، ورفيق الكفاح حتى نلقى الله عز وجل منضوين تحت لواء قائدنا الأكبر صلوات الله وسلامه عليه وبركاته.

تكلم الأستاذ علي الطنطاوي في العدد **٥٧٩** من الفتح الأغر عن ذلك الغرّ الأحمق الذي وُكل إليه دراسة التاريخ الإسلامي في ثانوية دمشق، فافترى على الإسلام بما شاء له تعصبه وجهله! كما نشر الفتح أيضاً احتجاج جمعية الشبان المسلمين في دمشق على ذلك الوقح، ومطالبتها وزير المعارف بإحالته إلى المحاكم ليلقى جزاء مفترياته على الحق والتاريخ وكرامة الأمة التي يعيش في ظلها. وأظنك أيها القارىء بلغ بك الألم مبلغه حينما علمت نبأ هذا الاعتداء الشنيع على كتاب الله وأعلام دينه، وأي مسلم لا ترتعد فرائصه غضباً حين يسمع التشكيك بكتابه، والطعن في دينه، والكذب على أئمته، يلقى على فئة من أبناء المسلمين أقل ما يقال فيهم أنهم ليس لهم من التفقه في الدين والعلم بتاريخه ما يجعلهم في مأمن من تسرّب تلك الشكوك إليهم.

ليس الألم في هذه الحادثة ناشئاً عن أن فلاناً طعن في الإسلام الحكيم الرحيم، فتلك مسألة ابتدأت منذ أربعة عشر قرناً ولما تنته بعد، وما نزال نسمع كل يوم افتراء مستشرق وشكوك ملحد ومهاجمة عدو لهذا الإسلام مغمور بفضله وعدله ورحمته.. ولكن الألم آت من ناحية تدعو إلى

الأسف حقاً، وتبعث على التأمل والعمل على درء ما فيها من خطر كامن، تلك هي أنَّ بطل هذه الحادثة «مسيحي شيوعي لا يؤمن بدين ولا يقرُّ بإله» كما ذكر الأستاذ الطنطاوي، وأن الحكومة السورية وكلت إليه دراسة التاريخ الإسلامي وهو على ما ذكرنا من الصفات، وأن أبناءنا في ذلك المعهد مضطرون إلى سماع السخف والتضليل بحكم كونه أستاذاً لهم. ولست أدري والله أي نظام في الدنيا يبيح لمتعلم تدريس علم ليس له فيه ناقة ولا جمل؟! ثم أية حرية في العالم تبيح لرجل أن يطعن باسم العلم الملفق والتاريخ الكاذب في معتقدات ناشئة عهدت إليه أن يثقفها بالحقائق التاريخية النزيهة لا بمثل ذلك الافتراء الفاحش على الإسلام وتاريخه؟

إن رئيس الجمهورية السورية مسلم، ورئيس الوزارة السورية مسلم، والأكثرية الساحقة في الأمة السورية مسلمة، والطلاب الذين أُلقيت عليهم تلك الضلالات أكثرهم مسلمون إن لم نقل كلهم، فكيف استباحت وزارة المعارف السورية لنفسها أن تكل دراسة تاريخ الإسلام وحضارته وثقافته إلى ناشىء جاهل لا وفاء عنده للإسلام ولا معرفة له بحقائقه، إن لم نقل أنه متعصب عليه مبغض له شانىء لأهله؟ أإلى هذا الحد بلغت الحرية الهائمة على وجهها في بلاد الشام؟ أإلى هذا الحد بلغ التسامح عند رجال حكومة الشام؟ لو أن حكومة واحدة من حكومات العالم سبقت حكومة الشام إلى مثل هذا الصنيع لقلنا أن لها عذراً فيما قلدت به، ولكن أية حكومة في الدنيا أباحت لأعدائها أن يدرسوا لأبنائها أمجاد ملتها وتاريخ ثقافتها وحضارتها؟!.

ولو قلنا أن بين القائمين على شؤون التعليم في بلاد الشام من لا يحفلون كثيراً بدين الأمة، أو بتعبير عصري: أنهم لا يتعصبون للدين كثيراً، فهل هم لا يحفلون بتاريخ الأمة؟ أفلا يتعصبون لأمجادها؟ أفلا يهتمون بمفاخر السلف؟ وأية حضارة أو مجد للأمة يبقى إن هدم القرآن وتسرب الشك فيه إلى أتباعه، وأصبح أبناؤنا لا يعلمون عن أسلافهم إلا أنهم مزورون مجمعون على ارتكاب البدع دساسون على الله وعلى رسوله؟!.

دعونا من التعصب للدين والتعصب للسلف، أفلا تتعصبون للحق والتاريخ، مطلقاً من أي اعتبار؟ إن أول ما يشترط في مدرس التاريخ أن يتجرد عن ذميمة التعصب والتحيز، أفكان هذا «الخواجه» الذي وكلتم إليه دراسة تاريخ الإسلام متصفاً بالنزاهة والتخلي عن التعصب والهوى والغرض؟ ها هو ما ألقاه على طلبة التجهيز معروض على أبصاركم فاقرؤوه ثم قولوا لنا: ما هذه القذارة التي يفوح نتنها؟ أهذا هو التاريخ؟ أهذه هي الدراسة النزيهة؟! لو أن هذا الجاهل الدساس قال ما قاله عن بحث وتحقيق لكان هنالك مجال للاعتذار عنه بأنه بحث فأخطأ، ولكنه وهو وأشباهه إنما يتخبطون في مثل هذا الهذيان ترديداً لافتراءات بعض المستشرقين المغرضين على الإسلام، وهؤلاء الأطفال أشبه شيء بالببغاء تنطق بما يلقى إليها. على أن أولئك المستشرقين رغماً عما افتروه على الإسلام وألصقوه به من تهم شنيعة، هم في نظرنا خير من هذا «الخواجه» وأضرابه، لأن أولئك إنما انفرد فيهم التعصب وحده، أما هؤلاء فقد اجتمع فيهم التعصب والجهل والخبل، ويا بؤس أمة لا تعهد بدراسة تاريخها إلا إلى المتعصبين الجهلاء المجانين!

إننا ما كنا لنلقي بالاً إلى تعصبات هذا الأخرق، شهد الله، لولا أن في المسألة طلاباً مسلمين يلقى إليهم بالكفر، وأمة مسلمة يفترى على دينها بالكذب، وحكومة تبتدع في وظائف التدريس بدعة لم تسبقها إليها حكومة قطّ على وجه الأرض، فلئن سكتنا اليوم عن دراسة «ميشيل» لتاريخ الإسلام فسنسمع غداً أن «جرجس» يفسر القرآن. وأن «بطرس» يشرح الحديث، وأن «حاييم» يدرس الفقه الإسلامي من صلاة وصيام وزكاة وهلم جرا. فالمسألة تستدعي عملاً جدياً يحول دون هذه الألاعيب المنكرة الخطرة، ولن يكون ذلك ببضع مقالات تكتب هنا وهناك بل بإفهام الحكومة القائمة أو على الأصح وزير المعارف في حكومة الشام أن الأمة لا يمكنها أن تصبر على هذه الفوضى تصدر عن وزارة أول واجباتها تربية الناشئة على احترام سلفها والتمسك بأهداب ملتها والاعتزاز بأمجادها، وإلا فكل جهل في الأرض خير من علم يسيء إلى الأمة وإلى الحقيقة في هذا كله.

وبعد، فإن نكبة الإسلام في تعليم أبنائه في هذا العصر نكبة لم تصب بها أية أمة على وجه الأرض، فبينما تجد أمة كالفرنسيس أو الألمان أو الإنكليز مثلاً تحرص على أن تجعل ثقافة أبنائها ثقافة واحدة مشتركة مرتكزة على الاعتزاز بمفاخر قوميتهم، وبينا تجد الكاثوليك أو البروتستانت يحرصون على أن يغرسوا في قلوب ناشئتهم حب دينهم ووجوب الدفاع عنه، إذا بك تجد المسلمين مهملين تثقيف عقول أبنائهم بثقافة الملة، غافلين عن ملء قلوبهم بحب السلف وحضارتهم، حتى ليذهب بك بعض المساكين إلى أن ذلك عمل رجعي لا يليق بأهل هذا القرن العشرين!..
ومن هنا تقاسمتنا الأمم الأخرى: فالأمريكان والإنكليز يعلمون بعض أبنائنا، والفرنسيون والإيطاليون يعلمون بعضاً آخر. وبقية أبنائنا يعلمهم أمثال ميشيل عفلق، وهكذا دواليك، فإذا ألقيت نظرة على المثقفين من أبناء المسلمين فلن ترى هنالك كتلة واحدة تشترك في ثقافة واحدة وغاية واحدة يعتمد عليها المستقبل في إقامة بنائه كما هو شأن الأمم الأخرى، وإنما ترى مجموعة متخاذلة القوى، منحلة العزائم متضاربة الميول والأهواء: فهذا فرنسي في ثقافته، وذاك بريطاني في تربيته، وآخر إيطالي في عقليته، وآخر شيوعي في آرائه، فليس بغريب أن ينكر الأول دينه ويجحد الثاني قوميته ويكفر الثالث بحضارته ويثور الرابع على نظم الإسلام وتقاليده، وما هذا الذي نراه من بعض المتصرفين في شؤون الأمة من جحود للدين وتباعد عن خدمته وعمل على إضعافه أو إماتته في نفوس أبنائه إلا أثر من تلك الثقافات أو السخافات الأجنبية التي اختزنوها في أدمغتهم يوم كانوا طلاباً في معاهد التبشير!... فقل لي بربك! أمة هذا حال شبابها كيف ترجو منهم العمل على ردّ العدوان عنها متكاتفين مجتمعين!؟..

هي نكبة بلا ريب، فمن المسؤول عنها؟ قد يطول الجواب عن هذا، وإذا كنا نضع قسطاً كبيراً من وزرها على المستعمرين فما بال زعمائنا لا يصلحون ما أفسده الاستعمار وقد انتهت إليهم مقاليد الأمة؟ وما بالهم ينظرون إلى من يطالبهم بإصلاح برامج التعليم ودوائر القضاء الشرعي نظر

بغض وكره ويوحون إلى أذنابهم أن يشيعوا بين الناس أن حركة المطالبين بالإصلاح حركة مصطنعة لا بغية لها إلا تشويه الحكم الوطني في بدء عهد الاستقلال!؟ لا يا هؤلاء الناس! إن هذا الاتهام الوضيع قد سبقكم إليه أمثالكم في غير بلدكم فباؤوا بإثمه وخزيه، وإن الذين تتهمونهم بهذه التهمة الساقطة كانوا أنصع منكم جبيناً وأطهر يداً يوم كانت الأمة تكافح المستعمر لنيل استقلالها، فلا تدلّسوا على التاريخ والعهد ليس ببعيد ولا مجهول!..

يا شباب محمد ﷺ في سوريا وفي كل قطر إسلامي: إن الأمور في بلاد الإسلام قد ساءت إلى مثل ما ترون، ولقد جهدنا كثيراً أن يكون الإصلاح على أيدي من تعلمون من الزعماء، ونتمنى أن لا يخيب الأمل وأن لا يضيع الرجاء، فعليكم بعد اليوم يا شباب محمد ﷺ يتوقف أمل الإسلام في إنهاضه من كبوته. إن عليكم واجباً هو أن تفهموا الأمة حاجتها - في حفظ كيانها - إلى الدين، وأن تفهموا الزعماء حاجتهم - في الإبقاء على زعامتهم - إلى صون كرامة الدين.

يا شباب محمد ﷺ قولوا لزعمائكم: إن كنتم تودون أن تقلدوا أقواماً نبذوا الإسلام فاعلموا أنهم لم يفعلوا ذلك إلا كرهاً بالعرب وما يحملون والعروبة وما تتضمن، فعلامَ تقلدونهم وأنتم تتزعمون العرب وتنشدون رفعتهم وليس للعرب مفخرة أعظم من الإسلام؟ ولئن ظننتم أن العروبة شيء والإسلام شيء آخر فهل كانت تتم للعرب تلك المعجزة الكبرى في فتح الأرض وتشييد صروح الحضارة الإسلامية الخالدة لو لم يكن محمد ﷺ وهدايته؟ هذا هو الحق، وليس بعد الحق إلا الضلال.



نكبة الدين في انحراف علمائه

العلم نور يقذف الله به في قلوب المخلصين من عباده، فينير الله سبل الحق، ويهديهم سواء السبيل، ويغمرهم رحمة وبركة، ويعصمهم عن الانزلاق في أودية الباطل، والانصياع إلى شيطان الفتنة، فلا ترى أكثر منهم خشية لله، ولا أشد منهم غيرة على دين الله، ولا أحرص منهم على رعاية الأمانة وتأديتها حق الأداء، لا يصرفهم عن ذلك شدة ولا فقر ولا ابتلاء. ذلك هو العلم الحق الذي ينفع الله به الخلائق، ويكون لأهله منه ذكر لا يطوى، وثناء لا ينفد، ومنزلة في الفراديس لا تعلوها إلا منزلة الأنبياء والصديقين. أما ما عدا هذا من مسائل يحفظها الرجل، وعلوم يتقنها، وأساليب في الجدل والمراء يبرع فيها، وقوة على التصرف بأحكام الله كما يشاء الهوى، ثم لا يكون فيه خير لنفسه ولا لأمته ولا لملته، فذلك دعيّ على العلم، لصيق بالعلماء، لا تربطه بهم إلا رابطة اللقب الذي يحمله ظلماً وعدواناً.

العلم نور وعمل وهداية وأمانة، فإذا لم يكن للعالم نور يزيل عن بصره حجب الإنسانية المستعبدة للأهواء، ولا عمل يحمل الناس على اتباع ما يدعو إليه من خير وفلاح، ولا هداية تحول بين الأمة وبين التردي في مهاوي الإثم والشقاء، ولا أمانة تعصمه من التلاعب بالعلم حين تلجّ به الأنانية وفتنة الشهرة، أو حين تبرق له الدنيا الفانية، إن لم يكن فيه كل هذا فهو أبعد الناس عن الله، وأقربهم استجابة إلى الفتن حين تعصف أهواؤها

بالرؤوس، وأكثرهم خزياً وندامة يوم يُحشر الناس إلى ربهم ليلقى كل امرىء جزاء ما قدمت يداه. يرشدك إلى هذا ما رواه جابر عن رسول الله ﷺ: «**لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء، ولا لتجتروا به في المجالس، فمن فعل ذلك فالنار والنار**» وما رواه أبو هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «**إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه**» ولقد كان رسول الله ﷺ يسأل الله علماً نافعاً، ويعوذ به من علم لا ينفع، وبحسبك من الخير ما يسأله أحب خلق الله إلى الله وأعلاهم مقاماً عنده. وناهيك بشرٍ يتعوذ منه الكامل المعصوم المبرأ عن النقائص والعيوب ﷺ، ومن هنا كان علماء السلف، رضوان الله عليهم، أشد ما كانوا حرصاً على رعاية العلم وإيصال هدايته إلى القلوب وصيانته من العبث به وإبلاغه إلى الناس بكل ما وسعتهم الذمة والأمانة والديانة.

هذا الإمام أحمد بن حنبل أحد أئمة المسلمين الأربعة يُدعى ليقول بخلق القرآن فيأبى كل الإباء، فيُعذب أشد عذاب وأبلغه، فما يبعثه على أن يتزحزح من موقفه قيد شعرة، وأنه لقادر أن ينجو من العذاب بكلمة يتأولها، ولكن أمانته في العلم وخشيته على المسلمين من الفتنة جعلاه يتحمل العذاب بجنان ثابت ونفس راضية وهو يقول: «لن تكون على يدي فتنة المسلمين في دينهم وعقيدتهم»!...

وهذا الإمام الشافعي، رضي الله عنه، بلغ من حرصه على إبلاغ العلم لطلابه أن كان يخرج من بيته لإلقاء الدروس وهو شديد العلة من مرض «البواسير»، ولقد حدّث عنه تلميذه الربيع أن الدم كان يخرج منه وهو راكب حتى يملأ سراويله وخفه، وما زال المرض يستفحل وهو دائب على التعليم والإرشاد حتى لقي الله في مرضه ذاك...

وهذا الإمام مالك، رضي الله عنه، بلغ به حرصه على أحكام الله وتحرجه من أن يقول على الله ما لا يعلم أن كان الرجل يقصده من المغرب وهو في المدينة ليسأله عن المسألة فيقول «لا أدري»، فيقول الرجل: أأرجع

إلى المغرب وأقول للناس أني سألت مالكاً فلم يعلم، فتجيبه أمانة العلم على لسان مالك: «قل لهم أن مالكاً قال: لا أدري»!..

وهذا شمس السرخسي من أكابر علماء الحنفية رأى من صاحب «أوزكند»[1] ما لا يتفق مع الشرع الذي يمثله، فتقدَّمَ إليه بالإنكار والنصيحة، فأمر بسجنه في الجب، فما منعه حبسه هذا، ولا سجنه في الجب من أن يملي على أصحابه نحو خمسة عشر مجلداً من كتابه المبسوط، كان يملي فيها من خاطره بلا مطالعة كتاب، ومع ما كان فيه من محنة وكرب لم يمتنع عن أن يعلن إصراره على موقفه ممن سجنه والمناداة على رؤوس الأشهاد بأنه محبوس في محبس الأشرار. ولما أطلق من سجنه أكمل على أصحابه إملاء كتابه.

وهذا عمر بن حبيب القاضي يحدثنا عن نفسه فيقول: حضرت مجلس الرشيد يوماً فجرت مسألة فتنازعها الخصوم، فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن النبي ﷺ، فدفع بعضهم الحديث وزادت المدافعة حتى قال بعضهم: أبو هريرة متهم فيما يرويه. ورأيت الرشيد قد نصر قولهم فقلت أنا: الحديث صحيح عن رسول الله ﷺ وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيما يرويه عن رسول الله ﷺ. فنظر إليّ الرشيد نظر مغضب، وانصرفت إلى منزلي فلم ألبث أن جاءني غلام فقال: أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول، وتحنط وتكفن. فقلت: اللهم إنك تعلم أني دفعت عن صاحب نبيك، وأجللت نبيك أن يطعن على أصحابه، فسلمني منه. وأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسي حاسر عن ذراعيه بيده السيف وبين يديه النطع، فلما بصر بي قال لي: يا عمر بن حبيب ما تلقاني أحد من الدفع والردّ لقولي بمثل ما تلقيتني به وتجرأت عليّ، فقلت: يا أمير المؤمنين إن الذي قلته ووافقت عليه إزراء على رسول الله ﷺ وعلى ما جاء به، فإنه إذا كان أصحابه ورواة حديثه كذابين فالشريعة باطلة، والفرائض والأحكام في الصلاة والصيام والنكاح والطلاق والحدود مردودة غير مقبولة، فالله الله يا

---

(١) أوزكند: بلد في فرغانة، وكلمة «كند» تعني القرية.

أمير المؤمنين أن تظهر ذلك أو تصغي إليه، وأنت أولى أن تغار لرسول الله ﷺ من الناس كلهم. فلما سمع كلامي رجع إلى نفسه ثم قال: أحييتني يا عمر بن حبيب أحياك الله، أحييتني أحياك الله. وأمر لي بعشرة آلاف درهم...

أفرأيت إلى العالم الذي لا يقصد إلا الله كيف يتحمل الآلام ويتعرض للمخاطر في سبيل أمانة العلم، وكيف يتلقى الاضطهاد بصدر رحب فلا يحول ذلك بينه وبين نشر رسالة العلم، وكيف يجود بنفسه رخيصةً في سبيل الدفاع عن أحكام الله ونفي المفتريات عن رواتها.

لعلك تقول إن هذه نوادر أفراد لا يخلو منهم زمان. إذاً فاستمع لما أتلو عليك لتعلم كيف كان العلماء جميعاً يقفون في وجه الباطل ويأبون أن يبدلوا أو يترخصوا في حرمات الله مهما تعرضوا له من الأذى. وروى الطرطوشي صاحب سراج الملوك أن المنصور ابن أبي عامر ملك الأندلس احتاج أن يأخذ أرضاً محبسة (موقوفة) ويعاوض عنها خيراً منها، فاستحضر الفقهاء في قصره واستفتاهم، فأفتوا بأنه لا يجوز، فغضب السلطان عليهم وأرسل لهم وزيراً مشهوراً بالحدة فوبخهم، فردوا عليه بما ردوا ثم انصرفوا، فما بلغوا باب القصر حتى نادتهم الرسل وتلقتهم الوزراء بالإعظام ورفعوا منازلهم واعتذروا إليهم عن المنصور ابن أبي عامر أنه مستجير بالله وندم على ما كان منه وهو مستبصر في تعظيمهم وقضاء حقوقهم.

تلك هي أمثلة يسطع منها النور والجلال، أسوقها بين يديك لتقارن بين عهد غابر وعهد حاضر، فترى فرق ما بين أولئك الذين مضوا إلى ربهم بعد أن أدوا واجبهم وخدموا ملتهم وبين هؤلاء الذين بلغوا مرتبة تسر العدو وتحزن الصديق!.

إن جمهرة علمائنا اليوم على اختلاف مشاربهم ومناهجهم قد ضعفت فيهم روح الدفاع عن حرمة العلم والمحافظة على أمانته، ورضوا من الدنيا بغرضٍ زائلٍ وذكرٍ خاملٍ. إن المنكرات لم تنتشر في عصر كما انتشرت في

عصرنا هذا، ولا هتكت حرمات الدين كما هتكت في زمننا الحاضر، ولا انتقضت عرى الإسلام عروة عروة كما انتقضت اليوم، ومع هذا فهل تحس لعلمائنا حركة أو تسمع لهم صوتاً؟ وهل أخذتهم الغيرة على كرامة العلم وحرمة الدين أن يقفوا في وجه الجهل والعدوان يداً واحدة وصفاً واحداً؟ تسألهم: لم لا تغضبون لدين الله وأنتم ترون التهجم عليه وعلى أهله جهاراً وعلانية! فيقولون لك: وماذا نفعل ولا قوة لنا ولا شوكة، إن الزمان زمان سوء؟ أما والله ليس الأمر أمر شوكة فُقدت أو أيام فسدت، وإنما هو أمر دنيا حرصوا عليها ورتبٍ تعلّقوا بأهدابها فخشوا أن تضيع من أيديهم هذه وتلك إن وقفوا وقفة الناصح لدين الله!.. فانظر كم بينهم وبين من نشرنا لك من ذكرهم وآثارهم ما تتعطر به الدنيا وتنتعش به روح الحق والإسلام.

والأنكى من هذا أنك أصبحت اليوم أمام كثير ممن ينتسبون إلى العلم ولا يجدون في أنفسهم حرجاً من أن يقلبوا أوضاع الدين من حل إلى حرمة ومن حرمة إلى حل حين يشعرون أن من وراء ذلك شهرة تلحقهم أو مغنماً يصيبونه، ولا أحب أن أطيل عليك بأخبارهم، وإنما أذكر لك أنموذجاً من أعمالهم لتعلم إلى أي حال بلغ العلم والدين عند هؤلاء.

هذا واحد أعرفه ذا علم غزير وعمر طويل حمله تطلعه الشديد إلى وظيفة دينية على أن يضحي بكرامة العلم بين يدي موظف كبير يرجو أن يكون التعيين بواسطته. فإذا كان في مجلسه تصاغر أمامه وتضاءل، وأظهر الموافقة لكل قول يقوله ورأي يبديه. وإذا كان في درس عام أو خطابة تفنن في مدحه والثناء عليه والدعوة إلى طاعته لأن طاعة أولي الأمر واجبة كطاعة الله ورسوله! وهو يعني بولاة الأمر الموظفين من المسلمين في حكومات الاستعمار المسخرين لتنفيذ مآرب المستعمرين وغاياتهم، وربما يأخذك العجب إذا ذكرت لك أن هذا الموظف الكبير الذي يطمع صاحبنا في وظيفة على يده بلغه أن بعضاً من الشباب يود إلقاء كلمة دينية في أحد المساجد الكبيرة بمناسبة المولد النبوي الشريف، فأرسل يستدعيه واتفق أن كان وصوله في الساعة التي وصل فيها صاحبنا المتزلّف فأشار الموظف

للشاب بالامتناع عن إلقاء الكلمة خشية أن يضطرب الأمن ويكون ما يثير القلاقل في وجه المستعمرين، ثم التفت إلى صاحبنا الشيخ قائلاً: وما رأي مولانا الأستاذ فيما يريد أن يفعل الشاب! فاندفع مولانا الأستاذ مبيناً أن المحاضرات في المساجد بدعة لم تكن على زمن الرسول ولا على عهد صحابته، وأن الواجب العدول عنها ابتعاداً عن البدع المحرمة في الدين، وتحقيقاً لرغبة أولي الأمر وطاعتهم!

فأنت ترى أن صاحبنا لم يتورع عن أن يكذب على الله ورسوله بتحريم ما يحل، بل ما يجب في هذا الزمن، وأن يحرف تأويل آية في كتاب الله وفق هواه، وأن يكون عوناً للمستعمرين في الحيلولة دون يقظة المسلمين. كل ذلك لوظيفة لا يتجاوز مرتبها دراهم معدودات!! فيا لشقاء المسلمين والإسلام بأمثال هؤلاء، وإنهم وربك لكثيرون!

والناس يعلمون أمر ذلك الشيخ الذي ذهب إلى أن الإسلام ليس دين حكم فحكم عليه بتجريده من شهادة العالمية لأنه لم يعد أهلاً لما تؤهله له من فتيا وقضاء. ثم تكر الأيام ويدور الفلك فإذا هناك فكرة ترمي إلى إعادة الشيخ إلى زمرة العلماء مع أنه لم يعلن خطأه في مذهبه ذاك ورجوعه عنه، وإذا في علمائنا من يساعده على ذلك!

وأظن أن قراء الفتح لم ينسوا خبر ذلك الشيخ الذي طوح به حب الشهرة ونباهة الذكر في طريق ملتوية معوجة وليس من ورائها إلا هدم أهم مظاهر الإسلام وأجمل محاسنه، وهي جعل إقامة حدود الشرعية مباحة لا واجبة!؟.. فلما ضيق عليه الخناق وأدركه الغرق قال إنها فكرة خطرت لي فرأيت أن أتبين وجه الحق فيها فعرضتها للتمحيص. اسمعوا أيها الناس! لم تبق وسيلة لتبين وجه الحق فيما أجمع عليه المسلمون في أمر الحدود إلا أن يعرض التشكيك بها على صفحات الصحف السيارة فيقرأها المسلم وغير المسلم، ومن يعلم ومن لا يعلم! كلا إنها كلمة الغريق حين يدركه النزع، وما هي إلا فتنة انتشار الصيت واشتهار الذكر.

ولقد عرض أستاذنا الجليل شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي في عدد قريب من الفتح لذلك العالم التونسي الكبير الذي قلب الحقائق وتلاعب في العلم ليخرج الناس بفكرة تحليل القبعة، وما به من حاجة إلى هذا الصنيع سوى أن يعرف الشباب عنه أنه عصري ومجدد لا جامد ولا مقلد، ولقد سبقه إليها شيخ في مصر كان ما يزال أكبر همه أن يلهج الناس بذكره والثناء عليه ولو كان بتحليل المحرم!.. فانظر إلى أي حد بلغ التلاعب بالعلم عند هؤلاء وأمثالهم حتى أصبح ككرة تتقاذفها الأهواء والشهوات، ولولا أن في علمائنا بقية ممن لا يزالون على ما عاهدوا الله من وفاء لدينه وذبٌ عن حياضه لتقطعت النفس أسفاً على العلم أن يودي به أولئك إلى الحضيض، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

بقيت هنالك ناحية أعتقد أن علماءنا قاطبة مؤاخذون فيها على السواء، تلك هي أن أبناءنا اليوم أضحوا في محيط تضطرب في نواحيه الشكوك والشبهات، وتمتلىء جوانبه بالأباطيل والأراجيف، فإذا أرادوا أن يقرؤوا الإسلام بلغة يفهمونها، وأسلوب يتذوقونه، وثقافة يقرون بها ليدفعوا الأباطيل بالحقائق ارتدوا خائبين لا يلوون على شيء.. فإلى متى يظلون مغمورين بهذه اللجج الطامة لجج الشك والجهل والأباطيل دون أن يتقدم علماؤنا لإنقاذهم وإحياء نفوسهم؟!

ألا إن التاريخ سيسجل على علمائنا اليوم أنهم لم يخدموا الإسلام في محيط الشباب، ولست أدري بم يكون دفاعهم عن أنفسهم؟!

هذه هي الناحية العلمية في علمائنا، أما الناحية السياسية فيهم فسأحدثك عنها قريباً إن شاء الله.



العلماء والسياسة [1]

عرفتَ مما سقته إليك فيما سلف ما للعلماء من مكانة سامية اختصهم الله بها، وما عليهم من تبعات عظيمة هي فوق تبعات الملوك والأمراء ومن دونهم من طبقات الأمة. وبدهي أن من كانت لهم تلك المنزلة في محيطهم الاجتماعي وعليهم تلك التبعات نحو دينهم وأمتهم، كان من حقهم أن يأمروا فيُطاعوا، وكان من واجب السلطة المنفّذة أن تستمع إلى إرشادهم وأن لا تقف سداً منيعاً دون أداء مهمتهم، مهما علت هذه القوة وعظمت. إذاً فللعلماء قيادة الأمة إلى الحق وتصريف شؤونها على الوجه الذي يحفظ عليها دينها ويصون لها كرامتها ويحول بينها وبين انحلال أمرها وخذلان شأنها. ليس هذا بدعاً نقوله اليوم، وإنما هو أمر قرره الإسلام من قبل، حتى إن مجاهداً وهو من أئمة التابعين فسر قوله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2] فقال: هم الفقهاء والعلماء، وكذلك قال كثير غيره. وقال ابن القيم في أعلام الموقعين بعد أن عرض للروايتين في تفسير (أولي الأمر) هل هم العلماء أم الأمراء: «والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٥٨٧ العام الثاني عشر ١٣٥٦هـ.

(٢) النساء، الآية: ٥٩.

أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء» ا.هـ.

ولهذا رأينا علماءنا في إبان شباب الإسلام وفتوته يتصدَّرون قيادة الأمة، ويتدخلون في شؤون الدولة الداخلية والخارجية، ويتولون الوظائف الكبيرة فيها، حتى بلغ من سلطانهم وقوة شكيمتهم أن كان الخلفاء والأمراء يتقربون إليهم ويبالغون في إكرامهم وإعزازهم إن لم يكن ذلك عن عقيدة في نفوسهم فاسترضاء للأمة التي أسلمت لهؤلاء القادة زمامها ولم تر غيرهم يستحقون التقدير والإجلال، وبهذا تمكن العلماء أن يوجهوا الأمة نحو المثل العليا أمداً طويلاً، ويدرؤوا عنها شيئاً كثيراً من أذى الظلمة من أبنائها، أو المغيرين على حماها من أعداء ملتها، وسترى فيما نقصه عليك ما يملك عليك إعجابك بعظمة هؤلاء الذين ملؤوا سمع الدنيا وبصرها بما خلدوه من جلائل الأعمال، أجزل الله مثوبتهم وأفاض علينا من بركاتهم وأخلاقهم.

أما إبداء آرائهم في سياسة الدولة وتقدمهم إلى الخلفاء بالأمر والنهي كما يتقدم القادة إلى الجنود، فإليك مثلين يدلانك على ذلك أبلغ دلالة:

أولهما موقف الإمام العظيم مالك، رضي الله عنه، من فتنة البيعة للمنصور، فقد كان المنصور أرسل للمدينة ابن عمه جعفراً ليأخذ البيعة من أهلها، فاشتد هذا في أخذ البيعة منهم كرهاً وقهراً، أعلن الإمام مالك أن البيعة لا تصح إلا أن تكون عن طوع واختيار، فمن أكره عليها فيمينه غير منعقدة. فآذاه هشام بالضرب لأنه عدّ أقواله تحريضاً على الدولة، فلما بلغ المنصور ما فعل هشام أنكر عليه أي إنكار وعزله وأهانه وأرسل إلى «مالك» يستقدمه ليسترضيه، فاعتذر إليه مالك فكتب إليه أن يوافيه في الحج القابل، فوافاه بمنى، فلما التقيا قال المنصور للإمام: «والله الذي لا إله إلا هو يا أبا عبدالله ما أمرت بالذي كان؛ ولا علمته قبل أن يكون، ولا رضيته إذ بلغني، وقد أمرت أن يؤتى بجعفر من المدينة مع المبالغة في امتهانه ولا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه» أفرأيت كيف كان موقف هذا الإمام الكبير من فتنة البيعة؟ وكيف لم يرض لنفسه أن يكون بمعزل عن هذه

الفتنة السياسية بل جهر برأيه حتى ناله من الأذى ما تبرأ منه أمير المؤمنين واعتذر إليه اعتذاراً بالغاً في التذلل والاستعطاف؟

ثانيهما: رأى عمرو بن عبيد الزاهد العالم الورع أن الولاة في كثير من الأمصار قد أخذوا في العسف والجور، فدخل على المنصور، وكان مما قال له: «يا أمير المؤمنين إن وراء بابك نيراناً تتأجج من الجور، والله ما يحكم وراء بابك بكتاب الله ولا بسنة نبيه ﷺ» فبكى المنصور فقال سليمان بن مجالد وهو واقف على رأس المنصور: يا عمرو قد شققت على أمير المؤمنين! فقال عمرو: يا أمير المؤمنين من هذا؟ قال: أخوك سليمان بن مجالد، قال عمرو: «ويلك يا سليمان إن أمير المؤمنين يموت، وإن كل ما تراه يفقد، وإنك جيفة غداً بالفناء لا ينفعك إلا عمل صالح قدمته، ولقرب هذا الجدار أنفع لأمير المؤمنين من قربك إذ كنت تطوي عنه النصيحة وتنهى من ينصحه. يا أمير المؤمنين إن هؤلاء اتخذوك سلماً إلى شهواتهم». قال المنصور: فأصنع ماذا؟ ادع لي أصحابك أولِّهم. قال: ادعُهم أنت بعمل صالح تحدثه، ومر بهذا الخناق فليرفع عن أعناق الناس، واستعمل في اليوم الواحد عمالاً كلما رابك منهم ريب أو أنكرت على رجل عزلته ووليت غيره، فوالله لئن لم تقبل منهم إلا العدل ليتقربن به إليك من لا نية له فيه».

تلك هي والله قوة «العلم وسلطانه»، وأولئك هم الذين أعزوا دين الله وأعلوا كلمته! ولا تنس ما قدمناه لك من قبل عن العز بن عبدالسلام وبيعه أمراء الدولة المماليك في عصره، ففيه الدليل القاطع على أن العالم إذا شعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه وتجرد من حظوظ نفسه وشهواتها ولم يذكر إلا الله تعالى كان قوة إلهية تتخاذل بجانبه قوى البشر جميعاً[١].

وأما توليهم لوظائف الدولة الكبيرة، فلست أذكر لك منها القضاء

---

(١) وسننشر لك في القريب العاجل مثلاً من أمثلة هذه القوة الخارقة التي لم تكن لغير علماء المسلمين.

والإفتاء وأمثالهما من الوظائف الخاصة بهم، ولا أحدثك عن الذين تولوا الوظائف ممن لم يعهد عنهم تحرج عن الإثم والشبهات، ولكني محدثك عن أئمة أعلام بلغوا الذروة في الزهد والورع ثم لم يمنعهم ذلك من أن يشغلوا مناصب في الدولة كان يظن أنهم أبعد الناس عنها. فهذا أبو الزناد عبدالله بن ذكوان الذي يلقبه الإمام أحمد بأمير المؤمنين في الثقة بالحديث، والذي يقول فيه البخاري أصح الأسانيد أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة. هذا الإمام الثقة المحدث كان والي عمر بن عبدالعزيز على خراج العراق. وهذا الحسن البصري إمام الدنيا في زهده وورعه كان كاتباً للربيع بن زياد الحارثي بخراسان، وهذا الإمام الشافعي، رضي الله عنه، نزح إلى اليمن وتولى عملاً في إمارته مدة من الزمن لم ينقطع فيها عن العلم، وهذا الشيخ الكبير العيني تولى القضاء والحسبة ونظر الأوقاف في آن واحد ثم كان سفيراً سياسياً بين الملك المؤيد وملك الروم!... وهذا الإمام الشعبي أرسله عبدالملك بن مروان سفيراً إلى ملك الروم أيضاً فأعجب بفطنته وحسن سياسته حتى حسد عبدالملك عليه وأراد أن يغريه به فقال: عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره؟ بل هذا الشيخ الشنقيطي والعهد به ليس ببعيد كان حجة ثقة في اللغة والحديث أوفده السلطان عبدالحميد إلى استوكهولم ولقي الملك أوسكار وكان معه وهو في بلاد الغرب طاهٍ مسلم ومؤذن يقيم الصلاة[1]، إن هذه المناصب التي تولاها أولئك الأئمة القادة لم يكن يدفعهم إليها حب مال ولا دنيا ولا طلب شهرة ولا جاه، فلقد كانوا ـ شهد الله ـ أرفع مقاماً من أن يمر ذلك بخاطرهم فضلاً من أن تتطلع إليه نفوسهم، ولكنما أقدموا عليها لعلمهم بأنهم الرؤوس المفكرة في الأمة والينابيع التي يفيض منها الإصلاح والخير على المجتمع، فلم لا يصلحون شؤونه! ولم لا يتولون أموره؟ وهم أعرف بحقوقه وأشد غيرةً عليه من سواهم؟

(١) ذكر ذلك الشيخ محمد سليمان، رحمه الله، في كتابه «من أخلاق العلماء» ولا نعرف كتاباً مثله تحدث عن مفاخر العلماء وأخلاقهم.

أما جهادهم بالسيف في سبيل الله ونصرة دينه فحديث طويل يكفي أن أذكر لك منه أن عبدالله بن المبارك الإمام العالم التقي كان يحج سنة ويغزو سنة حتى مات وهو منصرف من الغزو. وأن الإمام الشافعي، رضي الله عنه، سافر إلى الإسكندرية ورابط بثغرها سبعة أيام ووجهه إلى البحر في مراقبة الخطر. وأن الإمام البخاري أمير المؤمنين في الحديث كان يرابط في ثغر حربي اسمه (فرير) فإذا جنّ الليل أخذ في جمع الحديث وعبادة ربه. وأن الشيخ الإمام ابن تيمية ركب من دمشق إلى مصر يستصرخها على التتار ثم عاد بعد أن جيّش الجيوش وتقدم صفوف القتال. ومثل هؤلاء الأئمة كثيرون لم يشغلهم الجهاد في العلم عن الجهاد في إعلان كلمة الله ورد الغارات عن بلاد الإسلام. فرحم الله تلك النفوس الطاهرة ما أسمى عظمتها وما أكبر شعورها بواجبها؟!

هذا هو موقف علماء الإسلام السابقين من السياسة العامة داخلية وخارجية، فما هو موقف علمائنا اليوم منها؟ إنهم بين اثنين: مشتغل بالسياسة، ومعرض عنها، أما المشتغلون بالسياسة وهم الأقلون فمن المؤسف أنهم دوماً وأبداً لا يعملون إلا لمصالحهم والوصول إلى نعيم الدنيا والشهوة الكاذبة. ولذا لا يرى كثير منهم غضاضة على أنفسهم أن يتزلفوا إلى من بأيديهم الدنيا ولو كانوا من غير المسلمين، ويضعوا علمهم وذكاءهم وأنفسهم تحت تصرف الاستعمار الغاشم يصرفها كما يشاء. كل ذلك ليصلوا إلى كراسي الحكم أو تسلم لهم وظيفة من وظائف الدولة أو تكون لهم عند أقطاب الاستعمار والحكم الحظوة والجاه والمكانة العالية! وبهذا اتخذ منهم أعداء الإسلام أطوع أداة لتنفيذ مآربهم وإنجاح خططهم. لا تعجب أيها القارىء فوالله ما قلت لك إلا حقاً. ألم يكن في بلاد الشام واحد من هؤلاء بلغ أقصى مرتبة في الوظائف الدينية فما هو إلا أن انغمس في السياسة حتى تواطأ مع المستعمرين على امتصاص دم أمته وإفساد عقائدها وأخلاقها فتسنى له بذلك أن يصل إلى أسمى مرتبة في الدولة، فأعمل في خزائنها النهب والسلب وأطلق يد المستعمرين تتصرف في أزمّة الأمة المنكودة الحظ..؟ ألم

يكن هناك من العلماء من يشدون أزره ويدعون الناس إلى تأييده ويحاولون أن يصرفوا الأنظار عن جرائمه وسيئاته؟ ألم يكن من علماء الغرب أعوان للمستعمرين في تنفيذ السياسة البربرية المعلومة؟. ألم يكن من هؤلاء من أفتى بجواز احتكام البرابرة في أحوالهم الشخصية إلى ما أفنى عليه الدهر من عادات قبيحة كانت لهم قبل أن يمنّ الله عليهم بالإسلام مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾[1]!... ألم يكن من هؤلاء من رضي بأن يكون من أعضاء الشرف للمؤتمر الأفخارستي الكاثوليكي الذي عقده الرهبان في المملكة التونسية قبل سنين معدودات إرضاء للسادة المستعمرين وهو يتولى أرفع منصب ديني في الإسلام؟ أنسي الناس موقف مفتي قسطنطينة في ذكرى مرور مائة عام على استعباد الجزائر؟ ألم يكن من هؤلاء من كانوا يدعون الناس إلى الرضوخ للسلطة الغاشمة المستعمرة امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2] حتى إني ابتليت بواحد منهم رماني مرة بالكفر لأني خطبت الناس عن فظائع إيطاليا في طرابلس الغرب، فتبلبلت الأفكار وهاجت الخواطر! حسبك مني هذا وإني لأخشى أن أندفع مع حرقة القلب فألقي إليك بالعجب العجاب، ويمين الله أني كلما تذكرت ما ذكره كاتب فرنسي من أن كثيراً من مشايخ المسلمين كانوا جواسيس للفرنسيين، وكان لهم الفضل في استعمار فرنسا للأقطار المغربية، أشعر بألم العار يحزّ في فؤادي حزّاً...

وأما المعرضون عن السياسة من العلماء وهم الأكثرون فتراهم كلما حدث في بلاد الإسلام حادث حوقلوا واسترجعوا ثم اطمأنت نفوسهم كأنهم أدّوا الواجب! وكلما حلّت نكبة في بلادهم أو عصفت فيها أزمة سياسية لها أكبر الأثر في دين الأمة ومستقبلها ألفيتهم منكمشين يعوذون بالله من هذا الزق المملوء بالفتن والأحداث!... وإذا طلبت إليهم إبداء رأيهم في الحالة الحاضرة قالوا لك دعنا من السياسة فلا شغل لنا بها.. وإذا ذكرتهم

---

(١) الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٢) النساء، الآية: ٥٩.

بواجبهم نحو الأمة وما يتحتم عليهم من أن تكون لهم اليد الطولى في سياسة شؤونها استعاذوا بالله من هذه البدعة التي تُحرّضهم عليها، كما يستعيذون به من الكفر والضلال!. هذا والله هو الواقع، وإلا فقل لي بربك أين آثارهم في إنقاذ البلاد من سياسة الأهواء والشهوات؟ أين آثارهم في مقاومة السياسة الاستعمارية التي ترمي إلى إفساد الأخلاق وإضعاف شوكة الدين؟ أين بيانهم للشباب والمثقفين عن محاسن التشريع الإسلامي وإقناعهم صفوة الأمة وخاصتها بضرورة الرجوع إليه؟ أين مقاعدهم في المجلس النيابي؟ أين كراسيهم في الوزارات؟ أين أصواتهم في المؤتمرات والمجتمعات؟ أين دعوتهم إلى الحق دعوة لا يراعى فيها خاطر كبير ولا وزير ولا عظيم ولا زعيم بل يراعى بها مصلحة الإسلام نفسه بأرفق أسلوب وأكثره إقناعاً؟ كل هذا لا أثر له في هذا الوقت العصيب وفي هذه البلاد التي تضطرب بالفتن وتموج.

ثم بعد ذلك يتساءلون ما بال المسلمين تعساء؟ وتالله ما أصبحوا تعساء إلا يوم اتسعت شقة التفاوت بين ما كان عليه علماء المسلمين وما صاروا إليه!... وأنا لا أنكر أن في بعض بلاد الإسلام زمرة صالحة من العلماء قد أخذت أخيراً تسعى لتتبوأ مكانتها في قيادة الصفوف، ولكن هذا لا يكفي أبداً، فما دامت الأمور فوضى والأخلاق في انحطاط، وما دامت السياسة التي يتمشى عليها زعماء الأحزاب في بلاد الإسلام تقوم على اكتساب الشهرة واتساع النفوذ والتحزب لجوانب النفع، أكثر مما تقوم على خدمة الأمة وذوبان الشخصيات في المصالح العامة، وما دامت قيادة الأمة يتطلع إليها كثيرون قد يملكون كل شيء إلا التفاني في سبيل الإسلام وتحلية النفس الكبيرة بمؤهلات الزعامة النافعة، ما دامت الأمور اليوم على هذا الوضع، فمن الواجب أن يشعر علماؤنا جميعاً بالمسؤولية الكبرى، وأن يتقدموا بإخلاص وحزم حتى تمتلىء بهم قاعة المجلس النيابي، وتغص بهم دواوين الحكومة، وتجتمع بأيديهم مقاليد الأمور، وتكون لهم تلك المنزلة التي تخلوا عنها من قبل فاحتلها من كانوا نكبة على الإسلام وعوناً لأعدائه

عليه عمداً أو جهالة، وإذا كان من علماء السلف ما قصصناه عليك والإسلام يومئذ ذو شوكة ومنعة وازدهار، فما أجدر علماء اليوم باقتفاء أثرهم، والإسلام في تفكك وعناء وابتلاء؟

ألا إن هذا أمل من آمال الشباب لست أراه إلا قريب المنال لو صدقنا الله في طلبه، فليبرز علماؤنا إلى الميدان كما برز من قبل العز بن عبدالسلام والفضيل ومالك وابن عبيد وأمثالهم، وليتجرَّدوا من الهوى كتجرّدهم، وسيجدون من تأييد الله وتعضيد الشعب ـ المسلم بفطرته ـ ما يعقد على جباههم أكاليل النصر والظفر إن شاء الله تعالى.



لغة الأمة مظهر عزّها وعنوان استقلالها [1]

خرجتُ البارحة من بيتي قاصداً إحدى الحدائق العامة لأزيل عن نفسي ما لحقها من التعب والعناء، فركبت جمّاز (قطار) الجيزة قاصداً حديقة (الليمون)، وبعد ركوبي ببرهة وجيزة أقبلت سيدة أجنبية فاحتلت مقعداً فارغاً كان أمامي. وأتى النقاب (الجابي) ليقطع التذاكر، فقالت له هذه السيدة بلغة عربية ضعيفة:

ـ أعطني تذكرة إلى الأهرام ذهاباً وإياباً.

فناولها التذكرة حسبما أرادت، فرأت أن تستوثق منه مرة أخرى فخاطبته بالعربية قائلة:

ـ أهذه التذكرة ذهاباً وإياباً؟

فأجابها بالإفرنسية... مطمئناً لها على ذلك. ولشدّ ما كانت دهشتي عندما رأيت السيدة الأجنبية هذه قد صاحت بوجهه بلهجة المغضبة الحانقة:

ـ أنا لست في بلاد فرنسا ولا في أوربا حتى تخاطبني بالإفرنسية، ولكني في بلاد عربية وأنت عربي، وأنا أعرف العربية فمن الازدراء بلغتك أن تخاطبني بغيرها.

قالت له هذا ثم حولت وجهها عنه إذ رأته ضاحكاً من كلامها والتفتت إليّ قائلة:

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٤٤٥ العام التاسع ١٣٥٤هـ.

- إنني يا سيدي لا أفهم معنى لصنيع كثير من شبابكم: يزدري لغته ولغة آبائه وبلاده ليتقرب إلينا معشر الأجانب، مع أني أصارحك أنّا لا ننظر إلى ذلك إلا نظر السخرية والاحتقار، هذا مع علمي ويقيني أن لغتكم - وإن لم أكن أجيدها تماماً - هي أجمل لغة وأعذبها وأرقها!..

حقاً إنه لموقف مخجل!.. امرأة أجنبية تؤنبنا على صنيعنا وتدلنا على مواضع النقص فينا وتهيب بنا للتمسك بفضائلنا؟ لم أجد بداً أمام تلك العاطفة النبيلة من شكرها على محبتها للغتنا والاعتذار لها عن عمل الجهلاء منا.

أثارت هذه الحادثة في نفسي عاطفتين قويتين في آن واحد: عاطفة الإعجاب والسرور، وعاطفة الازدراء والأسى. أما الإعجاب فمن موقف هذه السيدة الأجنبية إزاء لغتنا الجميلة. رأت أنه ليس من الوفاء ولا من الكرامة - وهي تستنشق هواء بلادنا وتستظل بظل رايتنا وتعيش معنا وفي ضيافتنا - أن تتكلم بلغة غريبة عنا، ثم رأت زيادة في الوفاء أن تعبر عن محبتها للغتنا وتفضيلها على غيرها، أليست هي بذلك تستحق إعجابنا بنبلها وسرورنا بوفائها؟.. وأما الازدراء فلذلك العامل الغبي الذي أبى إلا أن يدل هذه الأجنبية على موطن من مواطن الضعف في نفوسنا، فازدرى لغته وأهان بلاده واحتقر أمته، وأخيراً احتقر هذه الأجنبية أيضاً لأنها أنَّبته على عمله المخجل وفعلته النكراء، أليس هو بذلك يستحق ازدراءنا به لمهانته، وأسفنا عليه لانحطاط أخلاقه؟

على أنه قد يكون لهذا العامل بعض العذر وهو كونه جاهلاً غير مثقف، ولكن أي عذر لأبنائنا المثقفين حين لا يتكلمون إلا بلغة أجنبية؟ وأي عذر لفتياتنا المهذبات.. حين يفعلن مثل ذلك؟!

إنه خُلق متفشٍّ في الأمة ذلك هو خلق التفرنج حتى في الكلام، وفي رأيي أن هذا الداء يرجع إلى آخر وهو فقد الرجولة فينا، وهذا الداء الأخير منشؤه الثقافة التي يتلقاها شبابنا وشاباتنا في المدارس، فما دامت المدرسة

تخرج لنا شباباً يعرفون التفرنج ومسالكه وأهواء أهله أكثر مما يعرفون عن أصل انحطاطنا ومنشئه ودائه ودوائه، وما دامت المدرسة تخرج لنا فتيات يعرفن فنون الغزل والغناء والرقص والتهتك وصبغ الشفاه وتزجيج الحواجب أكثر مما يعرفن عن تدبير شؤون المنزل وتربية الأبناء وإخراجهم إلى ميدان الحياة أبطالاً تذخر نفوسهم بالفضيلة وتمتلىء أفئدتهم بالعزة والكرامة. ما دامت مدارسنا تخرج لنا أمثال هؤلاء الشبان والفتيات فمحال أن نكون أمة تحترم نفسها وتعتز بفضائلها، ومحال أن تكون أمة يحترمها العالم وتطأطىء لها الرؤوس كما كنا من قبل!..

ويوم تتبدل برامج التعليم في مدارسنا ويشرف على وضعها رجال يعملون على ما فيه حياتنا ويكون الغرض من العلم تهذيب النفس وإصلاح المجتمع لا ملء البطن وإشباع الشهوة، يومئذ يكمل فينا خلق الرجولة ويومئذ يكون لنا من شبابنا أبطال يعتزون بالفضيلة ومن فتياتنا أمهات صالحات هُنَّ معدِن الطهر وموطن الحياء..

ذلك داؤنا وهذا دواؤنا فهل يسمع القادة والزعماء؟...



قوة الحق وحق القوة (1)

يختلف الناس في طرق الوصول إلى الحق بحسب اختلافهم في الأزمنة والأمكنة، فما يكون وسيلة في عصر لاسترداد حق مغصوب أو ملك مسلوب قد لا يجدي في عصر آخر شيئاً، ولا يعود على المطالب به بقليل أو كثير. ولقد مضى عهد كان السبيل فيه لوصول ذي الحق إلى حقه تحكيم الذمة والنصفة والضمير، وأشدّ ما تجد هذا بارزاً في عصور الإسلام الذهبية يوم كان الإسلام تفتح له الدنيا صدرها ليسكن إليها، ويوم كان الصعلوك الحقير من الأمم الداخلة في ذمة الإسلام وحكمه يقف أمام أكبر رأس في الإسلام ليطالب بحقه، غير مستند إلى قوة ولا معتمد على سلطان ـ إذ لم يكن حينذاك إلا قوة الإسلام وسلطانه ـ ولكنه مستند على الإنصاف الذي يخفق به قلب من يحتكم إليه، معتمد على العدل الذي يملأ جوانح رجال الدولة من أقصاها إلى أقصاها، فلم يكن هناك إجحاف ولا اعتداء، ولا غطرسة ولا كبرياء، وإنما كان الإذعان للحق والعدل في السياسة والرحمة في الحكومة، وما ذلك إلا لأن الإسلام سداه العدل، ولحمته الرحمة، وشعاره إعطاء كل ذي حق حقه. وشاء الله أن يعطى ذلك العصر الزاهر، وأن يصاب المسلمون بالذلة بعد العزة، وبالضعة بعد الرفعة، وبالعبودية بعد السيادة، بما اقترفوا من سيئات، وما ارتكبوا من خطيئات، ثم كانت الحرب

---

(1) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٤٥٦ السنة العاشرة ١٣٥٤هـ.

العامة فأرسل ساسة الغرب إلى رأس من رؤوس المسلمين يخطبون ودّه ويطلبون معونته، على أن يعترفوا له بالاستقلال التام بعد انتهاء الحرب، وكان أن استجاب إلى هذا النداء اعتماداً على وعودهم، حتى إذا انتهت الحرب وأسفرت عن انكسار الألمان وحلفائهم وطولب أصحاب الوعود بإنجاز وعودهم فما زالوا يماطلون ويطاولون حتى رسخت أقدامهم في البلاد وتحكمت سيوفهم في الرقاب وصبوا عليها سوط الذل والعذاب. عند ذلك أخذ أصحاب الحق يستصرخون بالعدالة طويلاً ويحتجون كثيراً فما زادهم ذلك إلا بلاءً فوق بلائهم وشدة فوق شدتهم وكأنما كانوا يستصرخون بالصم أو يستجيرون بالموتى!...

لم يبق بعد هذا شك في سوء مقاصد المستعمرين وأن عهودهم إنما كانت حبراً على ورق اتخذوها شباكاً وحبائل فكان ضرب لازب علينا بعد هذا كله أن نعمل على ما يصون كرامتنا ويرد إلينا حقوقنا وأن نسيء الظنّ بكل ما يقدمه إلينا هؤلاء مما زينوه بشتى الزخرفة والبهرجة. ولكن المؤسف المؤلم أن الجمهرة من هذه الأمة ما برحت تعتقد أنه لا يزال في الدنيا عدل ورحمة، فكلما أصابتهم شدة من دول الاستعمار لجأوا إلى أساليب مختلفة: أبرقوا واحتجوا. ولكن إلى من؟ إلى عصبة الأمم!. إلى وزارة الخارجية!. إلى المندوب السامي!. إلى الصحف والمجلات، والمستعمرون يقبلون هذا كله بابتسامة طويلة عريضة فيها معنى الهزء والازدراء، لعلمهم أننا لا نجيد إلا هذا النوع من العمل... ثم يضحكون علينا بتأليف لجان للتحقيق وما نلبث حتى تهدأ ثورتنا الكلامية وتخف حملاتنا الثرثارة.

واليوم وقد تأهبت الدول بأجمعها للحرب وأصبح العالم مهدداً بملحمة تشيب لهولها الأطفال، فاسمع ما يقوله أرباب القوة والغلبة عن أنفسهم، لتعلم أننا أخطأنا الطريق الموصل إلى حقوقنا.

نشرت أخيراً إحدى كبريات الصحف في فرنسا مقالاً عن المشكلة الحبشية الإيطالية، ومما قالت فيه: «لا شيء يحوّلُ السنيور موسوليني عن

مغامرة طال عهد استعداده لها وسيكون لها فعل قوي في أوربا فميثاق (بريان كيلوج) وضع منذ الآن وعهد عصبة الأمم لم يبق له حساب، وكل ما بقي في العالم هو القوة».

إذاً ليس هنالك شيء اسمه العدل، ولا شيء اسمه الحق، ولا شيء اسمه الإنصاف، وإنما هنالك شيء اسمه القوة وهي التي لها وحدها الحق في تقرير مصير الشعوب والأمم، فتحكم على هذه الأمة بالبقاء وعلى هذه بالفناء وعلى هذه بالسيادة وعلى هذه بالخضوع والمهانة. هذا باعترافهم بأنفسهم، فكل من يعمل بعد اليوم على أن يُدخل في عقولنا أن حياتنا في مجاراة الغرب بأزيائه وتهتكه فهو غشاش. ومن كان يدخل في عقولنا أن حياتنا في طرح رداء الشهامة والرجولة فهو غشاش. ومن كان يدخل في عقولنا أن حياتنا بالانسلاخ عن آدابنا وشريعتنا ـ التي هي أس القوة ومبعث الحياة ـ فهو غشاش. ومن كان يدخل في عقولنا أن حياتنا في أن تكون نساؤنا رجالاً ورجالنا نساءً فهو غشاش دجال مدسوس على الأمة ولو كان منها. وإذاً فأدباؤنا الذين يفهمون التجديد على هذا النحو وصحفهم التي تنشر لهم تجديدهم هذا المخزي الفاضح وزعماؤهم الذين يشدّون أزرهم في حركتهم، كل أولئك غشاشون مدسوسون على الأمة يلقون إليها السم في كؤوس الشراب، ويهدمون مواطن العفة والكرامة والقوة في نفوسها لتؤول إلى الدمار والخراب..

لا تعجب أيها القارىء ولا تعجل بالحكم عليَّ بالمغالاة والتطرف. وإني أحيلك إلى آثار أولئك المجددين. فانظر هل تجد فيها دعوة لعفة أو ندباً لفضيلة؟ وهل تجد فيها إلا الدعوة إلى الأدب المكشوف والتحرر الأخلاقي والإباحية المتناهية؟

ثم أحيلك إلى صحفهم فهل تجد فيها إلا صور المتهتكات من بنات الغرب وممثلاته والمتجرات بجمالهن ولحومهن وهن في حالة تتنافى مع الأدب والخلق والطهر والحياء؟ وها هي إحدى الصحف السيارة تنشر في أحد أعدادها صورة لفتيات مستحمات على شواطىء البحر ليس على

أجسادهن إلا ما يستر أغلظ عوراتهن، وأخرى تنشر صورة لأجمل ساق. وأخرى لأجمل فتاة، يتقربون بذلك إلى الشباب الطائش الهائج، غير مبالين بما يجره عملهم على هذا الوطن المنكوب وعلى هذه الأمة المستعبدة الذليلة المحتاجة إلى من يؤجج في أفئدتها نيران القوة والشهامة لا نيران الشهوة والمتعة.

ثم أحيلك إلى سجلات زعمائهم فهل تجد في صفحة منها أن واحداً منهم أهاب بأولئك الدعاة الإباحيين أن يكفوا عن هدم بناء الأمة وهو لو قال لاستمع الناس قوله ولو نادى لأجيب نداؤه؟ وأغرب ما في الأمر أن هؤلاء الذين يهدمون حصون الأمة بهدم عفافها ويمهدون السبل لاستعمارها بالقضاء على آدابها، لا يخجلون من الله ولا من الناس أن ينشئوا المقالات الطنانة الرنانة في القذف بالاستعمار والتشنيع على أهله.. ووالله لتفكير ساعة تفكيراً جدياً في توجيه الأمة نحو العفة والدين وصلابة الأخلاق، أشد على المستعمرين من ألف مقالة تصليهم ناراً حامية في أمة انتشرت بينها الموبقات، وقد أشار إلى ذلك أحد حكام السودان الإنكليز وقد قيل له إن فلاناً يشتمكم كثيراً في كل مجلس، فقال لهم: هل عنده طيارة؟ قالوا: لا. قال: فهل عنده مدفع؟ قالوا: لا. قال: فهل عنده بندقية؟ قالوا: لا. قال: فهل عنده رصاصة واحدة؟ قالوا: لا. قال: وأزيدكم أنه فوق ذلك ليس عنده إيمان بما يقول، فأنا لا أخاف من شتيمته وفي استطاعتي أن أزيلها بقرشين لو كانت إزالتها تساوي القرشين...

الحق، أننا سائرون في طريق تربأ أحط الأمم عقولاً عن سلوك مثلها، وكلما فكرتُ في استعدادات الدول للحرب وزيادتها في أساطيلها ومدافعها وطياراتها وجنودها، وقارنت بينها وبين انقسامنا على أنفسنا وانصرافنا عما يجدد لنا الحياة والقوة، أكاد أجزم بأننا في الحرب القادمة مقضي علينا لا محالة إلا أن يتداركنا الله بلطفه.

أيها المسلمون؛ أنتم مقبلون على حرب سيصطلي بنارها الشرقي قبل

الغربي، فإن لم تعدّوا لذلك اليوم عدته كنتم وقوداً لتلك النار وطعاماً لها، وعند ذلك تبوؤون بخزي الدهر وعار التاريخ.

أيها المسلمون، من لم يكن ذئباً أكلته الذئاب، فلا تعتمدوا بعد الله إلا على أنفسكم، وحذار حذار أن يغرر بكم شياطين الغرب فيشغلوكم بالعهود والمواثيق، فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، ووالله لا قوة اليوم للحق غير قوة الإيمان والعفة والتوحيد؛ فتلك هي القوة، وإنما الحق للقوة ولا قوة في الرجاء إلا إذا تأيد الرجاء بتلك القوة.

أيها المسلمون، من اتكل على زاد غيره طال جوعه؛ ومن نام في مواطن الخطر طال أرقه، ومن شغلته شهوته عن كرامته كثرت حسرته، ومن صرفته أحلامه عن تحقيق آماله ازدادت ندامته، ومن لم ينظر إلى الأمام قليلاً تردّى في الحفر كثيراً.

وأنتم أيها المجددون لبنيان الهوى، حاربوا أهواءكم قبل أن تحاربوا أعداءكم، وتخلصوا من استعمار الشهوة لقلوبكم قبل أن تتخلصوا من استعمار الغرب لبلادكم. وعجيب والله أن تحاولوا إطفاء النار بسائل «البنزين»!...



أبناؤنا[1]

الولد قطعة من قلب أبويه، وجزء منهما منفصل عنهما، ولذلك جبل الله قلبيهما على الرأفة به والحنو عليه، حتى أنهما ليبكيان لبكائه ويفرحان لفرحه، وتسودّ الدنيا في أعينهما إذا أنَّ أنين المرضى أو اشتكى ثقل الحمى، ثم هما يُشقيان نفسيهما ليسعداه، ويُتعبان جسميهما ليريحاه، ويسعيان الليل والنهار ليدخلا إلى فؤاده الغبطة والسرور. ذلك هو حنو الأبوين على مولودهما، وهو هو حنوّ الناقة على فصيلها والشاة على حملها والطير على فراخها وكل دابة في الأرض على أولادها.

والأب الحكيم من يتخير لابنه أنجع الوسائل لتثقيفه وتهذيبه، ويحرص على إبرازه للمجتمع حصيف الرأي، ثاقب الفكر، ثابت المبدأ، قويم الخلق، قوي الشكيمة، عالي الهمة، طيب الأحدوثة، ليكون عضواً عاملاً في جسم أمته متبوئاً أسمى مكانة فيها.

وخير الثقافة ما طبعت الناشىء على الدين، وربته على الفضيلة، وغذته بلبان الحكمة، وباعدت بينه وبين الهوى؛ حتى تجعل منه الحريص على الدين، الغيور على الفضيلة، الناطق بالحكمة، النافر من الإثم والهوى والرذيلة. وشر الثقافة ما غيرت من الناشىء الجِبلّة، وبدلت منه الفطرة، وغرست في عقله بذور الشك في دينه، والنقمة على أمته، والميل إلى اتباع

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٤٥٦ العام العاشر ١٣٥٤هـ.

شهوته، حتى تجعل منه الناقم على الدين، المحارب للفضيلة، المنقاد للسفاهة، المتبع لأهواء النفس ونزغات الباطل. ولن تجد خير الثقافة إلا في خير الأديان ولا شر الثقافة إلا في شر المدنيات، أما خير الأديان فلا ريب أنه هو دين الإسلام، وأما شر المدنيات فهي هذه المدنية التي تجرّدت عن روح الحق والعدل والفضيلة والكرامة وامتلأت شروراً وآثاماً حتى أصبحت الخطر المُدلهمّ على الغرب والعالم الإنساني بأجمعه...

ولو لم يكن لهذه المدنية من مساوىء إلا هذه المدارس التي تشيدها في بلاد الشرق باسم العلم والثقافة لكفى بها وصمة عار في جبينها إلى الأبد.

قال لي صاحبي يوماً ـ وقد شاهد الفتيات المسلمات يتزاحمن على باب إحدى مدارس التبشير في القاهرة: ـ أرأيت أشد وقاحة من هؤلاء الأجانب الذين يأتون بلادنا فقراء فيرجعون منها أغنياء.. ويلتجئون إليها سائلين فيصبحون بعدها مالكين. أرأيت هؤلاء كيف بلغت بهم السفاهة أن ينشئوا في ربوعنا معاهد يتخذون منها شباكاً للتغرير بأبنائنا وإفساد عقائدهم وآدابهم؟ أرأيت كيف بلغت بهم القحة أن ينشئوا في ربوعنا معاهد ليس لها من مقصد إلا الطعن في دين الأمة والدولة والمساس بعواطف المئات من الملايين عنوة وجهرة بلا خجل ولا حياء؟. حقاً إن هذا لهو العجب العجاب!...

قلت له: لقد قلت حقاً وسيدوّن التاريخ ـ فيما يدوّن من سيئات هذه المدنية ـ أمر هذه المعاهد التي تنشر الفساد وقد زعموا أنها للصلاح وتبث روح الإلحاد وقد زعموا أنها لا تتدخل في الدين، وتتخذ التضليل والغش والتدليس في دعايتها وقد زعموا أنها أنشئت للتثقيف والتهذيب!..

ولكن أليس الأعجب أمرُ هذه الأمة التي عرفت دخائل هذه المعاهد وما تنطوي عليه من الكيد لدين الله ثم ما تزال ترسل أبناءها إليها صغاراً وكباراً فتية وفتيات؟..

أليس الغريب من هذه الأمة أن يجوس المفسد خلال ديارنا ويجاهر

بسفاهته ووقاحته ويعتمد الإساءة إليها في شعورها وعواطفها ثم هي مع ذلك ساكتة راضية تكافئه بالمال والمعونة وحسن الوفادة وكرم الضيافة؟. أرأيت لو أن رجلين صفع أحدهما الآخر وأهانه على مسمع من الناس مرة بعد مرة بعد أخرى والمعتدى عليه يقدم الشكر على صنيعه هذا، فأيهما أشد وقاحة وسفاهة؟. وأي أمريهما أعجب وأغرب؟.

اسمع! اسمع! طفل وضعه أبواه في هذه المدارس فتلقاه رهبانها بتعاليم النصرانية وصلواتها، وأبواه لا يعلمان من أمره شيئاً، حتى إذا كان ذات يوم وأرادت الأم أن تخلع عن ابنها ثيابه، إذا بها تجد صليباً مخبأ في صدره، فأرادت إلقاءه فابتدرها الطفل صائحاً باكياً: «ماما إني أموت دونه» فبهتت الأم والأب وأقرباؤهما إذ علموا أن الطفل تنصّر وهم لا يعلمون..

قد يكون لبعض الناس العذر في وضعهم أبناءهم في هذه المعاهد قبل أن ينكشف الستار عن مقاصدهم الخبيثة، أما وقد اتضح الأمر لكل ذي عينين وأتوا من الأعمال ما ضجت منه البلاد على اختلاف طبقاتها، فلن يصح لأحد بعد هذا أن يلقي بثمرة فؤاده في هذه البؤر من الجحيم إلا إذا كان ممن ماتت فيه العاطفة وفقد حنان الأبوة ورحمتها وادعى الإسلام دعوى يشهد الله ببطلانها!..

أيها الآباء. إن هؤلاء الأجانب لم ينفقوا الأموال الطائلة على معاهدهم في بلادنا حباً بنا وشغفاً بسواد عيوننا، ولم ينفقوها خدمة للعلم ورحمة بالإنسانية، فإن بلادهم وأمتهم أحق بذلك منا. ومتى كانوا للإنسانية خدماً ونحن نرى من فظائعهم ما تشيب لهوله الإنسانية ويتفطر له قلب الحليم؟. وإنما أنشأوا هذه المعاهد رغبة في نشر دينهم وثقافتهم وتلقيح عقول أبنائكم بها. فهل ارتضيتم لأبنائكم أن ينقش زعانفة الكفر والباطل في عقولهم مبادىء الإلحاد والضلال؟. وكيف تستبدلون بنور الإسلام ظلام الشرك وبهدي الله ضلال البشر؟..

أيها الآباء، أي حجة لكم في صنيعكم المخجل هذا وفي الوطن

الإسلامي آلاف من معاهد العلم الوطنية؟ ستقولون أن معاهدهم أكثر علماً وأعظم شأواً وهذا والله كذب صراح تنبو عنه الحقيقة ويخالفه الواقع. وهبوا أن الأمر كما تقولون فهل ارتضيتم لأبنائكم الخروج على الدين من أجل هذا العلم؟ وفساد الأخلاق والتربية حباً بالرقي الكاذب والعظمة الجوفاء؟ بئس العلم الذي يجرّ إلى غضب الله.. بئس العلم الذي تكون عاقبته وبالاً على العقيدة والآداب!. بئس العلم الذي يميت العواطف ويقضي على الفضائل ويكون سبيلاً لموت الأمة وانحلال عوامل الرجولة فيها!...

أيها الآباء، وبناتكم كيف استحللتم إلقاءهن في أحضان الراهبات، ومدارس الإناث في بلادنا أكثر من أن تعد وتحصى؟ ألأجل العلم فعلتم هذا؟ ولكن أي علم هذا أيها المغرورون؟.. العلم لتهذيب الأخلاق لا لفسادها ولتعليم الدين لا لضياعه، ولحفظ الشرف لا لفقده، وما تعلم بناتكم في هذه المدارس إلا فساد الأخلاق والاستهزاء بالإسلام والتهتك والخلاعة والسفور والفجور. انظروا إلى لباسهن وأخلاقهن، وسلوهن عن أي حكم من أحكام الدين ثم احكموا بعد ذلك بما تشاؤون!..

أيتها الأمة! أيها الزعماء! أيها المفكرون، إن أبناءنا وبناتنا في أتون مستعر تلتهمهم نار الإلحاد والفساد. إن أبناءنا وبناتنا تختطفهم ذئاب الدس والمكر والخداع. إن أبناءنا وبناتنا على شفا جرف هار من فساد الأخلاق وانحطاط المبادىء. فنستحلفكم بالله أن تعملوا على انقاذهم وردهم إلى حظيرة الدين والأمة قبل أن يتمكن المفترس من فريسته فنندم.

أيتها الأمة! أيها الزعماء! أيها المفكرون، إن تربية الأبناء من أهم ما يشغل بال المفكرين في الأمم، فعلامَ كانت عندنا من أحقر ما نهتم به. وإن نهضات الأمم لا تقوم إلا على سواعد الشباب فكيف يكون الحال لو قام هؤلاء الشباب غداً بنهضة تتنافى مع روح الإسلام وآدابه وتعاليمه؟

أيتها الأمة، إن أعداء الإسلام لا يزالون في جهاد مستمر للقضاء عليه ومحو آثاره من الوجود مستعملين كل وسيلة مجدية: في السلم والحرب،

في السياسة والتعليم، في الكذب والغش والخداع، وكلما رأوا منا غفلة ازدادوا تمادياً في عدوانهم، أفنثبت للملأ أننا قوم جاهلون لا نعلم ماذا يحاك لنا من برود الشر وما يحيق بنا من الخطر؟ أفنثبت للملأ أننا قوم أعماهم الهوى حتى تردّوا في الهاوية واسترسلوا في الغفلة حتى أحاطت بهم الداهية وخدعوا بالأضاليل حتى فرطوا بالمهج الغالية؟

حسبكم غفلة أيها القوم فقد فقدتم أبناءكم وأنتم لا تشعرون، هيا فأنقذوهم قبل فوات الفرصة، وإلا فواحسرتا على الشباب الخاسر ويا حسرتا على الخلق المفقود، ويا حسرتا على المستقبل الذليل.



موقف سوريا من فلسطين [1]

فلسطين البلد العربي المسلم الذي يكافح أبناؤه في سبيل الذود عن حياضه كفاحاً سينوء التاريخ بتسجيل جميع مفاخره وآياته!

فلسطين القطعة الغالية من جسم الكيان العربي التي تريد أقوى دولة وأمكر أمة أن يجعلاها بؤرة يأوي إليها حثالة متشردي الأرض، بعد أن كانت مبعثاً للنور عدة قرون، لا يذكر فيها إلا اسم الله، ولا يرتفع في أرجائها إلا لواء الحق والعدل والسلام!

فلسطين التي أقام بها أهل الأديان قاطبة في عصور مختلفة، فلم تعرف الأمن والرخاء كما عرفتهما إلا منذ دخلها المسلمون يحملون إليها هداية القلوب ونور البصائر وعدل الحكم ونعمة الرفق والإحسان!

هذه البلاد التي كان لها في التاريخ شأن، ولأهلها بين الأمم ذكر، ولدينها على الأديان منة وفضل، تصبح اليوم بركاناً من النار يرمي بالشرر، فيهدم البيوت، ويزهق الأرواح، ويحيل الرياض النضرة إلى معالم ينعق فوق خرائبها البوم والغربان من دعاة الفساد وناشري جراثيم الأوباء الاجتماعية.

إي والله! في القرن العشرين، في عصر الحرية والمساواة، يسام شعب آمن أفظع وأشنع ما عرف التاريخ من أنواع التعذيب والنكال!

---

(١) مجلة الفتح الغراء العام الثالث عشر ١٣٥٧هـ.

ومن هم المعذَّبون؟ هم سلالة عمر وحفدة صلاح الدين، وأبناء أبي عبيدة وخالد وطارق، وأتباع منقذ الكون من الأرجاس والضلال محمد بن عبدالله ﷺ.

ومن هم المعذِّبون؟ هم دعاة السلام، وأحرار الفكر، وحماة العدالة والحرية، ذوو العيون الزرقاء والشعور الصفراء أبناء التاميز المتمدنون المتحضرون!

ولم هذا التعذيب؟ ليضطروا ذلك الشعب المسلم المسالم إلى مغادرة بلاده أو يبقى ذليلاً صاغراً للدخلاء من شعب مكروه من كل أمة، مطارد في كل دولة، مشتت في كل قطر، محكوم عليه بالغضب والنفرة إلى يوم الدين بسبب أنانيته وما لقيه الناس من شرور أبنائه.

ثم ماذا؟ لا شيء إلا أن يسلموا مثوى الخليل، ومولد عيسى ومسرى محمد ﷺ إلى من آذوا موسى، وتنكروا لعيسى، وكفروا بمحمد، ثم ما زال هذا شأنهم حتى اليوم: امتصاص لدماء الناس وخيراتهم، وعبث في الأرض، وإفساد لأنظمة المجتمع!.

إي والله! أتباع المسيح يسلمون مهده لمن زعموا أنهم صلبوه؟ أما والله يا هؤلاء لجنايتكم على المسيح بتسليمكم إليهم مهده وأنتم به مؤمنون، أشد من جنايتهم عليه بمحاولتهم صلبه وهم به كافرون!..

وبعد، فتلك هي قضية فلسطين ملخصة في أسطر، ولو أردت الاختصار أكثر من هذا لقلت هي صراع بين حق وباطل، يدافع عن الأول شعب ليس له قوة إلا إيمانه، وعن الثاني دولة ذات صولة ودولة، جمعت إلى قوة السلاح سلطان الحكم، وإلى كثرة المال دهاء السياسة. فهناك حق لا شيء معه، وهنا باطل يسنده سلاح وسلطان ومال ودهاء، فليس غريباً أن تدوم ثورة فلسطين ثلاثة أعوام إلا أمداً قليلاً، وأن تعجز إنكلترا على قوتها وسطوتها عن إخماد نار تلك الثورة اللاهبة أو التخفيف من وطأتها، ما دام الحق هو الأمر الوحيد الذي يدفع عرب فلسطين إلى الثورة، وما دام في الله جل شأنه الأمل الوحيد الذي يعتمدون عليه دون سواه، ومن كان الحق غايته فلن تهن عزيمته، ومن كان في الله أمله وهو ناصره فلن تخضد شوكته ولن تنكس رايته.

ذلك هو السر الحقيقي في انتصار عرب فلسطين انتصاراً بهر عقول الطغاة وحيَّر ألبابهم، حتى لجأوا أخيراً إلى المخاتلة، وهذا لا يمنعنا من القول بأن هنالك عوامل أخرى أدت إلى نجاح ثورتهم، وأكبر هذه العوامل موقف السوريين منهم، وبعبارة أدق موقف شمالي سوريا من جنوبيها، فليس هذان البلدان إلا أرضاً واحدة فرقتها مطامع الاستعمار وجشع أهله. ويطول بنا الأمر لو أردنا أن نتكلم عن موقف سوريا من جميع جهاته، كما أن هنالك أشياء لا نستطيع الجهر بها الآن، وحسبنا أن نذكر من ذلك ما يتسع له نطاق هذه الصحيفة.

اندلعت نار الثورة الأخيرة في بحر عام ١٣٥٥، فلم تكد تتسع قليلًا حتى بادر فوزي بك القاوقجي - وهو من خير القواد السوريين كفاءة واقتداراً - إلى الانضمام إليها ومعه عدد كبير من إخواننا العراقيين، فتولى قيادتها وأحكم تنظيمها، ثم أذاع في العالم العربي بياناً يدعو فيه إلى الالتحاق بالثورة، فلبى نداءه نفر كبير من أبناء دمشق وحمص وحماه، وما زالوا معه في صفوف المجاهدين من أبناء فلسطين يقودهم من نصر إلى نصر حتى توسط ملوك العرب في الهدنة، فغادر فلسطين إلى العراق كما غادرها السوريون تاركين أجمل الأثر في نفوس إخوانهم الفلسطينيين. وأذيع بعد ذلك قرار اللجنة الملكية بتقسيم فلسطين، فثارت ثائرة السوريين، وأضربت المدن السورية، وتألفت المظاهرات فيها تعلن سخطها على المشروع، ثم دعا رئيس لجنة الدفاع عن فلسطين في سورية رؤساء العرب وزعماءهم لعقد مؤتمر عربي للتشاور في مسألة فلسطين، فاجتمع المؤتمر في ضاحية بلودان وبحث في المسألة، فكان مما قرره بالإجماع رفض مشروع التقسيم، وإعلان السخط على موقف إنكلترا من عرب فلسطين، وكان لقراراته دويّ عظيم في المقامات السياسية التي تعنى بالقضايا الشرقية.

ولما تجددت الثورة في فلسطين ونهض أبناؤها الأبطال البواسل بأعبائها، واتسع نطاقها حتى شملت فلسطين كلها، هرع السوريون لنصرة

شقيقتهم، فما بقيت صحيفة ولا مسجد ولا مجتمع إلا وفيه ذكر فلسطين والحث على نصرة أبنائها، فدبت الحمية في الصدور، وسارع الشباب إلى تلبية الواجب، ففطن الإنجليز للأمر وحصنوا الحدود بين فلسطين ولبنان من جهة، وراقبوها بجنودهم بين فلسطين وسوريا من جهة أخرى. ورغماً عن هذا فقد استطاع فريق كبير من الشباب الوصول إلى مقر الثورة. ولما تواترت الأنباء عن تدمير القرى ونسف البيوت وتعذيب الأبرياء بأساليب وحشية يتفتت لها القلب، ازدادت الحمية للعرب والنقمة على أعدائهم، وأعلن العلماء في المساجد أن الجهاد في فلسطين ديني، وأن الواجب على كل من استطاع المساهمة فيه أن يبادر إلى ذلك، كما أصدر مؤتمر العلماء الذي انعقد في دمشق قراراً يؤيد فيه فتوى علماء السنة والشيعة في العراق باعتبار الجهاد في فلسطين جهاداً شرعياً يجب على كل مسلم أن يشارك فيه.

وكان لهذه الفتاوى والخطب أثر كبير في نفوس العامة، فعقدت الاجتماعات المتتالية لتنظيم الاتصال بالثورة، وأعرف في حمص وحدها أكثر من مائتي شاب تطوعوا في جلسة واحدة بالجهاد في فلسطين قبل غيرهم. ولكن العقبة الوحيدة كانت هي المال والسلاح. وجرت مباحثات بينهم وبين هيئات كثيرة فأجيبوا بأن الأخبار الواردة من مقر الثورة تفيد بأن المجاهدين لا ينقصهم الرجال إذ كل مسلم في فلسطين منضوٍ تحت لواء الجهاد، ولكنما ينقصهم السلاح. فالمال أجدى عليهم من الرجال. وقد قرأت كتاباً وارداً من رئيس لجنة الدفاع عن فلسطين إلى بعضهم يذكر لهم ما تقدم، ثم يقول له: ولو كنا نعلم أن عرب فلسطين في حاجة إلى الرجال لكنت أنا وزملائي أول من يلبي نداءهم. إنما الذي يحتاجون إليه هو المال فهو خير ما نستطيع أن نخدمهم به، وكم كانت الصدمة شديدة لأولئك الشباب المتحمسين؛ حتى لكأنهم أصيبوا بفقد أعز الناس عليهم، فهم في حزن وأسى. ومع ذلك فقد استطاع بعضهم الوصول إلى فلسطين، على الرغم من أن سنه لا تزيد على الخامسة عشرة، وهم الآن بين المجاهدين يقومون

بأعظم الخدمات، وتداعى الناس بعد ذلك إلى بذل المال وخصصوا يوم ٢٧ رجب لجمع الإعانات وأطلقوا عليه «يوم فلسطين». وما كاد يطل فجر ذلك اليوم حتى تفرقت اللجان في الأسواق والمجتمعات. وكان يوماً مشهوداً من أيام سوريا الباسلة، برهنت فيه على مبلغ تلبيتها للجهاد في أرض شقيقتها المجاهدة وتأييدها لها. ومما هو أبلغ في التأثير أن إقبال الطبقات الفقيرة على التبرع فاق إقبال الأغنياء.

ولقد رأيت في ذلك اليوم من الأمثلة التي ضربها الفقراء في الجود والسخاء ما أسال عبرتي، وملأ قلبي إيماناً بأن هذه الأمة التي بلغ عطف بعض أبنائها على بعض إلى هذا الحد لن تموت أبداً، ولن تخرج من هذه المحنة إلا ظافرة بإذن الله، وبلغ ما جمع ذلك اليوم في سوريا ولبنان ١١٥ ألف ليرة سورية أي ما يعادل ١٢٥٠٠ جنيه مصري، وهو مبلغ لا بأس به من قطر صغير لا يزيد عدد أهله على ثلاثة ملايين تأكلهم الأزمة المالية أكلًا، فليقارن ذلك أهل كل قطر بما قام به بلدهم، مع ملاحظة النسبة في العدد والغنى.

وقصارى القول أن السوريين وقفوا من فلسطين موقفاً مشرفاً، وهم يعطفون على جهادها عطفاً قوياً عملياً، ويتبعون أخبار الفظائع فيها بألم عميق. والفضل الأكبر في هذا الاهتمام يعود إلى العلماء والخطباء أولاً، وإلى الصحافة ثانياً، فلا تخلو صحيفة من ذكر فلسطين والحث على تأييدها بحرارة وإخلاص، كما لا تخلو خطبة ولا درس في مسجد من إلهاب الشعور الديني في نفوس العامة، حتى صار ذكر فلسطين على لسان الخطيب أو المدرس كافياً لاستدرار العبرات وإثارة الشعور، ولست مبالغاً في هذا، فوالله لن أنسى ما حييت صبيحة عيد الفطر في هذا العام، وقد وقف الخطيب يذكر الناس بمصائب فلسطين ويقول: «إننا اليوم في عيد، وإن أيام الأعياد أيام تفرح لها القلوب وتبتسم فيها الشفاه، ولست أدري كيف تبتسم شفاهنا اليوم وفي فلسطين أمة لم تلبس اليوم أفخر الثياب ولا تحلت بأبهى الحلل ولكنها لبست أكفان الموت، واتشحت بالدماء الحمراء، ووضعت

أرواحها على أيديها تبيعها رخيصة في سبيل الله لإنقاذ مسجده الأقصى» إلى أن قال: «أيها المسلمون، اذكروا في هذا اليوم بكاء اليتامى فوق أجداث الآباء، ولوعة الأرامل عند قبور الأزواج، وحزن الآباء فوق رؤوس الجبال؛ وأنين الفقراء تحت أنقاض البيوت، وهيام الأسر الكريمة المشردة في الأزقة والشوارع. اذكروا كل هذا ثم قولوا لأطفالكم حين يلعبون: أقصروا من اللعب قليلاً أيها الأطفال، فإن في فلسطين أطفالاً حرموا في هذا اليوم بسمة الأب، وحنان الأم وعطف القريب، وبهجة العيد. قولوا لنسائكم إذا رأيتموهن فرحات مستبشرات: لا تفرحن يا أيها النساء، فإن لكنّ في فلسطين شقيقات حرمن في هذا اليوم عون الأزواج، وضحك الأولاد، ورحمة المعيلين، وبر المحسنين. قولوا لأبنائكم الشباب: لا لهو ولا فرح ولا لعب، فإن لكم إخوة في فلسطين هجروا البيوت وباعوا الأرواح والتجأوا إلى الله يصدون طغيان الظلم بقوة الإيمان ويدفعون عار الذل بعزة الإسلام ويستعينون على جبروت الأرض بجبروت السماء، والله أعز ناصراً وأكثر جنداً، فوالله ما كان الخطيب يقول هذا وقد خنقته العبرة حتى غشي الناس في موج من الحزن والألم وارتفعت الأصوات وتصاعدت الزفرات، فلا تسمع إلا باكياً أو صارخاً أو متهيجاً. ثم ما كاد يشرع في الدعاء لفلسطين حتى لكأن الناس في اختباطهم وبكائهم في يوم من أيام الآخرة يعاينون فيه هول الحشر وشدائده.

هذه أشياء رأيتها بعيني صيف هذا العام، فمن حق الأمة ومن حق التاريخ عليَّ أن أسجلها في هذه الصحيفة المحبوبة، سجل الإسلام في العصر الحديث.

ولا ننسى أن نذكر أن هذا الموقف المشرف الذي وقفه السوريون من إخوانهم كان له أثره السيىء في نفوس المستعمرين، فإن الإنكليز رأوا في مؤتمر بلودان، وفي هذه المساعدات العلنية التي قدمتها سوريا لشقيقتها، ما ملأ صدورهم بالحقد والغيظ.

الحالة الدينية في سوريا
جمعيات العلماء ومؤتمرهم الأول[1]

عُرفت بلاد الشام منذ زمن بعيد بالتمسك بالإسلام والمحافظة على تقاليده والغيرة على دين الله وكتابه، ولا تزال فيها حتى اليوم بقية من ذلك تفوق ما عليه بعض البلاد الإسلامية المشهورة، فالسفور بشكله المعروف في مصر وغيرها لم يعرف إلى الآن فيها إلا في بعض بيئات بعيدة الصلة بالدين جداً، وانحلال الأخلاق والتهتك أقل منه هنا، ومحبة العامة لدينهم وفهمهم لأحكامه أكثر منه في بلاد أخرى، والحمية للإسلام والعربية تمتلىء بها قلوب الشاميين: فلا يحدث في الإسلام حادث، ولا تنزل بأقطار العروبة فادحة، إلا كانوا أول من يغضب ويلبي ويثور، وهذا شيء نقوله حين نقرر الواقع ونقارن بين بلد وآخر. أما إذا نظرنا إلى المثل الأعلى الذي ينبغي أن يكون عليه المسلمون فالبون شاسع والفرق كبير، فلقد غزتنا مدنية الفرنجة بآثامها وفجورها، وتحكم بنا أصحابها، حتى لم يبق قطر من أقطار الإسلام إلا وهو متدنس بأقذارها، إن لم يكن إلى حد بعيد فإلى درجة غير قليلة، وبلاد الشام بحكم موقعها الجغرافي أشد البلاد العربية الإسلامية صلة بالأجانب واختلاطاً بهم، فليس بغريب أن تشيع فيها المنكرات وينتشر الفساد ويقل الاعتصام بأحكام الدين، ولكن الغريب هو أن يتخلى القادة والزعماء

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٦٣٧ العام الثالث عشر ١٣٥٧هـ.

عن واجبهم إزاء هذه الحالة ويفرّوا من الميدان فراراً مكن للمهاجمين من اقتحام الخنادق واحتلال القلاع والحصون، أما الزعماء فقد وجهوا كل عنايتهم إلى الشؤون السياسية وأهملوا كل عناية بالدين وأهله حتى استوى عندهم قوّته وضعفه، وربما كانوا أكثر ميلاً إلى تفكيك أوصاله. ولنا معهم وقفة أخرى نناقشهم فيها الحساب قريباً إن شاء الله.

وأما القادة ـ وأعني بهم العلماء الذين أقامهم الله أوصياء على عباده، ولست أعرف فئة أحق بقيادة المسلمين منهم ـ كما بينت ذلك في مقالات سابقة في الفتح ـ فقد تخلوا عن المسؤولية، وقبعوا في البيوت والمعابد، ومكنوا الفوضى والإباحية أن تجوس خلال الديار، ولم يكن منهم إلا قول في مسجد لا يتجاوز الآذان، وأنة في درس لا يسمعها إلا العجزة والشيوخ، وحوقلة واسترجاع هما عدّة العاجز وتكأة المهزوم!. قد يكون هذا الحكم قاسياً ولكنه الواقع، وقد يكون مؤلماً ولكن الألم في السكوت عنه أشد، وكيف لا يذوب القلب أسى حين يرى أشد الناس صلة بالدين وأحقهم بالدفاع عن عقائد المسلمين ينزوي كل واحد منهم في وظيفة أو مسجد أو بيت، بينما تشاد معاهد التبشير، وتؤسس بيوت الدعاية الأجنبية، وتحارب أحكام الله عمداً يوماً بعد يوم من قبل الحاكمين على شؤون البلاد، ولا يرتفع للعلماء صوت ولا يرى لهم أثر ولا يحس لهم بوجود؟. وإذا لقيت أحدهم فذكرت له ما يعانيه المسلمون، اعتذر لك بفساد الزمان وضعف الدين، وأنبأك أن هذا من علامة قرب الساعة، والسعيد من لزم بيته وحفظ نفسه!.

هكذا كان شأنهم حتى زمن قريب، ثم شاء الله أن يبعث الحمية في نفوس أفراد منهم فألفوا عدة جمعيات كان صوتها ضعيفاً وعملها قاصراً، ولكنها كانت خيراً من العدم على كل حال. وبقي الأمر على هذا حتى عاد إلى دمشق فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل القصاب، فرأى في تفرق العلماء وسكوتهم ما يؤذن بخطر كبير، فعمل على تأليف جمعية تضم صفوفهم وتدافع عن كرامتهم وتسعى إلى رفع كلمة الله وإبلاغ صوت الدين

إلى القلوب، وفضيلة الأستاذ القصاب أمة وحده، لا تكاد تحدّثه وتخالطه حتى ترى فيه همة الشباب وحكمة الشيوخ ودهاء الساسة وعلم الفحول وإيمان السلف الصالح من علماء المسلمين: يعمل فلا يكلّ، ويهاجم فلا يتراجع، ويدعو فلا يسكت، ويجاهد فلا يفتخر، وهو في كل هذا يبذل من حر ماله في سبيل الله ما يضنّ عن بذل أقله كثير من أغنياء المسلمين المعاصرين، ولا أجد فيما قيل عنه أصدق من كلمة صديقه القديم صاحب الفتح في عدده الممتاز: «من الناس من يملأ الدنيا قولاً، وإذا أردت أن تدوّن أعماله تخرج من ذلك بقبض الريح، ومن الناس من يقول ويعمل والتاريخ يبني دعائمه على هذه الطائفة، وهناك فئة ثالثة تعمل ولا تقول، وهؤلاء يحار التاريخ في أمرهم، ويحرص على أن يقتصّ أثرهم في الطرق التي يتنقلون بها ليسد نقصه بتدوين ما يصل إلى علمه من عملهم، وقد يفوته من أعمالهم الشيء الكثير لكنه يعوض عما فاته بما يحفهم به من حرمة وإجلال، ومن هؤلاء صديقي الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل القصاب . . . .، بهذه الهمة وبهذا الإخلاص وبذلك الإيمان القويّ دأب الأستاذ على قرع الأسماع وتحريك الهمم وإيقاظ العزائم، حتى استجابت لدعوته طائفة كبيرة من خيرة العلماء والتفوا حوله يعملون جميعاً لخدمة دين الله بقلوب مطمئنة إلى نصر الله وتأييده.

وقد استهلت جمعية العلماء التي يرأسها فضيلته تاريخها الناصع بعملين عظيمين دفعا عن البلاد نكبتين مخيفتين: الحيلولة دون إلغاء القضاء الشرعي تدريجياً، ومعارضة حلّ الأوقاف الأهلية. فقد تمكنت الجمعية بمساعدة الجمعيات الإسلامية الأخرى من أن تكفي البلاد شر هاتين المصيبتين، فللّه الحمد والمنة. ثم خطا الأستاذ خطوة أخرى بتأسيس مدرسة شرعية عالية واتخاذ ناد للعلماء، ودعا إلى عقد مؤتمر علمي بمناسبة افتتاح المدرسة والنادي، ولما كانت الدعوة المخلصة سرعان ما تلقي آذاناً صاغية، فقد تداعى العلماء إلى الاجتماع، وانعقد مؤتمرهم الأول بدمشق صيف هذا العام (من ١١ إلى ١٣ رجب **١٣٥٧**هـ) وقرروا فيه مقررات خطيرة تهمّ المسلمين

في الديار الشامية تتعلق بالأوقاف الإسلامية والقضاء الشرعي والمدارس الدينية والسكة الحديدية الحجازية وحماية الأخلاق والآداب وجهاد فلسطين ونكبة الإسكندرون وغير ذلك، كما نظموا خطط الجهاد بتأليف جمعيات للعلماء في كل مدينة تتصل بالمركز الرئيسي في دمشق، وتسعى إلى حفظ الأخلاق ونشر الدين ورد دعاية المعتدين عنه. وقد نجح المؤتمر نجاحاً كبيراً وكان له صدى عظيم في مختلف الأوساط، وحضره أركان الحكومة في ليلته الأولى، كما افتتحه رئيس الحكومة في يومه الأول بإيفاد نائب عنه، وعنيت الصحف على اختلاف نزعاتها بنشر أخباره ومقرراته، وأهم ما نتج عن هذا المؤتمر أمور:

الأول: اعتقاد العلماء بخطورة الحالة الدينية، واقتناعهم بوجوب العمل بعد اليوم متكاتفين لخدمة الدين ورفع شأن حملته، وقد تجلّى هذا واضحاً فيما دار من أحاديث ومناقشات في جلسات المؤتمر وما اتفق عليه من مقررات.

الثاني: تعارفُ علماء الساحل والداخل وتقوية أواصر الأخوة بينهم، بل تعدّى هذا إلى تعارف علماء السنة والشيعة بحضور الأستاذ الكبير الشيخ عبدالكريم الزنجاني، فقد خطب فضيلته في وجوب تعاون علماء المسلمين جميعاً على دفع الخطر الخارجي عن الإسلام، وتوحيد الجهود لتقوية أصوله في نفوس أشياعه، فأيد فكرته غير واحد من الخطباء، ثم وضع المؤتمر قراراً لتأييد اقتراحه والعمل على تنفيذه بتمهيد الدعوة إلى مؤتمر علمي إسلامي عالمي.

الثالث: تعاون شيوخ العلماء مع الشباب منهم بإخلاص ينشرح له الصدر، فبينا كنت ترى رئيس المؤتمر وقد ناهز الثمانين إذا بك ترى أمين السر ولم يبلغ الثلاثين. وبينا كان يعتلي المنبر الشيخ الوقور إذا به يعقبه الشاب المتحمس. وكان الصغير يناقش الكبير وذاك يصغي إليه بكل انتباه، ولا عجب فهو سر العمل الخالص لوجه الله عز وجل. ويكاد يطول بي المقام لو أردت أن أذكر المبرزين من شيوخ المؤتمر بل كلهم كانوا بدوراً

متألقة، وأما المبرزون من الشباب فقد كانوا كثيرين وأخص منهم بالذكر الأخوين الصالحين النشيطين، الشيخ مصطفى الزرقا والشيخ معروف الدواليبي. فهذان الشيخان الشابان كانا زينة الشباب في المؤتمر ولولبه وحركته الدائمة، وإليهما يرجع قسط كبير من الفضل في نجاحه، وكلاهما تخرج في المدرسة الخسروية الشرعية في حلب، ثم نالا الشهادة الثانوية السورية بجدهما ونشاطهما ودخلا الجامعة السورية فنالا إجازة الحقوق فيها. وأولهما الآن محام ومدرس في المدرسة الخسروية وقائد الحركة الإسلامية في الشهباء، وثانيهما في باريس أوفدته الحكومة السورية منذ شهرين لدراسة التشريع الروماني والمدني، وفّقه الله في غربته وأكثر في الشباب من أمثالهما، وسأتولى تقديمهما مع زمرة من صالحي الشباب المسلم في سوريا إلى شباب العالم الإسلام في فرصة أخرى إن شاء الله تعالى.

الرابع: تضامنُ العلماء وعزمهم على افتتاح عهد جديد من النشاط والعمل المستمر لمصلحة العلم والدين، وقد ظهر هذا التضامن جلياً في مقررات المؤتمر وفي جلساته التاريخية. وأشد ما كان ظهوراً في الحفلة التي أقامها رئيس الوزراء لتكريمهم، فقد كانت حفلة مشهودة في تاريخ العلماء، إذ لم يكد دولة الرئيس يرحب بهم حتى أخذ يلمح عن طيب سريرة بالغض من جهود العلماء، فانبرى له أول وثان وثالث يدافعون عن كرامة العلماء ويذكرون جهودهم في القديم والحديث، وينوهون بمقدار خدماتهم للدين والأمة، ويعللون ما ظهر على العلماء من تقصير بإعراض الحكام عن تشجيعهم في الإصلاح والنهوض، وكانت كلمات مملوءة بقوة الحق وعزة العلم، فعلت في النفوس فعل السحر. وكانت معركة أدبية خرج منها العلماء موفوري الكرامة، حتى قال رئيس الحكومة لبعض من حضر من الوزراء والكبراء: ما كنت أظن أن في العلماء مثل هذه القوَّة.

وقصارى القول أن هذا المؤتمر كان بعثاً جديداً لنشاط العلماء، وأظنه أول مؤتمر من نوعه شهدته البلاد السورية منذ بضعة قرون، وربما كان أول

مؤتمر يعقده علماء الإسلام في أقطار الأرض في شؤون إسلامية بحتة[1]، ولا ريب أن النجاح كل النجاح للمؤتمر في عمل العلماء على تنفيذ مقرراته ومواصلتهم الجهود التي عاهدوا الله عليها في يومه الأخير. أخذ الله بيدهم وسدد خطاهم، وأجزل المثوبة لفضيلة الأستاذ القصاب وإخوانه البررة أعضاء اللجنة التنفيذية للمؤتمر على ما يبذلون من عناء في خدمة العلم والدين، ووفق الأمة والحكام والزعماء للتساند معهم فيما يحقق للمسلمين سعادتهم ويضمن لهم خلاصهم من رق العبودية وأسر الشهوات.



(١) الفتح ـ لا نغمط المؤتمرات العظيمة التي تعقدها الجمعية في جكجاكرتا من بلاد جاوة، فهي إسلامية بحتة، وإن كانت شعبية وغير منحصرة في العلماء.

شبابُ محمد ﷺ
جمعياتهم، ومؤتمرهم الأول[1]

روحي الفداء لمشرق النور ومبعث الهدى وصفوة خلق الله محمد بن عبدالله ﷺ، وبنفسي أفدي أولئك الشباب الذين كان لهم من خُلق رسول الله نصيب، ومن هدايته حظ، ومن نوره قسط، ومن النسبة إليه شرف كبير، فكانوا بحق شباب محمد ﷺ لا انتحالاً ولا ادعاءً...

وإذا تحدثت اليوم عن هذه الفئة العاملة من شباب المسلمين فإنما أتحدث عن أول هيأة مسلمة فتية فيما أعلم، تعمل لدين الله بقلوب لا تعرف الرياء، وبأفئدة لا تحب الفخر، وبنفوس قوية لا يداخلها وهن ولا يأس ولا فتور. كانوا سبعة أو ثمانية تنتظمهم حلقات الدروس في الجامعة السورية، وقد ألف بينهم طيب السريرة واستقامة الخلق وطهارة الذيل، ثم رأوا أن ينتظموا في حلقة أوسع دائرة من حلقة الدروس وأشد منها صلة وأحكم ربطاً، فكانت حلقة في غرفة من بيوت الله كل يوم يقرؤون فيها كتاباً من كتب الدين الخالصة من كل شائبة، ويتفقدون عيوبهم ما ظهر منها وما خفي، وقد عاهدوا الله على أن تكون أخوَّتهم في الله وفي سبيله قائمة على نهج الشريعة وأدب الإسلام. حتى إذا صفت نفوسهم وسمت أرواحهم أخذوا يجيلون الطرف فيما حولهم فرأوا منكراً لا يليق السكوت عنه، وشراً لا ينبغي

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٦٣٩ العام الثالث عشر ١٣٥٧هـ.

الاطمئنان إليه، وديناً يهاجم من كل ناحية، وخلقاً تنحلّ عراه عروة عروة، ثم رأوا صفوفاً مبعثرة لا تجمعها قيادة، وأمة لا تعرف لها غاية، وبلاداً بائسة تعاني الأمرَّين من ظلم أعدائها وتفرق أبنائها؛ فمدوا الأيدي متعاهدين على أن ينزلوا إلى الميدان لينافحوا عن دين الله الذي تكاثرت عليه السهام، وعن خُلق الإسلام الذي شوهته صروف الحدثان، وليبثوا في الأمة روح اليقظة والحمية والعزة التي شهدتها الدنيا في رجال السلف الصالح يوم انتشروا في أنحائها يحملون إليها عزَّ الحياة وسعادة الأبد!

وما هي إلا برهة من الزمن حتى كانت دارُ الأرقم في حلب، وجمعية الشبان المسلمين في دمشق، وجمعية الرابطة الدينية في حمص، وجمعية مكارم الأخلاق الإسلامية في بيروت، وجمعيات عدة في القدس ولندن وباريس، كلها تنضوي تحت رابطة شباب محمد ﷺ، ومنذ ذلك الحين أخذ الناس يشعرون بجهود هذه الكتلة المنظمة في سبيل الدين والأخلاق، مما أحلها في نفوسهم مقاماً سامياً وبوَّأ رجالها في بعض البلدان مقام الزعامة الدينية رغم حداثة سنهم.

والحديث عن جهود هؤلاء الشباب وخدماتهم يطول جداً، وقد اطلع قراء الفتح على شيء منها في أزمنةٍ متعاقبة فلن أتعرض لها الآن وإنما أود أن أذكر ما عرفته عنهم بعد اتصالي بهم واختلاطي بكثير منهم، فقد كنت من قبل لا أعرف إلا إخواني جماعة الرابطة الدينية في حمص، وكنت وأنا في مصر على صلة بهم عن طريق المراسلة، فعلمت منهم الشيء الكثير عن هذه الحركة الجديدة المباركة وتتبعت ما كانت تنشره الفتح من أعمالهم، فاعتقدت بأنه سيكون لهم شأن في تاريخ الإسلام الحديث، وقويت في نفسي الرغبة بالاجتماع إليهم فما كدت أتصل بهم وأشهد مؤتمرهم الأول الذي انعقد في أواخر شعبان من هذا العام حتى استأثروا بفؤادي واحتلوا حبته، فما فيه إلا حبهم، وما في النفس إلا إكبارهم والإعجاب بغاياتهم.

كان أول من عرفت منهم الأستاذ عمر صدقي بهاء الأميري: كنت أقرأ

له كثيراً في الفتح وأكنُّ له في فؤادي مودّة عظيمة، فلما رأيته خلال انعقاد مؤتمر العلماء في دمشق وخلطت نفسي بنفسه حتى تأكد الحب والمودَّة، وتحققت فيه من الخير أكثر مما كنت أظن. شاب في ريعان الشباب مهذب النفس عالي الهمة قوي الإيمان طاهر القلب نقي السيرة رضيُّ الخلق يحدثك فتبهرك عذوبة منطقه وصدق حديثه وتواضع نفسه وعظيم ما ينطوي عليه قلبه من حب للإسلام ووفاء لتاريخه ورغبة أكيدة في نشر مبادئه والرجوع في تشريعنا ونظمنا إلى تعاليمه. ولم يكن حبه للإسلام هذا الحب القوي إلا من آثار «الفتح»، فقد اتصل بها وهو طالب في المدارس الثانوية، وللفتح أثر عجيب في نفوس من يقرؤها بإخلاص، فما هي إلا أن تنبهت فيه الحمية للإسلام وقوي في نفسه الشعور بالواجب الملقى على شبابه، فأخذ يعمل للإسلام طالباً ثانوياً، ويعمل له طالباً جامعياً، ويعمل له طالباً وهو في باريس، وما يزال يعمل له حتى الآن بهمة لا يعتورها كلل ولا ملل، وهو أحد الشباب القلائل الذين اعتصموا بالفضيلة في جميع أدوار حياتهم، وأصدق كلمة فيه هي التي قالها الأخ الشيخ مصطفى الزرقاء حين قدمه إلى مؤتمر العلماء «هو الشاب الذي ليست له صبوة».

ومما يجب التنويه به أن باريس الفاتنة اللاهية لم تجد إلى قلب الأخ الأميري سبيلاً، فقد أقام فيها أمداً ليس بالقليل دون أن يتلوث من حمأة رذائلها أو يتدنس بما يتدنس به معظم الوافدين إليها من شباب الشرق. وما كان أحد يراه هناك إلا وهو مكب على دروسه يستذكرها، أو متحدث إلى رجال العرب والإسلام في الشؤون العامة، أو منهمك في تهيئة محاضرة يلقيها على العمال المسلمين الذين يربو عددهم في باريس وحدها على مائة ألف. وهذه فضيلة قل أن تجدها في جمهرة شبابنا الذين تبذل لهم الأمة خالص أموالها ليحملوا إليها علم الغرب وثقافته فلا يحملون إليها إلا فجوره وإلحاده وماديته! والأخ الأميري خطيب مؤثر تتصل حرارة قلبه حين يتكلم بنفوس السامعين فيحملهم على اعتقاد ما يعتقد، وهو كاتب أديب شاعر نشرت له الفتح منذ أسابيع قصيدة تنم عن طهره ورفعة جانبه، وله غيرها

قصائد كثيرة تفيض عذوبة ورقة وصفاء وإني لأخشى أن أسترسل في الحديث عنه فأخرج عما إليه قصدت فحسبي اليوم هذا.

وممن عرفتهم الأخ الأستاذ عبدالرؤوف الأسطواني. وهو شاب في العقد الثالث من عمره، ألمعي الفكر، دمث الأخلاق، لين العريكة، حلو المعاشرة، قوي العقيدة بالله، شديد التمسك بسنة رسوله ﷺ، يحب العمل في جو هادىء بعيد عن الدعايات، مخلص لله في كل عمل يقدم عليه، صاحب دين في خلقه ومشربه، مطلع على أسرار الدين وحكمه ومحاسنه، يفهم الدين على أنه قوة وسعادة، والعلم على أنه جهاد وعمل، والحياة على أنها وسيلة إلى الآخرة، والوظائف على أنها طريق إلى خدمة الأمة لا غير، له قلم سيال وحمية لفضائل الإسلام تتجلى فيما يكتبه في صحف الشام وفيما تنشره له الفتح، وفي خطبه التي يلقيها على منبر المسجد الأموي في أيام الجمع، عرفته فما عرفت له خلة تشين، ولا خلقاً ينكر، وما أعرف أني جلست معه مرة إلا تذكرت شباب الإسلام في مطلع فجره ومبدأ نهضته. وأبرز ما في الأستاذ الأسطواني حرصه على كرامة العلم وتنقيته من كل شائبة واقترانه بالعمل الخالص لوجه الله وابتعاد أهله عن زخرف الحياة وفتنتها واقتدائهم بعلماء السلف الصالح كالحسن، والجنيد، والعز بن عبدالسلام، ولا يكاد يحل في مجلس حتى يضفي عليه من هذه الروح القوية الطاهرة فيترك فيه أثراً حميداً وسمعة طيبة.

وممن عرفتهم الأخ الأستاذ عبدالوهاب الأزرق. هذا الشاب النابغة الذي بلغ من إعجاب أستاذه فارس الخوري بذكائه ونشاطه أن عينه رئيساً لمكتب رئاسة المجلس النيابي السوري. هذا الشاب الكامل تخاله قوى مجتمعة: قوة الروح، وقوة الإيمان، وقوة الخلق، وقوة الحمية للإسلام. هو قوة ملتهبة؛ وخطيب من الطراز الأول، وكاتب قوي شديد إذا هاجم عرف كيف يسدد النصال، وإذا دافع عرف كيف يحكم الدفاع. متصف بكل خلق نبيل شريف، وأقوى ما يتجلى من خلقه اعتزازه بكرامة الإسلام إلى

أقصى حد، وغضبه لانتهاك حرماته إلى أبعد مدى. دعته الرابطة الأرثوذكسية في حمص لإلقاء محاضرة في ناديها فلم يكد يعتلي المنبر حتى أخذ يفيض في سماحة الإسلام ورفعة تعاليمه على مسمع من كبار المسيحيين وجمهرة شبابهم، واسترسل في هذا الموضوع بحماسة قوية وبيان ساحر دون أن يخشى لوم لائم أو معارضة جاهل، ولم تستطع جريدة البشير اليسوعية المشهورة بتعصبها الذميم على الإسلام إلا أن تثني عليه وعلى محاضرته، ولكنه لمح في خلال هذا الثناء تعريضاً بغيره من الكتاب المسلمين فأرسل إليها مقالاً نارياً ندد فيه بتعصبها على الإسلام وكراهتها للمسلمين. ولما ثار الرأي العام السوري على وزارة المعارف لتعيينها الخواجه ميشيل عفلق مدرساً للتاريخ الإسلامي في تجهيز دمشق بعد أن تطاول على الإسلام وأئمته لم تجد الحكومة السورية فيمن يملأ هذا الكرسي خيراً من الأخ الأستاذ الأزرق فعهدت إليه بذلك.

عرفتُ هؤلاء الإخوة الأفاضل وعرفت غيرهم في مؤتمر شباب محمد ﷺ كالإخوة الأبرار: الشيخ عمر خياطه، صلاح الدين الشاش، صلاح الدين دعدوش، جمال العش، عزت المرادي، إسماعيل المرادي، عبدالفتاح الحمصي، حيدر حجار، وسمعت الثناء الجزيل على كثيرين لم يسعفني الحظ بلقائهم كالأخ الأستاذ عبدالوهاب التونجي، والأستاذ عبدالقادر السبسبي وغيرهم ممن لا يحصيهم العد في هذا المقام. أما إخواني شباب محمد ﷺ في حمص فأخشى أن أُتهم إن ذكرت واحداً دون آخر أو ذكرتهم جميعاً وذكرت ما أعرف عنهم من نبل وفضل، فهم رفاق الصبا وزملاء الدراسة وفقهم الله وأعانهم.

تلك هي نبذة عن بعض من عرفتهم من شباب محمد ﷺ ذكرتها لتقر أعين أتباع محمد ﷺ بهذه الزمرة الصالحة من شبابهم، وأنا على يقين بأني قد تعرضت في هذا لما يكرهون وسيحملون في صدورهم أحمالاً ثقيلة من العتب عليَّ لا أستطيع الوقوف بجانبها غير أني شهد الله ما ابتغيت بما كتبت

إلا وجهه، وما قصدت إلا إدخال السرور على قلوب المخلصين من أمة محمد ﷺ بتعريفهم بهذا الجيش المحمدي الفتي القوي بإيمانه وعزائمه، وفي النية التوسع في هذه التراجم حين تكون الفرصة مناسبة إن شاء الله.

أما المؤتمر الذي عقده شباب محمد ﷺ فأقسم أني ما شعرت في حياتي بلذة روحية كتلك التي شعرت بها في جلسات المؤتمر التاريخية، فقد كان الإخلاص رائد الجميع، والأخوّة الإسلامية تربط بين قلوبهم، ونور محمد ﷺ يتلألأ على وجوههم. وما كان يرى أحد لنفسه على آخر فضلاً أو رفعة، وكان مبدؤهم الذي أقروه أن العمل هو الذي ينبغي أن يعرف الناس بهم، فلم يقوموا بدعاية ولم ينشروا عن مؤتمرهم شيئاً إلا ما مست إليه الضرورة، وحسب القارىء أن يعلم أن المؤتمر انفضَّ دون أن يعرف الناس من هو رئيس المؤتمر ومن أعضاء لجانه، ليعلم بذلك مبلغ الإخلاص الذي تمكّن في نفوس هؤلاء الشباب الأطهار.

وأما الأمور التي بحثها المؤتمر فقد كانت على جانب عظيم من الأهمية منها تنظيم الشباب المسلم تنظيماً ثقافياً عسكرياً وتوحيد جهود المراكز المتعددة لشباب محمد ﷺ واتخاذ مركز رئيسي لها. وقد انعقد الإجماع على أن تكون دار الأرقم هي المركز الرئيسي. ومنها تنظيم وسائل الدعاية لفكرة الشباب بين الطبقات كافة وتنظيم بعثات سنوية من الشباب إلى الحج، والتمهيد لإصدار صحيفة إسلامية يومية، والسعي لإلغاء احتكار نقل الحجاج السوريين بباخرات بعض الشركات الأجنبية، والعمل على إسعاف فلسطين بطرق أقرها المؤتمر، وتأييد مؤتمر العلماء في مسائل الأوقاف والتعليم والقضاء الشرعي والسكة الحديدية الحجازية وغير ذلك من المسائل المهمة.

ولا بد لي قبل إلقاء القلم من التنبيه إلى أن هذه الهيئة الفتية المنظمة لم يقدرها الزعماء ورجال الحكومة حق قدرها، وكثيراً ما أقيمت في سبيلها العراقيل لغايات لا حاجة إلى ذكرها، ولو أن هذه الكتلة القوية من الشباب

كانت في أمة أخرى لاحتضنتها الهيئات العاملة ولأحاطتها بكل أصناف الرعاية والاهتمام، ولكن الأمر عندنا على العكس، حتى أن الحكومة كانت قد اعتزمت الغاء دار الأرقم لأنها أرسلت إليها احتجاجاً على تعطيل فريضة الجمعة في يوم الاحتفال بذكرى الزعيم إبراهيم هنانو ـ رحمه الله ـ!. أجل إلى هذا الحد بلغ احترام رجال حكومتنا للقائمين بالدعوة إلى سبيل ربهم من خيرة شباب الأمة ثقافة وأدباً وخلقاً فإلى متى هذا يا حكومة الأمة؟..

أما أنتم أيها الشباب فامضوا في جهادكم ولكم من الله النصر، ومن هداية رسوله المدد، ومن العقلاء الدعاء والتأييد، ومن التاريخ الثناء والتمجيد!

يا شباب محمد ﷺ، لقد سلكتم بأمتكم طريق المجد ووضعتم لها أسس النهضة فامضوا في البناء حتى ترتد عنه عيون أهل الزيغ والضلالة ذليلة خاسئة ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.



فلسطين تستيقظ
ولكنها لا تسلك سبيل النجاة [1]

نشرت الفتح في الأسبوع الماضي قرار لجنة مؤتمر الشباب في فلسطين الذي يقضي بتأليف حاميات عربية، ومفاوضة زعماء الأحزاب لحملهم على الاتفاق على تقديم مذكرة إلى المندوب السامي البريطاني تتضمن وقف الهجرة الصهيونية إلى فلسطين ومنع بيع الأراضي لليهود وتأليف حكومة وطنية، كما قررت توجيه نداء إلى شبان فلسطين العرب ليكونوا على أهبة واستعداد لمواجهة جميع الطوارىء.

يقظة سارة وحماسة فائقة دفعت فريقاً من شباب العرب الأشاوس إلى إيقاظ الشعور العربي في فلسطين في هذه الأوقات العصيبة بعد أن سكنت حركة الجهاد فيها وتفرق الزعماء إلى أحزاب مختلفة يرمي بعضها بعضاً بنبال الشتائم والتهم مما جعلنا نخشى العاقبة الوخيمة على فلسطين من جرّاء هذا التناحر السخيف.

أجل، إننا طربنا كثيراً لهذه اليقظة، وكم كان بودنا أن يندفع الشباب إلى سلوك طريق صالحة لإخراج فلسطين من هذا المأزق الحرج الذي وقعت فيه منذ بضعة عشر عاماً إلى اليوم، ولكننا ـ والأسى يملأ قلوبنا ـ لا نزال نرى الشباب سالكاً طرقاً عقيمة فاشلة ظهرت لنا نتائجها الوخيمة بعد

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٤٦٨ العام العاشر ١٣٥٤هـ.

جهاد طويل أريقت فيه دماء زكية وأزهقت فيه أرواح بريئة لم تستفد منها الأمة بقليل ولا بكثير.

بضعة عشر عاماً كنا فيها نصرخ ونُبرق إلى المراجع العليا وإلى المندوب السامي البريطاني، فأي شيء أجدت علينا هذه السياسة؟

بضعة عشر عاماً نقوم فيها بالمظاهرات العنيفة معرضين صدورنا لرصاص الجيش المحتل ونحن عزل من كل سلاح، فأي شيء أجدت علينا هذه السياسة؟

بضعة عشر عاماً ونحن نغلق الأسواق في المدن والقرى، ونشلّ حركة التجارة في كل مناسبة، احتجاجاً على الظلم الفادح؛ فأي شيء أجدت علينا هذه السياسة؟

بضعة عشر عاماً ونحن نرى بأعيننا كل يوم آلاف المهاجرين اليهود يطؤون أرض فلسطين المقدسة ثم لا نجد سبيلاً لمقاومة هذه الهجرة سوى أن نطلب بل نسترحم من المندوب السامي البريطاني وقف الهجرة الصهيونية، فماذا أجدت علينا هذه السياسة؟

إنها لم تفدنا شيئاً ولن تفيدنا شيئاً ما دمنا نقابل الرصاص بالحجارة، والعمل بالقول، والجد بالهزل، والقوة بالضعف، والاجتماع بالتفرّق، وقلوبنا مشتتة شيعاً وأحزاباً.

إن الإنكليز قوم يعملون لمصالحهم قبل كل شيء، فليس من المعقول ـ وقد وجدوا مصلحتهم في وعد اليهود بإنشاء وطن قومي في فلسطين ـ أن يتقهقروا أمام برقياتنا الحماسية، وأقوالنا الفارغة، فيعلنوا رجوعهم عن هذا الوعد إلا إذا أرغموا على ذلك إرغاماً. ولن يرغمهم الكلام الطويل، وإنما يرغمهم الجد والعمل واليقظة والوحدة والخلق والرجولة.

وما دام الإنكليز ينظرون بعين بصيرة إلى جدّ اليهود وكسلنا، وعملهم ولهونا، واتفاقهم وتفرقنا، وتفانيهم في المصلحة العامة وتفانينا في المصلحة

الخاصة، وإلى نشاط شبانهم في ميدان الكد والعمل ونشاط شباننا في ميدان اللهو والمجون والخلاعة وفساد الضمائر؛ فمن العبث والسخافة أن نؤمل منهم احترام حقوقنا واستماع أقوالنا ورعاية مصالحنا وطرد اليهود من بلادنا، إلا إذا انقلب المستحيل جائزاً!..

ثم بأي وجه نطلب من السلطة البريطانية منع بيع الأراضي إلى اليهود وهي لم ترغمنا على بيعها إرغاماً، ولا اليهود أرغمونا على ذلك، وإنما نحن الذين فرطنا بما ملكت أيدينا وغرنا ذهب اليهود الوهاج فبعنا الضمائر وخنَّا العهود واستخففنا بالأمانة واستبدلنا الدرهم والدينار بعزة النفس وقدسية الديار، فيا لهزء الأمم ويا للسخرية!.

كيف نلوم غيرنا على تسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين ونحن نفسح لهم في بيوتنا، ونمكن لهم في بلادنا، ونمنحهم ودنا، ونغدق على ملاهيهم ومتاجرهم ومصنوعاتهم ثروتنا، ونلقي إلى أبنائهم وبناتهم بزهرة أبنائنا وخالص نضارنا؟

إنه لتصريح مؤلم للنفس، ولكن الذي يؤلمها أكثر أن نتجاهل كل هذه الحقائق، وأن نظهر بمظهر يدل على أننا لم نبلغ سن الرشد بعد..

أنا لا أستحسن السكوت عن أعمال الصهيونية في فلسطين، وعن مساعدة بريطانيا لها، حاشا وكلا.. ولكني أريد أن نعلم أن الثرثرة وسياسة الكلام التي مشينا عليها أعواماً عدة إنما هي سياسة خرقاء عطلت الأمة عن الاستعداد الإيجابي وأثخنت البلاد بالجراح الأليمة. وخير منها سياسة عملية حازمة تفيد الوطن في عام واحد ما لم تفده السياسة الثرثارة في بضعة عشر عاماً.

يا مسلمي فلسطين، علموا أغنياءكم كيف يستعملون نقودهم المكنوزة في تأسيس شركات إسلامية عالمية لشراء الأراضي واستصلاحها.

علموا أبناءكم متانة الأخلاق والتَّمَعْدُدَ والضنَّ بالقرش الواحد عن أن يتسرّب إلى غير أبناء الملة.

علموا وجهاءكم أن الوجاهة كل الوجاهة بتنظيف القلوب من الخبث،

وبتنويرها بنور الأخوة المحمدية، وبالتقرب إلى الله بما يرضيه لا بالتقرّب إلى غيره بما يسخطه.

اقطعوا دابر السماسرة وباعة الأراضي لليهود بمقاطعتهم ولو كانوا آباءكم وأبناءكم، وأدبوهم بأبلغ ما يعلم الناس من تأديب حتى تطهّروا الأمة من جرثومة فتكت بجسمها حتى سببت لها البرحاء.

انزعوا من صدوركم الغل، طهّروا قلوبكم من الدنس، ضعوا نصب أعينكم مصلحة البلاد، استمعوا قليلاً إلى صراخها المؤلم، حاربوا أعداءكم بمثل سلاحهم صفاً واحداً وأنتم إخوة، كما يحاربونكم صفاً واحداً وهم متباينون.

بثّوا في العامة روح التضحية والإخلاص لقضية الأمة، وكونوا قدوتهم في هذا، حتى يعلم كل فرد أن كل ذرة من ذرات الأرض المقدسة لا يعدلها ذهب الدنيا بأجمعها.

أميتوا عناصر الأنوثة في شبابكم، واغرسوا فيهم روح الشهامة والرجولة، ووجهوهم إلى العمل الصالح، وباعدوا بينهم وبين حانات اليهود ومراقصهم وفتياتهم، ولقنوهم ثبات أبي بكر وشهامة عمر وإخلاص خالد وأمانة أبي عبيدة وحزم طارق وشجاعة صلاح الدين، ثم ادعوهم بعد ذلك إلى تأليف الحاميات والكفاح في سبيل الله تجدوهم الأبطال الجحاجح والغرّ الميامين.

افعلوا هذا عاماً واحداً، ثم انظروا هل تجدون يهودياً يطمع في أرضكم، أو عدواً ينتقصكم حقوقكم، أو سفيهاً يزدري كرامتكم؟ وهل تجدون إلا الأمم تنظر إليكم نظرة الإكبار والإجلال وأن المحتل يرغم على تمزيق صك الاحتلال، وإلا التاريخ يرو عنكم العجائب كما روى العجائب عمن قبلكم من الأجداد في غابر الأجيال.

قد يقول بعض الناس هذا كاتب يجري وراء الخيال، ونحن نجيب هؤلاء: إن الأمة الحية اليقظة المتبرمة بالذل والأسى تعرف كيف ترغم الأمم على احترامها بالخُلق والثبات والإخلاص والجلاد...

المرأة المسلمة
بين تعاليم القرآن وتسويلات الشيطان[1]

الكلام عن المرأة ونهضتها مما تناولته عقول المفكرين بالبحث والدرس، وأكثر فيه الكتاب من البيان والإيضاح، ولم يختلف أدباؤنا والمصلحون منا في شيء كاختلافهم في إصلاح شأن المرأة: ففريق يرى أن خير إصلاح لها أن يرجع بها إلى الدين الحكيم، وتنفذ فيها أحكامه وتعاليمه لأن بذلك صيانة فضائلها، وحشر روحها مع أرواح الملائكة. وفريق يرى أن الرجوع إلى الدين جمود ورجعية، وأن إصلاحها لا يتم إلا بأن تمشي على سنن الغرب وتقتبس أزياءه وتسير معها حيثما سارت. لأن الفرنج في مذهبهم كل لا يتجزأ ولا يؤخذ بعضه دون بعض.

وهذا الفريق ـ الفريق الثاني ـ وإن موَّه على الناس دعوته وتستر بستار التدرج إلا أن العقلاء يعلمون أن ما يتسترون به خداع وفرار من إغضاب جمهرة الأمة التي تعتقد أن دينها جماع الخير ومعدن الفلاح.

وما زالت الأيام والحوادث تكشف الستر شيئاً فشيئاً عن تلك العصابة حتى وضح للناس كافة أن نفوسهم تنطوي على دغل وضغينة نحو الدين الإسلامي على الخصوص قد لا تنطوي على مثله نفوس أعدائه الخارجين عنه، وأنهم إذ يدعون الناس إلى سفور المرأة ونزولها إلى ميدان الحياة لا

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٤٧٣ السنة العاشرة ١٣٥٤هـ.

يبتغون بذلك إصلاح المرأة، وإنما يطلبون تأليبها على آداب الإسلام بإفساد عفتها، ولا يودُون نصرة النساء، وإنما يودون نصرة نفوسهم المركبة من الشهوات والأهواء.

وقد كنا نحسب أن ما أظهره الزمن من فضائح النهضة التي تقوم بها تلك العصابة الآثمة الباغية على الدين والفضيلة كفيل بأن يرغمها على أن تغض الطرف حياءً وتلتمس من الأمة صفحاً عما أساءت إليها في دينها وعفتها وكرامتها، ولكن الذي يظهر أن الشر لا يزال محدّقاً بعينيه، والشيطان لا يزال ذارّاً قرنيه وأن وراء الأكمة ما وراءها.

وقفت إحدى زعيمات تلك العصابة قريباً على منبر جامعة تبشيرية في القاهرة تتحدث إلى الناس عن جهاد عصبتها في تطوّر المرأة، وبعبارة أدق في إخراج المرأة من حظيرة الإسلام، فذكرت شيئاً كثيراً عما أصاب دعوتها من نجاح، وبرهنت على ذلك بتزايد عدد المحاميات والموظفات والمتعلمات من بني جنسها وبنزولهن إلى الشوارع والأزقة يهتفن للوطن ورجاله!..

مرحى، مرحى! أهذا كل ما أسفر عنه جهادك أيتها العصابة؟ وهل هذا كل ما عندك من براهين على ما وفقت إليه من عمل وكفاح؟.. يا خيبة الآمال بأعمال الأبطال!.. ويا سخرية الساخرين.. من جهاد المائعين!...

هل استنكرنا يوماً من الأيام أن يكون بين النساء نابغات؟ أم هل أنكرنا أن يكون بينهن من يقدرن على الطيران في السماء، والمحاماة أمام القضاء، والصياح في الشوارع بين الدهماء؟ كلا فنحن نقر ونذعن بأن في النساء من هن أقدر من الرجال على الجدال والهتاف في الفضاء، ولكن الذي أنكرناه ولا نزال ننكره أن تهتك المرأة ستر الحياء، وتهجر الديار وتربية الأبناء وتتمرد على الله في شريعته كأنها تعتب عليه إذ خلقها امرأة ولم يخلقها كما يخلق الرجال!...

وكم كنا نود من المتكلمة بلسان العصابة أن تقيم لنا الأدلة على ما

كان لنهضتها من آثار حسنة في خلق المرأة وعفتها وحيائها ولكنها أغفلت هذا وتجاهلته، كأنه ليس مما يدخل في برنامج أعمالها. وهيهات أن تجرؤ مجترئة على مثل تلك الدعوى، فالوقائع تكذبها والمشاهدات تنطق بلسان فصيح بأن نهضتها إنما كانت شؤماً على الطهر والأدب والخلق والعفاف.

لِمَ لم تذكر لنا خطيبة العصابة مخازي حمامات البحر ومصايف البر؟

لمَ لم تذكر لنا فضائح الحدائق العامة ودور اللهو والخلاعة؟

لمَ لم تذكر لنا الحفلات التي تقام باسم نهضة المرأة وتحمل فيها المهذبات الراقيات محمولات في السيارات إلى بيوتهن؟

لمَ لم تذكر لنا مخازي الاجتماع الطاهر البريء بين الجنسين مما امتلأت به محاضر الشرطة ودفاتر القضاء وسجلات المحاكم؟

لمَ لم تذكر لنا كثيراً مثل هذا مما تعلمه هي أكثر مما نعلمه نحن؟ من يدري؟ فقد يكون ذلك من مفاخر العصبة وإحدى غاياتها، فلله الأمر من قبل ومن بعد.

تقول خطيبة العصابة: إن الإسلام أنقذ المرأة وأنالها نصيباً من الحرية. وما هذه والله إلا من تلك التي تموه بها العصابة على الناس كما أسلفنا، وكأن الله أبى إلا أن يبين للملأ أنها تقول هذا تمويهاً وخداعاً فأجرى قلمها بما يأتي: «لما حل القانون السويسري محل القانون التركي القديم - أي محل الشريعة الإسلامية - ربحت المرأة التركية بحكمه حق المساواة في الميراث ومنع تعدد الزوجات» وفي موضع آخر: «والمطلب الوحيد الذي لم يتحقق إلى الآن رغم مساعينا هو وضع حد لتعدد الزوجات. على أن هذه العادة الممقوتة تتلاشى شيئاً فشيئاً وأن الدين الحنيف ما أقرها إلا بقيود تكاد تحرمها (تبارك الله، ما شاء الله، لقد تحولت الخطيبة فقيهة) وقد استأنفنا السعي في هذا السبيل الذي سيكلل بالنجاح إن شاء الله بفضل تطور العقلية في النهضة العامة وانتشارها بين جميع الطبقات» هذا ما أجرى الله به قلمها

وأقسم أنه ما نطق بهذا من يؤمن برسالة الإسلام ويدين بشريعته، فمحال أن يجتمع في فؤاد واحد في آن واحد الاعتقاد بعدالة الإسلام والاعتقاد بأن مساواة المرأة للرجل في الميراث ومنع تعدد الزوجات ربح جديد ربحته المرأة، وأن تعدد الزوجات ممقوت يجب السعي الحثيث للخلاص منه. ولا شك أن أحد الادعاءين كذب وتدليس، والمرجح عندنا أن الأول هو كذلك فلتقلها العصابة كلمة جريئة صريحة لا مواربة فيها ولا إبهام. لتقل لنا إن كانت تعتقد حقاً برسالة الإسلام وتدين بشريعته أم لا؟ ولتقل لنا إن كانت تعتقد أن السعادة في التمسك بها أم لا؟ وإلا فهذا التذبذب والمواربة مما يجعلها موضع سخرية الساخرين وهزء المفكرين...

وأعجب ما في الأمر ذلك الافتراء الوقح على دين الله بأنه قيد تعدد الزوجات بقيود تكاد تحرمها، فهي أولاً تعترف بأن التعدد ليس محرماً وإنما هو قريب من المحرم، وهي ثانياً تتهم ضمناً صحابة رسول ﷺ والتابعين والسلف الصالح والأمة كلها بأنهم جميعاً وقعوا في شيء ممقوت تكاد تحرمه الشريعة وتنفر منه الطباع السليمة!.. هذا بهتان صريح وادعاء قبيح.

على أن استنباط أحكام الحلال والحرام والجائز والمباح إنما اختص به فقهاء الأمة وذوو العقول الراجحة فيها، وما كانت خطيبة العصابة لتجرؤ على ادعاء العلم بالصيدلة أو بخياطة الملابس وهي لم تتعلمهما، فكيف تجرؤ على ادعاء العلم بالفقه وأسراره والكلام في استنباط الحلال والحرام من شرع الله؟! ولكنه الهوى إذا تسرب إلى فؤاد صاحبه ملأ نفسه وسمعه وبصره فلا ينطق ولا يسمع ولا يبصر ولا يعتقد إلا ما يوجبه الهوى.

وأما أن تستبشر بزوال تلك العادة الممقوتة فنحن نبشرها من الآن بأن الغرب الذي تقتفي آثاره في كل شيء لا بد وأن يأخذ طوعاً أو كرهاً بهذا المبدأ (الممقوت) كما أخذ بمبدأ الطلاق أيضاً، وها هي فرنسا أخذت تضج من قلة النسل وزيادة النساء على الرجال، فقد دلت إحصاءاتها على أنه مقابل كل مائة رجل مائة وخمس عشرة امرأة، مما دعا علماءهم ومفكريهم

إلى الدعوة للأخذ بمبدأ تعدد الزوجات، وسنرى حينئذ كيف تخفف العصابة من غلوائها وتتراجع عن المطالبة بإلغاء التعدد اقتداء بالغرب الذي استولى حبه على شغاف أفئدتها؛ وليس هذا ببعيد فقد حاولت العصابة منع الطلاق حتى إذا رأت معبودها الغرب قد أجازه تراجعت عن مطلبها وتواضعت في التنازل عنه!

وكلمتنا الأخيرة إلى العصابة ومن يؤازرها: أنا ممن يعضد نهضة المرأة المسلمة، ولكن على أي أساس؟ أعلى أساس الدين أم على أساس التمرد عليه؟ أعلى أساس التمسك بتقاليد الشرق الصالحة أم على أساس الاندماج في مدنية الغرب المتهتكة؟ أعلى أساس المحافظة على العفة، أم على أساس هتكها وإهدارها؟ وأخيراً.. على أساس تعدد الزوجات بعقود شرعية أم على أساس تعدد الزوجات والأزواج بغير عقود؟ بينوا لنا خططكم وكلمونا بعقولكم لا بشهواتكم، واعلموا أن نهضة الأمة بكثرة المتخلقات بالخلق النبيل، وما كان شرف هذه الأمة بمكان يسهل على دعاة الشهوة والإباحية أن يهتكوا ستره بمثل تلك الدعوة الطائشة، فليفتشوا عن غير هذه الفريسة في محيط غير هذا المحيط...



إيران بعد تركيا[1]

قد يكون الكلام عن سماحة الإسلام في تعاليمه وتشريعه، وملاءمته لحياة الأمم المختلفة في البيئة، من قبيل تحصيل الحاصل بعد أن أخذت مدنية هذا العصر تقيم لنا الدليل تلو الدليل على أن دين محمد ﷺ إنما هو تشريع الله الحكيم العليم، ولكن الذي يبعثنا على الدفاع عن الإسلام اليوم ما نراه من ثورة عنيفة طائشة ترمي إلى إبعاد أقوام كثيرة من المسلمين عن حظيرة الإسلام ورميهم في أحضان الغرب ومصايده، ومما يزيد في خطورة هذه الثورة أن يحمل لواءها نفر مكنتهم الأقدار من تقلد زمام الحكم فحملوا أممهم على ذلك حملاً قائماً على أساس البطش والقوة.

بالأمس قامت تركيا تمحو كل أثر للإسلام وتقاليده في ديارها ولم تتورع عن إعلان جفائها للإسلام والشرق وانحيازها إلى الغرب تقتبس منه أزياءه وتشريعه ولغته وتقاليده، فوقف في وجهها الغيورون على الإسلام. وما زالت تمعن في التنكر للإسلام وما يتصل به حتى انقلب عليها كثير من أولئك الذين كانوا يتطوعون للدفاع عما ترتكبه من أعمال نكراء.. وأراد ضعاف الأحلام في بلاد الأفغان أن يقتفوا أثرها في ذلك المسلك الأعوج، إلا أن الله أراد بالأفغان خيراً فعصمها من الانزلاق في تلك الهوة السحيقة واجتث بذور الفتنة من أساسها.

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٤٨ العام العاشر ١٣٥٤هـ.

وقد كنا نحسب أن الأمر انتهى عند ذلك الحد ولكنه تبين أخيراً أن عمل الترك كان له الأثر السيىء في غيرهم من الأمم الإسلامية، فقد نشرت الفتح وغيرها من الصحف اعتزام إيران على إبدال الحروف العربية باللاتينية وتنقية اللغة الفارسية من الكلمات العربية وإلغاء الحجاب وتعميم القبعة. وآخر ما نشر من الأنباء عن ذلك ما جاء في أهرام **١٥** شوال سنة **١٣٥٤** من «أن الحركة الجديدة التي ترمي إلى إلغاء الحجاب في إيران صادفت تشجيعاً كبيراً أمس عندما شهد الشاه حفلة افتتاح الأكاديمية العسكرية الجديدة تصحبه زوجته وأميرات البيت المالك وهن سافرات» ومعنى هذه الأخبار أن إيران مقبلة على انقلاب خطير ينذر بشر عظيم، فلن تقف نهضتها المزعومة عند إلغاء الحجاب وإبدال الحروف العربية فقط بل ستتعدى ذلك إلى إبدال الشريعة وإحلال قوانين الغرب محلها. وهنالك تنقسم الأمة قسمين ما بين مؤيد ومعارض، ثم لا يكون جزاء المعارضين إلا القتل والتشريد كما حصل في تركيا. والذي يظهر أن بعض من بيدهم الأمر في إيران قد تشبع بأفكار الكماليين واستحسن خطتهم إما بغضاً في الإسلام أو جهلًا بأسراره، وعلى كلا التقديرين فالمصيبة عظيمة والخطب أليم.

نحن لا نعلم ما هي تلك الصلة بين نهضة الأمة ولباس الرأس؟ فالأمة الناهضة تشق لنفسها طريق الحياة متذرعة بالجد واليقظة والفضيلة، وسواء في ذلك أكانت تلبس الطربوش أم القلبق أم العقال الأسود. فلم يحملون الأمة على أن تتوج رأسها بشعار أعدائها؟

ولا نعلم ما هي تلك الصلة بين نهضة الأمة وسفور نسائها؟ وكل ما يدلل به المتحمسون للسفور على فوائده يذهب هباءً أمام الحقيقة الواقعة والمنطق الصحيح، ولا ندري متى كان الحجاب مانعاً من إنشاء المصانع وتشييد المعاهد وبناء الملاجىء.

متى كان الحجاب مانعاً من اقتناء طائرات السماء ودبابات الأرض وغواصات الماء؟

متى كان الحجاب مانعاً من تعبئة الجيوش وتحصين البلاد وصد غارات الأعداء؟

متى كان الحجاب مانعاً من وحدة الأمة واتفاق الكلمة ويقظة الشعور؟

تلك هي وسائل النهضة، فإن كانت لا تتم إلا بنصيب من العفة والنبل والشرف ـ ولن تتم إلا بذلك ـ فلم لا يتخذون منها نصيباً إن كانوا ينشدون نهضة الأمة حقاً؟ وإن كانت لا تتم إلا بالسفور وهو مفتاح الشرور وداهية البغي والفساد ـ ومحال أن تتم بذلك ـ فلتسقط تلك النهضة الزائفة، وليسقط دعاتها أياً كانوا!

نحن لا نعلم كيف يتصدرون قيادة الأمة ثم يبعدون بينها وبين دينها، وهو الذي يربي فيها ملكة الصبر وينمي فيها عاطفة الشهامة ويذكي في أفئدتها نار الحمية، بل هي لولاه لم تكن شيئاً مذكوراً؟ أو ليس عجيباً من قائد جيش مسلح أن يتجه به إلى الهيجاء بعد أن ينزع منه سلاحه؟

أجل، إننا لا نعلم شيئاً من هذا كله ولكنا نعلم أمراً واحداً هو الذي دعا هؤلاء إلى ارتكاب تلك الأخطاء الفظيعة، ذلك أنهم لم يتشبعوا بروح الإسلام ولم يتذوقوا من ثقافته فأنكروا على الإسلام أموراً هي من أبرز محاسنه ولو أن لهم بصيرة ثاقبة وفكراً صائباً لأدركوا أن الإسلام سهل المشرع عذب المكرع لا اعتساف في أحكامه ولا جور في تعاليمه، وإذا سمجت عقول طائفة من الناس ولم تدرك مزاياه فذلك ليس بضائره شيئاً كنور الشمس لا يزري به أن تنكره العين الرمداء، والجمال الباهر لا تغض من شأنه النظرة الحاسدة.

وعجيب والله أن يتألب على الإسلام من درج في مهده ويكون عوناً لأعدائه عليه، وكأنه لم يكف الإسلام كل ما أصابه من نكبات المستعمرين حتى قام فريق من المنتمين إليه يوجهون إليه سهامهم. وما نظن أن التاريخ حدثنا بعصر نكب فيه الإسلام كما نكب في هذا العصر: الكماليون في بلاد تركيا، ومقلدوهم في بلاد فارس، وفرنسا في شمال إفريقية وسوريا،

وإنكلترا في الهند ومصر وفلسطين، وإيطاليا في طرابلس الغرب وأرتيريا، والشيوعيون في بلاد الروس. كل هؤلاء يكيدون للإسلام بطرق مختلفة ويتفننون في إيذاء المسلمين تفنناً غريباً حتى كاد ينسينا همجية محاكم التفتيش. أفما لهذا الليل من آخر؟

اللهم إن القوم قد ائتمروا بدينك وبيتوا الشر لشريعتك ووطدوا العزم على إطفاء النور، وأنت المطلع على خفايا الأمور.

اللهم إنها إحن صليبية بدأ بها نصارى الغرب في القرون الوسطى ولا يزال أبناؤهم إلى اليوم يتوارثون ضغائنهم ويحملون حقدهم ويكيدون لعبادك المؤمنين.

اللهم إنها حرب إلحادية بدأ بها الشيوعيون في روسيا وتبعهم ملاحدة الترك وقلّدهم قادة فارس، وأنت العليم بما تجره حربهم هذه من فتنة لعبادك وضرر بدينك.

اللهم إنها فتن كقطع الليل المظلم فتنت كثيراً وأيأست كثيراً، والذين تيقظوا لها قليلون. اللهم فثبت هذه الأمة على دينك وهب علماءها اليقظة، وزعماءها الإخلاص، وأغنياءها السخاء، واجمع كلمتها وأكثر فيها من الناطقين بالخير والداعين إلى الهدى ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾.



دورة من دورات الفلك
بين عام رحل وعام أقبل [1]

يستقبل العالم الإسلامي في هذا الأسبوع عاماً جديداً من أعوام الهجرة. وإذا ذكرت الهجرة ذكر ذلك الحادث الجلل الذي كان له في تاريخ الإنسانية أكبر الأثر. بل قل إنه الحادث الذي ابتدأت به الإنسانية تسجل تاريخها بمداد من النور جذلة متهللة، بعد أن كانت تسجله بدماء ضحايا الظلم والفتن عابسة متجهمة. وهو الحادث الذي أعاد إلى المعمورة شبابها وطمأنينتها بعد أن شهدت أحداثاً قربتها من الفناء، وفتناً جعلتها تضطرب اضطراب المذبوح من شدة ما لاقت من ضنى وعناء، وهو الحادث الذي حول البشرية من طريق مغمور بظلام الشرك والشهوة والرذيلة إلى طريق يضيئه نور التوحيد ويزينه كمال الرجولة، ويملؤه كمال العزة وشرف الفضيلة.

تلك هي هجرة سيد الرسل ﷺ مع صاحبه أبي بكر، رضي الله عنه، من مكة إلى المدينة حين أجمعت قريش على قتله تخلصاً من دعوته، وما كانت هجرته يأساً من نجاح، أو فراراً من كفاح، وإنما كانت ابتغاء ميدان آخر أضمن لنجاح الدعوة، وأدعى إلى انتشارها. ومنذ ذلك الحين ابتدأ النضال بين الحق والباطل، واتخذت الدعوة الإسلامية شكلاً جدياً خطيراً اقتصر بادىء بدء على جزيرة العرب ثم ما زال يتسع ويمتد حتى عم العالم

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٤٩٠ العام العاشر ١٣٥٥هـ.

كله مما عرفنا تفصيله في كتب السير والتواريخ.

لسنا نريد في هذه الكلمة أن نأتي على ما كان من أثر الهجرة في العالم الإنساني فذلك قد أشبعه العلماء تفصيلاً وإيضاحاً، وإنما نحب - ونحن على عتبة العام الجديد - أن نتصفح حوادث عامنا الراحل ونستخلص منها ما تكون لنا فيه العظة والعبرة.

حفل العام بحوادث خطيرة هزت العالم هزاً عنيفاً في الشرق والغرب، فحرب الحبشة شغلت وما تزال تشغل بال دول الأرض، لأن اعتداء أمة قوية مزودة بأحدث آلات الفتك والدمار على أمة ضعيفة مستقلة أمر لم تكن الدول ولا الشعور تنتظر وقوعه، وخاصة مع وجود ما يسمونه عصبة الأمم. ولم تكن دول الاستعمار خاصة تستحب حدوثه لما يجر عليها من مشكلات هي أحوج ما تكون إلى تجنبها بعد أن اقتسمت فيما بينها أسلاب الشرق وتحكمت في بلدانه وخيراته، فكان لا بد لها من الوقوف في وجه تلك الغارة الشنعاء التي يشنها قوي مسلح على ضعيف أعزل، ولا بد لها من إعلان استنكارها لمن يحاول أن ينغص عليها عيشها، فاتخذت من دعوى حماية الضعفاء ونصرة المظلومين وسيلة للعمل على إنهاء الحرب في الحبشة كما اتخذت تلك الدعوى من قبل وسيلة لاستعباد الأمم وإذلال الشعوب. وما تزال الحرب في الحبشة قائمة، وما يزال الضمير الإنساني يئن مما يحدث فيها من فتك وقتل وتخريب. ولو أرادت دول الاستعمار سدل الستار على تلك المأساة البشرية لكان لها ذلك. ولكنها ما كانت لتغضب شعباً أبيض إكراماً لعيون شعب أسود خلق ليكون مستعبداً للسادة حسب تصوّرهم الاستعلائي الخاطىء.

أما الشرق الإسلامي فقد كان لحرب الحبشة فضل كبير في إيقاظه من سباته، وتنبيهه إلى حرج موقفه، وحمله على تغيير خطته الإيجابية مع الغرب المستعمر، فلم تكد الحرب الحبشية تبدأ حتى شهدنا مصر تطلب حقها في الدستور والسيادة والاستقلال لا عن طريق الكلام والاستجداء،

ولكن عن طريق التضحية بالأشبال والسخاء بالدماء، وكانت غضبة امتزج فيها هتاف الأمة للحرية بأنين الجرحى وتكبير الشهداء، حتى طأطأ الغاصب رأسه ومد للمعاهدة يداً أبى قبل ذلك أن يبسطها لمثل ما بسطها إليه اليوم.

وشهدنا سوريا الشمالية تغضب لحقها غضبة لم يسجل مثلها التاريخ لأمة من أمم العالم على وجه الأرض قاطبة، فقد عطلت أعمالها تسعة وأربعين يوماً قدمت في خلالها مئات الضحايا، وكانت تشتد في الجهاد كلما تمادى الباغي في العناد، حتى أرغمت ممثل الدولة المنتدبة على التصريح علناً بانحنائه أمام رغبات الشعب الباسل والاعتراف بعدالة حقوقه والنزول على إرادته فيما يطلب من حياة حرة شريفة وسيادة كاملة مطلقة.

ورأينا في سوريا الجنوبية من أبنائها غضبهم أن يروا أذل خلق الله وأدناهم منزلة يتأهبون لقتال المسلمين فصمموا على الجهاد في سبيل الله كما جاهد رسول الله ﷺ وصحبه ثم تقدموا إلى ساحات القتال بعد أن استودعوا الله أطفالهم ونساءهم، فاستشهد منهم من استشهد، وسجن منهم من سجن، ولا تزال بقيتهم في كهوف الجبال تنتظر معونة الله، وكان لهذه الثورات التي قامت في مصر والشام في آن واحد أثر بارز في تقوية روابط الأخوة بين الأقطار العربية الإسلامية، فما كادت تحدث أول مظاهرة في مصر حتى تناقلتها صحف العالم العربي ما بين الإكبار والإعجاب، واهتزت أسلاك البرق بالعطف والتأييد. وكذلك ما كاد يقع أول صدام في سوريا الشمالية حتى زأرت العراق وغضبت مصر واحتجت فلسطين وشرق الأردن واهتزت جنبات اليمن والحجاز ونجد. وقل كذلك في ثورة الشيخ القسام، عليه رحمة الله، وتجلى الإخاء بأكمله في الحفلات التكريمية التي أقامتها مصر للطلبة العراقيين أولاً ثم للزعماء والشباب السوريين والفلسطينيين ثانياً ولوفد العراق النيابي ثالثاً، وبرزت عروبة مصر في هذه الحفلات واضحة جلية ترغم أنوف الشعوبيين الذين يودون قطع كل صلة فيما بين مصر وشقيقاتها من الأقطار العربية.

تلك هي بوادر يقظة الأمة في العهد الأخير، وفي اعتقادنا أنها بوادر خطرة سيكون لها الأثر البالغ في تحويل السياسة المتبعة الآن في الشرق، فلن يعتمد الشرق بعد اليوم على أمل كاذب وكلام معسول، ولن يقنع بالعهود والمواثيق بعد أن دلته حرب الحبشة على أن للسياسة الغربية معجماً يختلف عن معاجم اللغة وما تعارفه الناس، فما التهذيب في عرف السياسة عند الغرب إلا التدريب على الفجور، وما الانتداب إلا العمل على إفقار الأمة وخراب البلاد، وما المحافظة على الأمن إلا ازهاق النفوس وإسالة الدماء، وما التمدين إلا استذلال الرقاب واستعباد الأحرار، والحق عندهم ما تنطق به فوهة المدفع وآلات التدمير، لا ما توحي به الذمة ويعترف به الضمير!..

وإذا كنا نسجل تلك اليقظة التي بدرت من الأمة في أواخر عامنا الماضي وقلوبنا تخفق غبطة وسروراً، فكم جدير بنا أن ننبه الأمة إلى أن هذه اليقظة لن يرجى منها الثمرة المطلوبة ما لم تكن مؤيدة بالدين، معتمدة على الخلق الفاضل متشرّبة بالثبات والإخلاص، وإلا فكل نهضة تناهض الدين فهي هباء، وكل أمة تفشو فيها الرذيلة فهي إلى فناء، وكل وطن يفقد قادته الإخلاص والثبات فهو في شقاء.

نحن طلاب حرية وسعادة واستقلال؛ وما كانت هجرة محمد ﷺ إلا حباً في الحرية والحق ونفوراً من الاضطهاد والباطل، وما كانت دعوة محمد ﷺ إلا تحقيقاً لسعادة الأمم وقضاءً على شقاء البشر، وما كانت فتوحات أصحاب محمد ﷺ إلا سعياً لنشر الخير في البلاد وإنقاذها من شرور الفساد والظلم، فلم لا نقتفي في جهادنا خطى محمد؟ ولم لا نبتغي سعادتنا في دين محمد؟ ولم لا نطلب استقلالنا برجولة كرجولة أصحاب محمد ﷺ؟

نحن قوم أغمض الدهر عنا عينه بعد أن كنا نتصرّف كما نشاء، ثم أخذنا اليوم نحاول أن نستعيد سيرتنا الأولى، ولكنا وجدنا أنفسنا مجردين

من القوة فظننا أنها في سفاسف الغرب، ووجدنا أنفسنا مجردين من المال فحاولنا أن نجمعه من مصارف الغرب، ووجدنا أنفسنا مجردين من العلم فظننا أنه في مادية الغرب، ووجدنا أنفسنا مجردين من السعادة فظننا أنها في مدنية الغرب. كلا يا قوم، لقد ظننتم خطأً وحاولتم عبثاً، فما القوة إلا في دين الله، وما المال إلا في خزائن الله، وما العلم إلا من عند الله، وما السعادة إلا في رضا الله.

ترى متى يفهم زعماؤنا وقادتنا أن عز الشرق لن يكون إلا بعز الإسلام، وأن سعادة العالم لن تكون إلا بسيادة الإسلام؟...

أيها العالم الجديد! لقد فتح لنا سلفك السابق كسوة الأمل فافتح لنا أبواب العمل، وحقق لنا بعض الرجاء فحقق لنا كل الرجاء...



إلى الجمعيات الإسلامية في سوريا [1]

«رسالة الفتح رسالة بعث وإنشاء، فانشروها بين طبقات الأمة»

«أرجو أن لا يضيق صدر سيدي صاحب الفتح من هذه الكلمة، لما انطوت عليه من مدحه وإطرائه، فوالله ما كتبتها حباً في مدحه، ولا رغبة في القربى إليه، وإنما هي فرصة اغتنمتها لأقول فيها كلمة الحق، عساها أن تدخل قلوب أقوام فيعرفوا ناحية من نواحي الخير لا يزال يجهلها كثير من المسلمين. . .».

لا أعرف أن لأحد فضلاً عليّ فيما أجده في نفسي من غيرة على الإسلام وحمية في الدفاع عنه وآلام بالغة مما وصلت إليه حالة المسلمين، إلا لرجل واحد أحببته قبل أن أراه، ثم لم تزدني معرفتي به إلا حباً فوق حبي له، وإكباراً لا يدانيه إكباري لأحد من رجالات المسلمين اليوم. ذلك هو المسلم الذي فهم الإسلام حق فهمه، وخدمه حق خدمته، الأستاذ محب الدين الخطيب.

منذ بضع سنوات كنت أتلقى العلم في إحدى دور العلم في مدينتي (حمص)، وكان شأني كشأن إخواني من طلبة العلم لا نعلم عن الإسلام إلا أنه دين لا يتبعه المسلمون اليوم، ولا نعلم عن المسلمين إلا أنهم في ذلة واستكانة، ولا نقرأ من الصحف إلا الصحف السياسية ذات الغايات

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٥٧٢ العام الثاني عشر ١٣٥٦هـ.

المختلفة، أما الصحف الإسلامية فما كانت أيدينا تصل إلى شيء منها إذ لم تكن قد خلقت بعد، فكنا في عزلة تامة عن العالم الإسلامي: لا نعلم من حوادثه إلا ما تتكرم به علينا صحفنا السياسية بعد أن تلوّن تلك الحوادث باللون الذي تشاؤه. وحسبك أننا كنا نعد أعمال الكماليين في تركيا إصلاحاً ونهوضاً!. وأعمال أمان الله خان رقياً وتمدناً!. ونعجب كيف يثور أبناء الأفغان على إصلاحات مليكهم؟!

في هذه المدة اطلعت على صحيفة (الفتح) وكانت في سنتها الثالثة، فما تصفحتها حتى غدوت إلى إخواني أبشرهم بها، وكنت في فرحي كأنما هُديتُ إلى شيء ثمين كنت أنشده منذ زمن بعيد، وفرح إخواني بالفتح كما فرحت، وغدونا نبشر به كل مجلس، حتى أصبح له أحباء كثيرون يكنّون له من الحبّ والحرمة أوفر نصيب. وما كدنا نتصل بالفتح حتى بدأنا نعرف واجبنا في الحياة كشبان مسلمين، وأخذنا ندرك خطر ما يبيته الاستعمار من وسائل الكيد للمسلمين، وتأججت في أفئدتنا نار الحمية لدين الله والنقمة على أعدائه، وشعرنا بأن الفتح هو همزة الوصل بيننا وبين أمصار الإسلام، فلولا الفتح لما عرفنا من حقائق ثورة الأفغان على أمان الله خان شيئاً، ولولاه لما قدرنا مبلغ المصيبة في الظهير البربري، ولولاه لبقينا نجهل أخبار بلاد كثيرة من بلاد المسلمين كان ينفرد الفتح بنشرها.

وظللنا نتصل بالفتح ونرجع إليه في مهمات الأمور لنرى رأيه فيها، حتى أدرك المستعمرون في سوريا ما كان للفتح من فضل في هتك أسرارهم، وإفساد خططهم، فمنعوه من دخول بلاد الشام، وحرمونا صيحاته ونصائحه، إلى أن شاء الله أن يتصل بمحبيه فيها مرة أخرى بعد ذلك الغياب الطويل، على نحو ما علمه القراء في الأسبوع الماضي.

هذا بعض فضل الفتح عليَّ، وأنا على يقين بأن إخواني وقراء الفتح جميعاً ليسوا بأقل مني حباً للفتح وتقديراً لصاحبه، وقد رأيت من الواجب علي - بمناسبة عودة الفتح إلى سوريا - أن أوجه كلمة إلى الجمعيات

الإسلامية والذين يعنون بشؤون المسلمين في بلاد الشام، لعلها تجد من أسماعهم إصغاءً، ومن أنفسهم قبولاً.

إن في بلاد الشام اليوم يقظة شاملة في كل نواحي الحياة، ورغبة أكيدة في الخلاص من نير الاستعباد، حتى لنجد هذه الرغبة متجلية في الأطفال قبل الشباب، وفي الشباب قبل الشيوخ، وفي العامة قبل الخاصة. وتلك ظاهرة حسنة تبشر بانبثاق عهد جديد طافح بالعزة والكرامة. غير أن دور الإنشاء في حياة كل أمة هو أخطر الأدوار التي تمرّ بها، وأمسّها صلة بمستقبلها، وعليه يتوقف مبلغ تمتعها بالحياة المستقلة في أيامها المقبلة، فإذا عرف القادة كيف يستغلون - في دور الإنشاء - نشاط الأفراد والجماعات وكيف يوجهون هذه الجماهير نحو الوجهة المثلى التي تؤدي بهم إلى السعادة والفلاح، وكيف يدرأون عنهم خطر الدعايات الأجنبية التي تستغوي الشباب بمظاهرها الخادعة وهي تحمل في ثناياها السم والموت، إذا عرف القادة كل هذا أمكنهم أن يخلصوا أمتهم من الخطر، ويهيئوها لحياة ترفع الذكر وتخلد الأثر.

ماذا فعل قادة الشام من تدابير لحياطة الشباب من التأثر بالدعايات السيئة، وماذا رسموا من الخطط لتوجيههم نحو المُثل العليا التي تحيا بها كل أمة؟ إن الجواب على هذا مؤلم جداً، فالفتن التي نشبت في سوريا في مستهل عهدها الوطني الجديد استغرقت جهد زعمائها، وحالت بينهم وبين التفكير في رقابة الشباب وتنظيم صفوفهم، فكان هذا باعثاً لنشاط الدعايات الخبيثة وانتشارها في محيط الشباب انتشاراً ينذر بأوخم النتائج، وأنت إذا اختلطت بالشباب واستمعت إليهم في مجالسهم أفزعك ما تراه من تباين أفكارهم وتضارب ميولهم وتنوع الدعايات بينهم، فهذا «شيوعي» يمجد ستالين ويدعو لمبادئه، وهذا «فاشيستي» يرفع من شأن الدوتشي ويشيد بفضائله، وهذا «قومي» يدعو إلى اطراح الأديان ووجوب تزوج المسلمة من غير أبناء دينها ليتمَّ التعاون بين أبناء الملل المختلفة، وهذا «إباحي» يرى

إطلاق الأمة من قيود الفضيلة والدين ليفعل ما يشاء من المنكرات، ويعاشر من تعجبه من الفتيات، ويدعو إلى ما يراه من المعتقدات ولو كان فيها الهدم والفساد! إلى غير هذا وذاك مما يبعث فيك العجب والدهشة ويحملك على أن تستبعد أن يكون هؤلاء الشباب - مع ما هم عليه من اختلاف المشارب - أبناء أمة واحدة ولغة واحدة!.. هذا خطر بلا ريب فلن تنهض الأمة إلا بعد أن تكون متحدة في الفكرة والثقافة والغاية، أما أن تكون موزعة الأهواء مشتتة الميول مختلفة في الغاية التي تسعى إليها فستبقى أبد الآبدين محطّ أنظار الطامعين والجائعين!...

ما العمل إذن، وكيف الخلاص من هذا البلاء؟ قد يرى بعضهم أنه لا سبيل للخلاص إلا بتنظيم دعاية واسعة للتنفير من هذه المذاهب الخبيثة، واستعمال الحكومة القوة لمقاومة كل دعاية أجنبية. وهذا الرأي غير مستقيم، فكثيراً ما أدى استعمال القوة إلى عكس المطلوب، ودعوة الأمة إلى تجنب هذه الدعايات قد يكون من شأنه زيادة الإقبال عليها لما رُكِب في طبيعة البشر من رغبة في كل ممنوع. وإنما الرأي عندي أن تقوم الجمعيات الإسلامية والمهتمون بالقضايا الاجتماعية بدعاية واسعة لمبادىء الإسلام وآدابه، وأن تسعى هذه الجمعيات بكل الوسائل الممكنة لتقوية الروح الإسلامية والعربية في نفوس الشباب وملء أدمغتهم بمفاخر الإسلام، وإفهامهم رسالته في الحياة كما أنزله الله وفهمه صحابة رسول الله يوم ضربوا في بقاع الأرض ينشرون فيها راية العدل والرحمة، فإذا استطاعت الجمعيات أن تقوم بواجبها هذا فلن تمضي أقصر مدة حتى تتلاشى الدعايات الأجنبية والمذاهب الهدّامة ويجتمع الشباب جميعاً على مبدأ واحد وغاية واحدة هما خير المبادىء وأسمى الغايات.

ألا لا يعترضنّ علينا معترض بأن في إحياء روح الإسلام، إحياءً للعصبية الطائفية، فنحن إذ ندعو إلى مبادىء الإسلام إنما ندعو إلى الفضيلة والشهامة والعزة والكرامة والتسامح والإحسان، وهي مبادىء تمجدها النفوس الطاهرة وتتمسك بها الأمم الحريصة على استقلالها، فما أحرى أمتنا

بالتمسك بها وقد فتحت بيدها باب الاستقلال وهي توشك أن تستقر فيه. أما أن يكون في الإسلام تعصب ذميم فلا. وأما أن يكون في الإسلام التسامح والتساهل ونبذ العصبيات الذميمة فنعم وألف نعم.

إذا تقرر هذا حق لنا بعده أن نلتفت إلى الجمعيات الإسلامية في بلاد الشام ونطلب إليها أن تعمم نشر «الفتح» بين طبقات الأمة كافة، فليس كالفتح في إيقاظه للمسلمين، وبثه الروح العالية في نفوس قرائه، وتثبيته في أفئدتهم حب استخلاص البلاد من أيدي مغتصبيها. إن حقاً على الجمعيات أن لا تألو جهداً في إدخال الفتح إلى كل بيت وإيصالها إلى كل شاب، ويوم يكثر قراء الفتح في كل مدينة وتتناوله الأيدي فرحة مستبشرة فذلك يوم ينفتح لنا فيه باب الأمل، ونثق بقرب الخلاص من دعايات السوء والاستعمار، ويومئذ تتغلب الفكرة الإسلامية العربية على كل فكرة هدامة ونزعة خبيثة.

ونحب أن نقول بهذه المناسبة أيضاً: إن رسالة الفتح ليست علمية فيكثر من بحث الموضوعات العلمية المجرّدة، ولا أدبية فيمتلىء بمقالات الأدباء، وإنما رسالة الفتح رسالة إيقاظ وتذكير، رسالة تعاون وتعارف، رسالة بعث وإنشاء، فلا عليه إن لم يتجرد لبحوث العلم والأدب، وإنما عليه أن يعمل لليقظة والتعارف.

يا رجال الجمعيات الإسلامية، إن البلاد في حاجة إلى شباب يكونون في السلم كالملائكة عفة وطهارة وسكينة، وفي الحرب كالصواعق المحرقة تنقضّ على رؤوس الأعداء فتنتزعهم من فم الحياة وتلقي بهم في أودية الجحيم. فإن أردتم أن تكون للبلاد تلك الذخيرة من الشباب فانشروا الفتح في ربوعها وبشّروا برسالته بين ظهرانيها. والله يتولى جزاء العاملين المخلصين.



صبراً فلسطين؟[1]

إذا تساءل الناس في العصور المقبلة عن أشد فظائع القرن العشرين، فسيقول لهم التاريخ بملء فيه: إنها فظائع فلسطين.

وإذا تساءل الضمير البشري في الأيام الآتية عن أقبح ظلم حلّ بأضعف أمة، فستجيبه أرواح الشهداء من جنة الخلد: إنه ظلم البريطانيين لمسلمي فلسطين.

وإذا تساءلت الأجيال القادمة: كيف كان حُكمُ الغرب للشرق في عصر العدالة والحرية، فستقول لهم مساجد فلسطين: سلوا رئيس المجلس الإسلامي الأعلى المستر غرين!...

هذا والله هو الواقع، وهذا هو ما أصابنا من بركات مدنية القرن العشرين!.. فأصحاب البلاد يجب أن يخرجوا منها ليحلَّ محلهم شعب طريد مكروه من جميع شعوب العالم، وأسياد البلاد يجب أن يصبحوا عبيداً أرقاء لكل أشقر وأصفر، ممن حكم الله عليهم بالشتات والاستكانة، وأوقاف البلاد ومساجدها يجب أن يديرها ويتصرف في معايش أئمتها وخطبائها المستر غرين والمستر كركبرايد من أبناء السكسون الذين لا يدينون بدين الأكثرية التي يتحكمون في أوقافها ومساجدها، أما زعماء البلاد وقادة الرأي

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٥٧٣ العام الثاني عشر ١٣٥٦هـ.

فيها فيجب أن يزجوا في السجون، أو ينفوا إلى «سيشل» أو يظلوا خارج بلادهم، لتستريح الأمة من دسائسهم ومؤامراتهم!. ورؤساء اليهود الدخلاء يجب أن يبقوا في البلاد أحراراً يأمرون ويحكمون لتنعم أرض فلسطين بخيراتهم وبركاتهم وجمال وجوههم!... والأمة إذا أرادت أن تغضب لكرامتها، وتعلن عن تعلقها بزعمائها، كانت شريرة مجرمة: يجب أن تهدم فوقها البيوت، ويحرم عليها التجول، وعليها أن تفتح صدورها للرصاص، وتطأطىء رؤوسها للقنابل، وتمدّ أعناقها للسلاح. والويل لمن يقول: لا... فهل يوجد في الدنيا مثل هذا العدل؟ وهل في العالم حكم أكثر صلاحيةً من هذا الحكم؟ وهل في الإنسانية أبر وأرحم من هؤلاء الأوصياء الرحماء الأمناء؟!... إذاً فعلام يثور عرب فلسطين، ولم يشهرون السلاح في وجه بريطانيا؟ لا بد من أن تكون هنالك يد أجنبية تحركهم وتدعوهم وتمدهم بالسلاح، هي يد إيطاليا التي ترمي إلى الاستيلاء على البحر الأبيض المتوسط؟!...

بمثل هذا تطالعنا الصحف الإنكليزية كل يوم، وبمثل هذا تريد أن تبرر فظائع حكومتها في فلسطين، وبمثل هذا تريد أن تضحك على عقول قرائها الذين لا يعلمون من حقيقة الأمر شيئاً. ثم هي تتبجح صباح مساء بأن قومها خدمة الإنسانية المعذّبة وأشد أنصار الحرية المضطهدة، ورافعو لواء الحضارة الراقية، يا هؤلاء: إن لم يكن بكم خجل من الناس فاخجلوا من أنفسكم...

من مصيبة فلسطين في العصر الحاضر أنها بليت بصنفين من الأعداء: اليهود مع خداعهم وثرائهم، والإنكليز مع قوتهم وإعلامهم، وهي من هذين في بلاء، أما الأولون فقد استطاعوا بما لديهم من مال أن يتغلبوا على ضعفاء الإيمان وصغار الهمم، وأما الآخرون فقد استطاعوا بما لديهم من قوة أن يبطشوا بالزعماء ويشتتوا شملهم. ويملؤوا السجون بالأحرار والمفكرين. ثم عمدوا أخيراً إلى أهم نقطة حساسة في حياة الأمة فألفوا

مجلسها الإسلامي الأعلى، وألفوا لجنة تحل محله يرأسها القاضي الإنكليزي المستر غرين، فكانت أشد ضربة أنزلوه بها، وأغرب تصرف ارتكبوه منذ احتلالهم فلسطين إلى يوم. وإننا لنتساءل كما تساءل الناس عموماً: إذا كان نفي الزعماء وسجن الأبرياء، وفرض الغرامات على البلاد الآمنة، وهدم المنازل بغير إرادة أهلها، وحجز الناس في البيوت ثلاثاً وعشرين ساعة متتالية، إذا كان كل هذا جائزاً في عرف الأقوياء بحجة المحافظة على الأمن وقطع دابر الإرهاب، فأي مبرر لوضع الأوقاف الإسلامية تحت تصرف غير المسلمين؟ وأي مجوّز لإقصاء المسلمين عن إدارة أوقافهم ومساجدهم كما يشاؤون، وأي قانون في الدنيا يجبر رجلاً على أن يخضع في شؤون دينه لآخر يختلف عنه ديناً وجنساً ولغة وتفكيراً، وأي مسلم في الدنيا يرضى بأن يكون المرجع الأعلى لقضاة المسلمين وعلمائهم وأئمتهم قاض إنكليزي لا تربطه بالملة أية صلة أو رابطة؟ في أي عصر نحن نعيش؟ أفي القرون الأولى، وما سمعنا أنه وقع فيها مثل هذا؟ أم في القرون الوسطى وكانت الأقليات فيها تتمتع تحت حكمنا الرحيم بحرية لا تتمتع بها الأكثرية في عصركم هذا الذي تسمونه عصر النور والحرية؟ ثم على أي حق تعتمد إنكلترا في هذا التصرف المسيء وهي إنما جاءت منتدبة على البلاد بشرط أن لا تمس عقائد أهلها وأوقافهم وحقوقهم، وأن لا يكون لها حق التدخل في أي شأن من شؤونهم الدينية؟ ولم لا تتسلط على أوقاف غير المسلمين فتجعلها خاضعة لأوامرها وتصرفاتها؟ شيء غريب جداً، وأغرب منه أن تزعم إنكلترا حين أقدمت على هذا العمل أنها إنما فعلته «لتكفل سير مصالح الطائفة الإسلامية» فكأن مصالح الطائفة الإسلامية لا تسير إلا إذا حيل بين المسلمين وبين النظر في شؤونهم وأقيم مكانهم جماعة من الإنكليز يصحبهم إمّعة لا شأن له في قليل ولا كثير؟ تلك هي والله إحدى عجائب السياسة الإنكليزية في ذلك البلد العربي المسلم المنكود..

نحن نعلم أن الإنكليز لم يقدموا على هذا العمل إلا تحت تأثير اليهود وضغطهم، فقد أدخل اليهود في عقول الإنكليز أن الحاج أمين الحسيني هو

المحرك الأول لشعور الأمة، وأنه يتخذ من أموال الأوقاف الإسلامية وسيلة لإشعال الثورة وتحرير البلاد مما أصابها، فإذا كفت يده عن إدارة شؤون الأوقاف استتب الأمن وانتظمت الأمور، فانصاع الإنكليز للنصيحة وكفوا يد الحاج أمين عن رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى وانتظروا هدوء البلاد. ولكن الأمور لم تهدأ بل ازدادت النار اشتعالاً، ولا تزال مشتعلة إلى اليوم. فهل رأى الإنكليز إلى أي حد يغرر بهم أصدقاؤهم اليهود؟ وهل يرى الإنكليز أن مصافاة بضعة ملايين ممن هبّ ودب أجدى عليهم نفعاً من اكتساب مودّة العرب والمسلمين في كافة أنحاء الدنيا؟ لقد لمس الإنكليز بأيديهم مبلغ التفاف المسلمين والعرب نحو مسلمي فلسطين يوم أذيع مشروع التقسيم، وكنا نظن يومئذ أن هذا التضامن الذي رآه الإنكليز بأعينهم بين شعوب الإسلام سيضطرهم إلى الاعتراف بحق العرب في فلسطين والعدول عن سياسة العنف والتنكيل بهم، ولكن الحوادث الأخيرة جعلتنا نعتقد اعتقاداً جازماً بأن اليهود لا يزالون مسيطرين على أدمغة الإنكليز كما يسيطرون على وزاراتهم ومجلسهم النيابي وماليتهم، ولا بد من يوم يتنبه فيه القوم لأنفسهم فيعلمون أية هاوية أرداهم اليهود فيها..

أما أنت يا فلسطين فالثبات الثبات على جهادك المشروع والصبر الصبر على ما تلقينه من عنت القوم وظلمهم، فإن للباطل جولة ثم يضمحل، وإن للحق صولة ثم يدوم، وإذا كانت معهم يا فلسطين قوة الأرض فإن معك قوة السماء، وإنهم ليحاربونك بسهام الباطل، وإنك لتعتصمين بقلعة الحق، وهيهات أن تتغلب قوة الأرض على قوة السماء أو تؤثر سهام الباطل في قلعة الحق. إنهم قتلوا من أبنائك كثيراً يا فلسطين، وخربوا من بيوتك كثيراً، وأذاقوك من العذاب ضروباً شتى، وإنما هي والله حشرجة الباطل، ومكابرة المغلوب، ومدافعة اليائس. فأبشري بالنصر، واهنئي بالفوز، وثقي بوعد الله ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأما أنتم أيها الإنكليز، فلئن اختلفنا معكم في كل شيء فلن نختلف

في شيء واحد وهو أن للدول آجالاً كآجال الأفراد، فإذا جاء الأجل لم تنفع الحيل، وسيبحث أبناؤكم غداً عن أسباب انحلال دولتهم وضياع هيبتهم، وسيقول أبناؤنا لأبنائكم يومئذ: تعالوا نخبركم السبب؛ إن آباءكم كانوا يلبسون مسوح الرهبان في حرب الحبشة، وينثرون دموع الصياد في حرب الصين[1] ولكنهم كانوا يكشرون عن أنياب الثعالب في مسألة فلسطين!..



(١) في بعض الكتب أن صائداً خرج للصيد فصاد بعض الطيور في شبكته واتفق أن ثارت عاصفة من الرياح فدمعت عينا الصائد فقال طائر في الشبكة لإخوانه، انظروا إلى الصياد كيف تدمع عيناه رحمة بنا، فقال كبيرهم: لا تنظروا إلى دموع عينيه ولكن انظروا إلى صنع يديه. ونحن نقول ما أشد انطباق هذه القصة على دول الاستعمار جميعاً.

أيها المسلمون
أنقذوا فلسطين قبل أن تبيد(1)

أبرز صفة في ساسة الغرب أنهم لا يعرفون للحق في السياسة معنى ولا يقيمون للعهود وزناً، فالحق عندهم هو ما تتطلبه مطامعهم، والباطل هو ما يتعارض مع تلك المطامع، والعهود إن كانت تجلب لهم نفعاً فهي عهود مقدسة لا يجوز إبطال شيء منها. وإن كانت تُلزمهم بشيء ويستطيعون نقضها فهي قصاصات ورق وكلام في كلام.

هذا هو الواقع حقاً في عهود ماكماهون باستقلال العرب، ووعد بلفور بإنشاء الوطن القومي لليهود، فالإنكليز تعهدوا للعرب - بواسطة ماكماهون - باستقلال بلادهم استقلالاً لا غش فيه، فخاض العرب معهم غمار الحرب بناء على هذه العهود، ثم وعدوا اليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين يوم كانوا في حاجة إلى ثروتهم وأساليبهم، وبدهي أن هذا الوعد الثاني باطل بلا ريب، لأن فلسطين ليست للإنكليز، وإنما هي لأهلها العرب، فشأنهم في وعدهم لليهود كشأن رجل وهب لآخر داراً لا يملكها.

إن إقرار الإنكليز لليهود بالوطن القومي في فلسطين بعد إقرارهم للعرب باستقلالهم فيها إقرار باطل، لأن من أقر لفلان بشيء ثم أقر به لآخر كان إقراره الثاني باطلاً لما فيه من إبطال حق غيره وهو لا يملكه، وعلى

(1) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٥٧٥ العام الثاني عشر ١٣٥٦هـ. بمناسبة ذكرى وعد بلفور.

كل حال فإعطاء الإنكليز ذلك الوعد لليهود كان باطلاً، والإنكليز لا يخفى ذلك عليهم، ولكن الغاية تبرر الوسيلة كما يقولون، فظلوا متمسكين بذلك الوعد رغم احتجاج العرب وإعلانهم لبطلانه. وهم في تمسّكهم به لا يفعلون ذلك إكراماً لعيون اليهود ـ كما هو المشاهد ـ المكروهون من جميع شعوب العالم. وإنما يتمسكون به لمصلحتهم الاستعمارية أولاً وآخراً. فمن الواجب أن يعدّوه كتاباً مقدساً يستندون إليه كلما طالبهم العرب باستقلالهم، ولما كان عهد العرب لا مصلحة للاستعمار فيه، بل هو قاض على تلك المصالح فقد أهمله الإنكليز وتجاهلوه أبعد تجاهل، وكان من نتيجة استمساكهم بذلك الوعد المشؤوم وتجاهلهم لعهود العرب الصريحة أن تدفقت جماهير اليهود إلى فلسطين من جميع أنحاء العالم، وأخذت تمتلك الأراضي شيئاً فشيئاً. وتلفّت العرب فإذا بهؤلاء المهاجرين يمتلكون أثمن الأراضي وأخصبها، وإذا بهم يبلغون من الكثرة عدداً مخيفاً ينذر بشر العواقب. فاحتجوا احتجاجاً سلمياً فلم يفدهم، وأرسلوا الوفود إلى لندن فلم تجدهم، وأعلنوا الإضراب العام في جميع نواحي البلاد فلم يتغير موقف الإنكليز منهم. بل رأوا أن الإنكليز عمدوا في ذلك الظرف العصيب إلى ما يزيد في نقمتهم وسخطهم فصرحوا لأربعة آلاف وخمسمائة عائلة يهودية بدخول فلسطين، فلم يجد العرب إزاء هذا التحدي المؤلم بداً من سلوك طريق آخر لعله يكون أجدى عليهم، فأطلقوا الرصاصة الأولى، واندلعت نار الثورة اندلاعاً هائلاً، وامتدت ستة شهور كاملة ألقت على الإنكليز دروساً من العبر كانت كافية لإرجاعهم إلى محجة الصواب لولا أن أدمغتهم تحتلها في هذه القضية عقلية اليهود وماليتهم، لا عقلية السكسون وفطنتهم!.

... وأخيراً اتضح لهم أن العهدين متناقضان بعد أن كانوا يزعمون أن لا تعارض بينهما، وأرادوا الخروج من ذلك المأزق الحرج بمهارة وحصافة. فماذا فعلوا؟ إنهم رأوا تقطيع أوصال فلسطين بجعلها ثلاث دول: دولة لليهود، ودولة للإنكليز، ودولة للعرب. أفهذا هو الحق؟ أهذا هو المنطق

المعقول؟ هل ثار العرب إلا كراهية أن تحتل هذه الشرذمة الدخيلة شبراً من أرض الوطن، فكيف يتصور أن يرضوا بقيام دولة لها تحتل أحسن البقاع وتختص بساحل فلسطين كله؟ أليس حلهم هذا لمشكلة فلسطين أشبه بطبيب رأى مريضاً يشكو وجعاً في رأسه فأشار بقطع يديه ورجليه؟ وإذا كنا نعد عمل هذا الطبيب تغفيلاً فماذا نعد عمل أولئك الحصفاء العقلاء؟!.

إن الأمر واضح جداً فليس لذلك الحل من تفسير إلا أنه تصميم نهائي للقضاء على آمال العرب باستقلالهم، وإفهامهم أن وجود اليهود في بلادهم أمر واقع لا مجال للبحث فيه، وأن حكمهم لها سيتم رغم أنوفهم، وأن على العرب أن ينتظروا النهاية المحزنة: إما أن يكونوا في بلادهم أقلية ذليلة مضطهدة، وإما أن يرحلوا إلى بلاد أخرى يسألون الناس ويستجدونهم!... ذلك هو التفسير الحقيقي لتقسيم فلسطين، وتلك هي النتائج العملية لذلك الحل العقيم. ولكن مشروع التقسيم قد حبط بفضل اتحاد العرب وحسن دعايتهم في الخارج لقضيتهم العادلة، فماذا يفعل الإنكليز؟ إن الحق والعدل يقرران أن عليهم الرضوخ لرأي الأكثرية الساحقة التي رفضت ذلك الحل، ولكن الأنفة والكبرياء ملأتا صدورهم حقداً على ما فعل العرب فبيتوا لهم الشر وتوثبوا لإنزال الأذى بهم. وعلى حين بغتة فوجىء الناس بمقتل حاكم الجليل ومرافقه البريطانيين. ومثل هذه الحادثة تقع في كل بلاد العالم فلا يكون موقف الحكومات منها إلا كموقفها من سائر جرائم القتل والاغتيال: تتعقب القاتلين وتتحرى أخبارهم، فإن نالتهم يدها أنزلت بهم العقاب الذي يستحقونه. هذا ما تفعله أية حكومة في الدنيا فكيف كان موقف الإنكليز من هذه الحادثة؟

لا أريد أن أطيل على القارىء الكريم، فحسبه ما أفاضت به الصحف من نفي الزعماء وحل الهيئات السياسية وتجريد المفتي الأكبر من رئاسته الدينية وزج قضاة الشرع وعلماء المسلمين في أعماق السجون، وحسبي أن أنقل هنا فقرة من كتاب ورد من فلسطيني لصديق له في القاهرة يبين له فيها شيئاً مما ينالهم من أذى وإعنات، يقول صاحب الكتاب: «أنك لا تتصور يا

أخي مبلغ الشدة التي تنفذ هنا، لا سيما إذا حدثت حادثة في جهة ما (واستشهد بحوادث اللد والظاهرية والخليل) ثم قال: فالناس يساقون إلى السجون بالعشرات دون أن يستطيع أحد المراجعة أو المجادلة أو المدافعة أو رفع صوته، فكأننا يا أخي نعيش لا في القرن العشرين ولا في القرون الوسطى في أوربا ولكن في قرون لا مثيل لها. إلخ». هذا ما فعله الإنكليز على أثر مقتل حاكم الجليل. ونحن نريد أن نسألهم: هل استبحتم إنزال هذه الفظائع بأهل فلسطين لأن حاكم الجليل قد قتل؟ إنكم بثثتم الأرصاد، وأتبعتم الكلاب بآثار القتلة وأعلنتم مكافأة كبيرة لمن يدلكم عليهم، فعجزتم بعد كل هذه التدابير عن الوصول إليهم، فما ذنب الزعماء والعلماء وأحرار الأمة تبعدون فريقاً وتسجنون آخرين؟ وما ذنب القرى الآمنة تسلطون عليها جنودكم وبلاءكم؟ أفهذا هو ما تقتضيه عدالتكم وحريتكم ومدنيتكم؟!

لقد سجل تاريخنا القديم أن أبا لؤلؤة الفارسي قتل عظيم الدنيا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فلم يكن منا إلا قتل القاتل. وسجل تاريخكم الحديث أن واحداً أو أربعة ـ قد يكونون من الأرمن وقد يكونون من اليهود ـ قتلوا موظفاً من موظفيكم أساء كثيراً إلى الأمة التي يقيم بين أظهرها، فكان منكم العجز عمن قتلوا ومعاقبة من تعلمون أنهم لم يقتلوا ولم يعلموا من هم الذين قتلوا، فعاقبتم الأمة كلها بجريرة جرم عجزتم أنتم عن منعه ثم عن معاقبة فاعليه، فياخجل القرن العشرين من زميله القرن السابع! ويا سوء ما تحكم به الإنسانية على حضارتكم وهذه هي كما نراها.

تغضبون أيها الإنكليز حين يثور عرب فلسطين على هذه الأعمال النكراء. فأية أمة فيها ذرة من الشهامة ترضى بالإهانة؟ أية أمة فيها بقية من الحياة ترضخ للاستكانة؟ وهل عجيب من أمة أنارت لكم قبس الحضارة يوم كنتم في ظلمات بعضها فوق بعض أن تثور دفاعاً عن الحمى المستباح والعزة المهيضة؟! تقول صحفكم لطمس الحقيقة الناصعة: إن حوادث فلسطين هي حوادث عصابات شريرة مجرمة تود إراقة الدماء ونهب الأموال. لا يا هؤلاء،

فما في مسلمي فلسطين أشرار ولا مجرمون، وإنما فيهم كل أبي وكل همام، إن من يطالب بحقه ويدافع عن كرامته ليس مجرماً، والذين يذودون عن بلادهم ويريدون استخلاصها من أيدي مغتصبيها سيسميهم التاريخ أبطالاً ومجاهدين. وأنتم سموا بما شئتم أولئك الذين يحاولون أن يبيدوا شعباً أبياً كريماً ليقيموا مكانه شعباً طريداً شريداً. سموا بما شئتم أولئك الذين يسفكون دماء الأبرياء، ويهدمون بيوت الآمنين ويسلبون أموال الناس بغير حق، ويمنعون المؤمنين من دخول أماكن العبادة، سموا بما شئتم أولئك الذين أعطوا عهدين متناقضين لشعبين متباينين فأسخطوا الطائفتين واستحقوا النقمتين: نقمة المسلمين في الدنيا، ونقمة الله في الآخرة!..

وتقولون حين يجابهكم الأمر الواقع: إن العرب لا يبعثهم على الثورة حب بلادهم وإنما هو المال المتدفق من جيوب الأجانب، وأنتم تعلمون أن المسلمين أشرف من أن يكونوا ألعوبة تحركهم الأيدي المغرضة كما تشاء. وليس في فلسطين يد تمتد إلى أجنبي فتسأله المعونة. وإنما في فلسطين أمة ثائرة لكرامتها التي امتهنت ولعزتها التي جرحت. إنما في فلسطين أمة ملأتم صدورها غيظاً بعدوانكم وطغيانكم، فاندفعت إلى الموت وهي تقول:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه   يُهدَّمْ ومن لا يظلم الناس يظلم

ألا إننا نصارحكم القول بأنا غدونا كافرين بمدنيتكم، جاحدين لحضارتكم، مؤمنين بتعسفكم وتعصبكم، وما هذه الأعمال التي أتيتم بها أخيراً في فلسطين إلا إقرار منكم بالعجز، واعتراف بتمرد البلاد على الظلم.

ثقوا أيها الإنكليز أن هذه الدماء المسلمة الزكية التي تقدمونها قرباناً للوطن القومي اليهودي ستكلفكم كثيراً، وكل ما تحاولونه من تبرير هذه الفظائع متظاهرين بالشفقة والعطف على شعب إسرائيل المضطهد من جميع شعوب العالم فهو مهتوك الستر واضح البطلان. فإن كان حقاً ما تتظاهرون به فأنزلوهم في جزيرة من جزركم، أو أقطعوهم مستعمرة من مستعمراتكم. أما أن تتبرعوا لهم بأرض لا تملكونها، ولهذه الأرض أصحاب يدافعون

عنها، ثم تريدون أن تكرهوهم على الرضا بذلك، فلن يتم لكم هذا حتى تسفك آخر قطرة من دماء أصحابها، وما أصحابها إلا هذه الملايين المنتشرة في دنيا المسلمين.

ألا إنها تجربة خطيرة هذه التي تُقدمون عليها وتظنون أنها من السهولة بمكان، وستعلمون حين يجدّ الجد وتأزف الساعة أن دون تحقيقها حزّ الرقاب وسكنى القبور.

أيها المسلمون،

لقد بلغكم من نبأ إخوانكم في فلسطين ما يثير الألم واللوعة في كل ذي ضمير حي، فهم اليوم يعانون آلام النفي والإرهاق، ويتحملون أنواع الأذى والعذاب. إنهم اليوم يضطهدون ويذبحون، إنهم تُيتّم أطفالهم وترمّل نساؤهم ويهان علماؤهم وقضاتهم، ويُشرّد زعماؤهم وعظماؤهم، وتجعل أوقافهم ومساجدهم تحت رحمة الإنكليز وتصرفهم، فماذا قدمتم لنصرتهم وإعانتهم؟ وماذا فعلتم لتخفيف النكبات المنصبة فوق رؤوسهم؟ اللهم لا شيء سوى صيحات قليلة لم تفد شيئاً. فأي حال هذا؟ أية أخوة هذه؟ أية قلوب هذه القلوب؟ ألا تغضبون وتتألمون؟ ألا تهتزون وتتحركون؟ ألا تُشعرون المعتدي بأنكم موجودون على قيد الحياة؟ إنها والله سبة الأجيال وفضيحة التاريخ!

إن هذه الفظائع التي تجري في فلسطين إنما يراد بها اختبار قوتكم ومبلغ تيقظكم، فالإهانة التي توجه إلى إخوانكم هناك موجهة إلى كل فرد منكم على وجه الأرض، فإن تمت هذه التجربة المؤلمة دون أن تتحركوا ودون أن تثبتوا لأعدائكم تيقظكم واتحادكم، كانت بداية لنكبات تتوالى على أمصاركم مصراً بعد مصر، ويومئذ تحل النكبة الكبرى وتكون الخاتمة المحزنة!

إنكم الآن على مفترق الطرق: فإما أن تقفوا موقف الرجولة من أعدائكم فترسلوها صرخة مدوية تزلزل أركان الظلم، وتعلنوها كلمة حازمة

لا رجعة فيها، بالعزم على مقاطعة بضائعهم وتجاراتهم، فيكون لكم عز الأبد وكرامة الأبد، وإما أن تغضوا على الذل، وتتجرعوا كأس الضيم، وتسلموا إخوانكم للذبح، فيكون لكم خزي الأبد وعار الأبد.

أيها المسلمون،

إن كارثة فلسطين هي كارثة الأندلس الثانية، ومصيبة الإسلام في عصره الحاضر، إنها مشهد من مشاهد الصراع بين الغرب والشرق، بين الباطل والحق، إنها صولة الباطل التي يريد أن يتحداكم ليخضعكم لسطوته: فالموت لمن يرضى، والحياة لمن يأبى، والسؤدد لمن يتمرد. ووالله ما بعد خذلان الحق إلا موت أهله، ولا بعد التخلي عن الذمار إلا وصمة العار. فأنتم في تخاذلكم بين أمرين أحلاهما مر.

أيها المسلمون،

إن فلسطين أمانة في أعناقكم فأنقذوها قبل أن تبيد!...



ماذا يُراد بالقضاء الشّرعي في سوريا؟[1]

نشر (الفتح) في الأسبوع الماضي نص الكتاب الذي وجهته جمعية الشبان المسلمين بدمشق إلى رئيس المجلس النيابي السوري احتجاجاً على تصديق المجلس للمرسوم الاشتراعي القاضي «بانتداب قضاة البداية والاستئناف والقضاة المدنيين للقيام بوظائف القضاة الشرعيين عند شغور وظائفهم بالإجازة أو الإحالة على التقاعد».

قرأت هذا مراراً وأنا لا أكاد أصدق بأن مثل ذلك المرسوم يصدر في عهد حكومة دستورية وضعت فيها الأمة كل ثقتها وعلقت عليها آمالها وأمانيها.

وقبل أن أتكلم عن هذا المرسوم أرجع بالقارىء الكريم إلى بضع سنوات خلت، فقد أصدرت بعض الحكومات السورية في العهود المظلمة البغيضة قراراً يقضي بأن ينوب قضاة الصلح في القرى والأقضية عن القضاة الشرعيين في الفصل فيما يعرض عليهم من المسائل المختصة بالمحاكم الشرعية، وكان من نتيجة هذا القرار الآثم أن نقص عدد القضاة الشرعيين في البلاد السورية كلها إلى بضعة عشر قاضياً فقط، وأسند الفصل في المسائل الشرعية في القرى والأقضية إلى قضاة لا معرفة لهم بالشرع وأحكامه، بل كثيراً ما اتفق أن تولى هذه المهمة قضاة غير مسلمين...

ولما كانت الأمة في ذلك العهد تكافح في سبيل القضية الكبرى وهي

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٥٧٦ العام الثاني عشر ١٣٥٦هـ.

استقلال البلاد، وكانت الحريات فيه مضطهدة إلى أقصى حد فقد تلقت ذلك القرار بألم دفين، وانتظرت أن تفوز في قضيتها الكبرى لتوجه عنايتها إلى الدوائر الدينية فتصلح فاسدها وتدخل عليها النظم التي تكفل لها حرمتها وبقاءها. وشاء الله أن ينتهي كفاح سوريا السلبي بمعاهدة وقع عليها ممثلو سوريا وفرنسا ورضيتها سوريا بعيوبها رجاء أن تتولى شؤونها حكومة دستورية تحت إشراف «الكتلة الوطنية» التي انتهت إليها ثقة الأغلبية العظمى من جمهور الأمة. وتسلم رجال الكتلة الحكم فتقدمت إليهم الأمة بمطالب منها جعل التعليم الديني إجبارياً في جميع أدوار التعليم وإصلاح الأوقاف الإسلامية وإنشاء كلية دينية يتخرج منها القضاة والمفتون، وإصلاح القضاء الشرعي إصلاحاً يتفق مع مكانته في نفوس الأمة، فأجابت الحكومة الوطنية على هذه المطالب بالوعود المعسولة والخطب المملوءة بالغيرة على الدين وأهله، ورغماً عن تباطئها في إنجاز وعودها فقد حمدنا لها ما تتظاهر به من غيرة على الدين والأخلاق، واعتذرنا عن تباطئها في تحقيق مطالب الأمة بأنها مشغولة بالمسائل السياسية الخطيرة التي واجهتها في عهدها الجديد..

وفجأة تطالعنا الحكومة بالمرسوم الذي أشرنا إليه في صدر المقالة وتطلب من المجلس النيابي التصديق عليه، فلا يتصدى للاعتراض على هذا العدوان على دين الأمة إلا نفر قليل لم يكن لهم من التأثير ما يقف دون تصديق المجلس عليه. وسواء أصح ما بلغنا من أنه قد كانت هنالك مساع مدبرة للموافقة عليه أو لم يصح فإن تصديق المجلس عليه بمثل هذه السرعة يعد حدثاً خطيراً في تاريخ الحياة النيابية في البلاد السورية.

ما معنى هذا المرسوم؟ إنه لا ريب سيؤدي إلى إقلال عدد القضاة الشرعيين تدريجياً حتى يأتي على البلاد يوم لا يوجد فيه قاض شرعي واحد، ويكون الفصل في القضايا الشخصية للمسلمين عائداً إلى قضاة البداية والاستئناف والتمييز، وهؤلاء أكثرهم أو كلهم ليس لهم من المعرفة بالفقه الإسلامي ما يؤهلهم لذلك المنصب الخطير.

يقول النائب العجلاني مدافعاً عن وجهة نظر الحكومة: «إن القاضي المجاز من معهد الحقوق خبير في الأمور الفقهية الدينية» فهل هذا صحيح؟ إن مجازي الحقوق أنفسهم قد اعترفوا بأن ما خصص لدراسة الفقه الإسلامي في معهد الحقوق من الساعات القليلة ليس من شأنه أبداً أن يجعل لهم الخبرة في بسائط الفقه فضلاً عن دقائقه، ولو سلمنا بما يقوله النائب فهل يجرؤ على الدعوى بأن كل القضاة المدنيين مجازون من معهد الحقوق بدمشق؟ أليس منهم من هو مجاز من معهد حقوقي أجنبي فمن أين له الخبرة بالفقه الإسلامي؟ ولنفرض أن جميع القضاة مجازون من معهد الحقوق بدمشق فهل هم جميعاً مسلمون؟ أفلا يجوز أن منهم المسلم، ومنهم المسيحي واليهودي، فكيف رضي بهذا رجال الحكومة الوطنية وهم على رأس أمة تدين الأكثرية منها بدين الإسلام، ومن أول مبادىء الإسلام أنه لا يجوز للمسلم أن يخضع لغير المسلم في أي شأن من شؤونه الدينية؟ وَلِمَ تكون لبقية الطوائف القليلة العدد محاكمها المذهبية حرة طليقة لا يتولى الحكم فيها إلا أبناؤها وتكون محاكم الأكثرية الساحقة في البلاد موزعة بين أهل الأديان جميعاً؟!

نحن لا نريد أن نذهب مذهب الذين يسيئون الظن بهذه البادرة السيئة بل لا نزال نعتقد أن الحكومة الوطنية لن تفكر في يوم من الأيام بالعدوان على أقدس شيء تقدسه الأمة التي أجلستها على منصة الحكم وسلمت إليها زمام أمورها ولولا علمنا بأن في هذا المشروع قضاء على حكومة الشرع وحرمته، ولولا حرصنا على أن لا يؤوّل هذا العمل بأنه أمارة على ميل بعض رجال الحكم في سوريا إلى الاقتداء ببعض رجال الحكم في الأمم المجاورة الذين تنكروا للإسلام أبشع تنكر، لولا كل هذا لما حركنا فيه ساكناً ولا سطرنا حرفاً. والله ليعز علينا والله أن نتوجه بهذا العتاب إلى حكومتنا الحاضرة بعد أن كنا ولا نزال من أشد المؤيدين لها في سياستها الوطنية، وبعد أن كنا نرى كل معارضة لها ـ والبلاد تجتاز هذا الدور الدقيق ـ جريمة وطنية لا تغتفر، ولكن ما الحيلة وهي التي دفعتنا إلى هذا العتاب

دفعاً بهذا المشروع الذي غمر الأمة بموجة شديدة من الاستياء حتى انهالت عليها الاحتجاجات من كل جانب، ونعتقد بأنها ترى معنا أنه ليس من مصلحتها هي ولا من مصلحة البلاد في هذا الظرف الحرج أن تستثير نقمة الأمة في أمر لا مبرر لإقدامها عليه أبداً وأن الوقت لا يزال متسعاً للعدول عن المشروع الذي أبرمه المجلس فتبرهن على احترامها للدين وعدم عزمها على المساس بكرامته وذلك والله خير لها وللأمة التي تمثلها وللبلاد التي تعاني الآلام المبرحة من مشكلاتها الداخلية.

يا نواب الأمة، إن الأمة لم ترفعكم إلى مقاعد النيابة إلا ثقة منها بأنكم تعبرون عن رغباتها أتم تعبير، وتكونون خير واسطة لتحقيق ما ترجوه من نهضة وإصلاح، وإنكم لتعلمون حق العلم أن أعز شيء تفتديه الأمة بأرواحها هو دينها الذي تعتصم به، فاذكروا هذا عند كل مشروع تريدون التصديق عليه، وإنا لنربأ بكم عن أن تسيئوا استعمال ثقة الأمة فتضعوها في غير مواضعها، فإن حكمها سيكون شديداً وسيكون حكم التاريخ أشد وأقسى!...

تلك هي الكلمة في هذا الموضوع ونرجو أن لا نتبعها ثانية!..



رمضان يحاضر (١)

ما رأيت قادماً ولا زائراً حفل به الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم كضيفنا العظيم رمضان، فلقد شهدت عظماء كثيرين يَقْدمون بلداً من بلاد الله: فمنهم من تحتفل بهم الحكومات فقط، ومنهم من تحتفل بهم طوائف من الشعب مع حكومتهم، ومنهم من يقدمون ويرحلون فلا يشعر بهم إلا قليل. ولكني رأيت رمضان غير هؤلاء كلهم. فما كادت الأنباء تشير إلى قرب قدومه حتى أخذ الناس يتناقلونها ببشاشة وسرور، ويستعدون لاستقباله أتم استعداد وأكمله، ويتسابقون إلى إظهار شعورهم نحوه بتهيئة كل وسائل التكريم من طعام وشراب وزينة، وظلوا يرقبون قدومه بشوق ولهفة، ويختلفون فيه متى يكون؟ فمن قائل أنه الخميس ومن قائل أنه الجمعة، وغربت شمس الأربعاء وهم يتطلعون إلى من يزف إليهم البشرى، حتى إذا كانت الساعة السابعة ليلاً سمعوا دوي المدافع، ورأوا إنارة المآذن، فأيقنوا بقدوم الضيف الكريم، ورددوا هذا الكلمة فرحين «جاء رمضان العظيم» ولقد كان الأطفال أسبق من الرجال إلى إظهار فرحهم به، فما سمعوا بمقدمه حتى انتظموا صفوفاً متعددة يحملون مصابيحهم الصغيرة وينشدون أناشيدهم التي نظموها لاستقبال الضيف الكبير، ومن عجيب أمر هذا الزائر الكريم أنه يزور كل بيت، ويصافح كل فرد، ويستمع إلى كل

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٥٧٧ العام الثاني عشر ١٣٥٦هـ.

متكلم، فما عهد الناس زائراً مثله في لطفه وتواضعه وتودده لكل كبير وصغير.

وبعد أن طاف رمضان في أندية الناس ومجتمعاتهم وعرف كل شيء عنهم رأى أن يتحدث إليهم؛ فأعلن عن عزمه على إلقاء محاضرة يشكر لهم فيها حسن استقبالهم له ويبين لهم الأغراض التي يرمي إليها من وراء هذه الزيارة وما لاحظه عليهم مدة إقامته بينهم، فسرعان ما تراكض الناس إلى «نادي رمضان» لسماع المحاضرة، ولم تمض دقائق قليلة حتى غص النادي بالآلاف المؤلفة من خيرة رجالات الأمة، ولم يبق فيه متسع لقدم، فاضطرت الجماهير الغفيرة التي لم تجد لها مكاناً إلى الرجوع من حيث أتت على أن تقرأ محاضرته في الصحف، وأقبل الشيخ في الساعة التي حددها لإلقاء محاضرته، فاستقبله الحاضرون بالهتاف والتحية، وما زال يمشي وئيداً يشق الصفوف المتراصة حتى اعتلى منصة الخطابة، تزين وجهه لحية مستديرة، وتعلو رأسه عمامة بيضاء، وتحيط به هالة من النور، وتكسوه حلة زاهية من الهيبة والوقار، وكنت ممن أسعدهم الحظ بالسبق إلى النادي واحتلال مقعد من مقاعده الأمامية، فأرهفت السمع لكل ما يقول، وأخذت أدوّن محاضرته القيمة لأحملها إلى قراء الفتح.

قال رمضان بصوت هادىء متّزن، بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على خيرته من خلقه محمد وآله وصحبه: «يا أبنائي، إني أشكركم كثيراً على ما تجشمتموه من المشاق في استقبالكم لي، واستماعكم إلى محاضرتي، وعلى ما أظهرتموه نحوي من عواطف فياضة بالحب والولاء. فلقد أثبتم اليوم لأعدائي وأعدائكم أني لا أزال في موضع الحرمة من نفوسكم، والتقديس من قلوبكم، وما هذه الوجوه المشرقة إلا وجوه أمة محبة وفية، ولا هذه الهتافات العالية إلا هتافات قلوب مؤمنة مخلصة. اليوم أثبتم لأعدائي أني حين أزوركم إنما أزوركم مكرماً مبجلاً لا مكروهاً مستثقلاً (هتافات حارة: مرحباً بالضيف المحبوب، مرحباً بالشيخ الصالح).

يا أبنائي، إنكم تحبونني وأنا أحبكم، وما أحرى المحب بإبداء النصح لمن يحب، وإلا فلا حب ولا وفاء، فاستمعوا إليَّ أحدثكم حديث أب ناصح خبر الأيام وعركها، وصارع الدهر وناضله، واحرصوا على نقل حديثي هذا لإخوانكم، وإذاعته بين أمتكم، فإن من ورائكم أقواماً شردوا شرود البعير في مفازة قاحلة، لا يعوزهم إلا نصح الناصحين برفق وأناة.

لقد رأيت يا أبنائي أنكم تستعدون لاستقبالي بالتزوّد من المآكل والحلوى، ورأيت منكم من يصوم عن المفطّر من الطعام ولا يصوم عن الهجر من الكلام، ورأيت منكم من يصوم حتى إذا حان وقت الإفطار انقض على الطعام كما ينقض المفترس الجائع على فريسته لا يبالي في أي نواحيها أهوى، ورأيت من لا يرى في الصيام ولا الصلاة فائدة فيأكل في النهار وهو يقول: ما هو الصيام يأتينا به رمضان؟ أنجوع وتحت أيدينا الطعام؟ ونعطش وفي بيوتنا الشراب؟ أنصلي على الأرض ونحن نلبس الحرير، ونقوم في الأسحار ونحن دافئون في الأسرّة، إنْ هذه إلا خرافات، وما نحن للخرافات بمذعنين!.. فما معنى كل هذا يا أبنائي؟ أحسبتموني جائعاً فاستقبلتموني بالزاد؟ أم ظننتموني نهماً فأكثرتم لي منه؟ أفحسبتم الصيام غرامة تفرض عليكم فأطلقتم ألسنتكم بالسباب مختارين، حيث منعتم عن الصيام مرغمين؟ أفحسبتم الصيام سجناً لكم، حتى إذا انطلقتم منه أخذتم في تعويض ما فاتكم من طعام الصباح وطعام الغداء؟ أفظننتم الصيام امتناعاً عن الأكل والشرب فلا ثمرة له إلا الجوع والعطش؟ كلا يا أبنائي، إن الحياة كفاح ونضال، فلا يفوز فيها إلا الذين راضوا أنفسهم على احتمال المكاره، وأرغموها على ملاقاة الشدائد، حتى يكون فيهم الصبر على اللأواء خلقاً راسخاً وصفة ثابتة، وليس أبعث على إنشاء فضيلة الصبر في الإنسان ولا أكبح لنفسه من أن يمتنع عن الطعام والشراب وملاذ الحياة مدة من الزمن طائعاً مختاراً لا يحوّله عن ذلك إلا موت أو مرض.

إنكم يا أبنائي تعيشون في عصر أصبحت الحرب فيه مادة من مواد الحياة. وإنكم لترون دول العالم كيف تتسلح لتحرز النصر وكيف تقوم

جيوشها بتمرينات واسعة في بلادها لتتقن الدفاع والهجوم في إبان الحرب، ولكن الإسلام سبقهم قبل أربعة عشر قرناً إلى ما هو أهم من هذا وأنفع، إن الإسلام فرض على المسلمين أن يعدّوا ما يستطيعونه من قوة وعتاد، فهذا هو إنشاء الجيوش والأساطيل، وفرض عليهم فوق ذلك صيام شهر في كل عام، فكان هذا بمثابة تمرين للأمة جميعها ـ لا الجيش خاصة ـ على مقاومة الجوع والظمأ ومغالبة النفس، فأي السبيلين أضمن لنصرة الأمة: أن تعلم الجيوش أفانين الحرب ويُترك تحصين الأمة بفضيلة الصبر والمقاومة، أم أن يُمرن الجيش على الحرب والأمة على الصبر فإن هزم الجيش قاومت الأمة؟».

وهنا قال أحد الحاضرين: «أية صلة بين الصوم والمقاومة؟ ونحن نرى الأمم التي لا تدين بالصوم تقاوم أعداءها وتدافع عن حوزتها؟».

فابتسم الشيخ وقال: «أجل يا بني، كل أمة تستطيع المقاومة، ولكن شتان ما بين مقاومة أمة تمرّنت على تحمل المكاره وشظف العيش، والاصطبار على السغب وآلامه، وبين مقاومة أمة مترفة غارقة في شهواتها لا تصد لها رغبة ولا أمنية! أفلا ترى إلى سكان الصحراء كيف هم أقدر على مقاومة الحرب ومقارعة الأبطال من سكان المدن والعمران؟ أليس ذلك لأنهم تحملوا من خشونة الحياة ومتاعبها ما لم يتحمله الآخرون؟ فالصيام كما رأيتم قوة خلقية تمنع عدوى الضعف من أن تسري إلى مجموع الأمة، وتحول دون انحلال الرجولة في أفرادها. وفي الصيام أيضاً ميزة تعود على الإنسانية بأحسن الثمرات وأطيبها. ذلك أنكم تجدون كثيرين من الأغنياء قد نضب من أفئدتهم ماء الرحمة حتى لكأنها قُدّت من حجر، فلا تهتز لمصاب الأمة ولا تتألم، فهم يصرفون وجوههم عن مناظر البؤس والفاقة في أمتهم، وينغمسون في لجة من البذخ والترف، وما ذلك إلا لبعد عهدهم عن آلام الطوى ومرارة المسغبة، فلا علاج لمثل هذه النفوس إلا أن تقدع[1] بالصوم لتعلم أي ألم يحس به الجائع، وأية حيرة يقع فيها، فتبادر إلى تخفيف

---

(١) تقدع: ترتدع.

لوعته وتجفيف دمعته. وكم من الناس لا يحسون بعظم النكبة حتى تصيبهم شظاياها!

ليس الصيام يا أبنائي جوعاً ولا عطشاً ولا عذاباً كما يزعم الجاهلون. ولكن هو صقل لجوهر النفس، وتقوية لمعدن الخير فيها، وإقالة لعثرات البؤساء في شهر واحد بما ينسيهم نكد الحياة في أحد عشر شهراً. ثم هو يا أبنائي مُظهر لما تنطوي عليه النفس البشرية من خضوع لله، وذلة لجلاله، فلقد تذهل النفوس عن واجبها نحو عظمة الله حين تروى وتشبع، ولكنها لا مفر لها من تذكر الله والإقرار بالحاجة إليه حين تجوع وتعطش، ومن ثم كان شهري أحفل الشهور بالطاعة وأغناها بالعبادة وأحبها إلى عباد الله الصالحين، وناهيكم بما هيأته لكم من أوقات تتذوقون فيها لذة الطاعة والعبادة، فقليل منكم الذين يكون لهم شرف اليقظة عند انبثاق النور لأداء صلاة الفجر في غير شهري، ولكن أكثركم يستيقظون لطعام السحور ما دمت بينكم، أفظننتم أنما كان السحور لتأكلوا وتشربوا فقط؟ كلا يا أبنائي. إنما كان لتشهدوا مع الأكل والشرب منظراً من أروع المناظر، فهنالك في ظلمة الليل الرهيب، وفي هدوء الكون وسكونه، وفي هجعة الناس وغفلتهم؛ هنالك تشاهدون عظمة الله متجلية واضحة[1]. هنالك تستشعرون الخضوع لعزته في تواضع ورهبة، هنالك تسمعون اسم الله يشق أجواز الفضاء، وتكبيره يهز الكائنات، واسم رسوله يتعالى في الآفاق. هنالك يُنادى المؤمنون إلى الصلاة والفلاح، إلى السعادة والهداية، وياما أحلاها، تلك الكلمة التي يرددها الداعي بصوته الملائكي الجميل «الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم» فأي قلب لا يخشع لذلك المنظر مهما قسا؟

---

(١) الفتح - حج طاووس بن كيسان (من سادة التابعين في اليمن) فخرج على القافلة التي هو فيها أسد أزعجها طول الليل فلم ينم من أهلها أحد. فلما زال عنهم الخطر ساعة الفجر ناموا كلهم وقام طاووس يصلي ويتهجد. فقيل له لقد بت الليلة متعباًفهلا تنام؟ فقال: هذه ساعة ما كنت أحسب أن أحداً ينام عنها ولو أوتي بها مثل جبل أبي قبيس ذهباً.

وأية نفس لا تستجيب لهذا النداء مهما جمحت؟ وأية عاطفة لا تلين بطاعة الله مهما غلظت؟. صدق والله الداعي. إن الصلاة خير من النوم. الصلاة في تلك الساعة - التي يهدأ فيها ظلم الإنسان، وفجور الشهوة، وطغيان القوة، وجمود الكافرين - خير من الغفلة والنوم، والصلاة في تلك الساعة التي يخاطب فيها رب العزة عباده «ألا من مستغفر فأغفر له؟ ألا من تائب فأتوب عليه؟ ألا من مسترزق فأرزقه؟» ليست خيراً من الرقاد والهجوع فحسب وإنما هي والله خير من الدنيا وما فيها!».

ثم رفع رمضان صوته وقال: «إذا كان ذلك يا أبنائي هو سرّ الصيام فكيف تنكرونه، وإذا كانت تلك هي لذة الطاعة فكيف تهجرونها؟ وهل يليق بالعاقل وقد قامت سوق الربح والغنائم أن يرجع بالخيبة ويؤوب بالفشل والخسران؟ آه ما أكثر الغفلة، وما أقسى القلوب، وما أحط الهمم؟. وايم الله لو أن الناس يعلمون على من يقدمون، وبأية صفة يحاسبون؛ لتجافت جنوبهم عن المضاجع ولعافت نفوسهم ارتكاب المنكر، ولملأوا الدنيا رحمة وسماحة وخيراً ولكن أكثرهم في غفلة ساهون».

وما كاد شيخنا رمضان يبلغ هذا حتى أجهش بالبكاء ففاضت أعين القوم بالدمع وتصعدت من نفوسهم الحسرات؛ حتى إن كان الطفل لتأخذه خشية الموقف فيندفع في البكاء تأثراً مما يرى، ومضت على ذلك برهة لم تكن تسمع فيها إلا زفرة وعويلاً.



رمضان يحاضر (٢)[1]

ثم رفع رمضان رأسه وقال: إيه يا أبنائي، إن في نفسي أحاديث أفتملون إن أفضيت إليكم بها؟ فارتفعت الأصوات من كل جنب: «لا، لا. إننا في شوق إلى أمثال هذه الأحاديث». قال: إني سائلكم فليجبني أحدكم: كم عدد المسلمين اليوم؟ قال أحدهم: أربعمائة مليون يزيدون قليلاً أو ينقصون. قال: فكم عدد الجيوش فيهم؟ قال: ليست لهم جيوش بالمعنى الذي تعرفه. قال: فكم عدد أساطيلهم وطائراتهم ومدافعهم؟ قال: ليست لهم أساطيل ولا مدافع ولا طائرات. قال: فهل هم مستقلون مع كثرتهم؟ قال: لا. قال: لِمَ وقد كان آباؤهم يملكون الدنيا مع قلتهم؟ قال: عندك الخبر ولا ينبئك مثل خبير. قال: اسمعوا يا أبنائي.. زرت أسلافكم للمرة الأولى[2] فرأيتهم قليلين دؤوبين على العبادة متحابين فيما بينهم، فما هي إلا أيام من إقامتي فيهم حتى رأيتهم يستعدون لقتال قريش قرب بدر ثم ما لبثوا أن انقضوا عليها يقتلون أبطالها ويأسرون أشرافها ويغنمون أموالها، وكانوا يومئذ ثلاثمائة، وكانت عدة جيش قريش ألفاً. ثم زرتهم للمرة الثانية فرأيتهم قد أجلوا اليهود أعداء الله عن المدينة، ثم أخذوا في التكاثر والغلبة حتى رأيتهم بعد عشرين سنة وقد دانت لهم جزيرة العرب ومصر والشام وبلاد

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٥٧٨ العام الثاني عشر ١٣٥٦هـ.

(٢) كان فرض الصيام في السنة الثانية من الهجرة وفيها وقعت غزوة بدر الكبرى.

فارس كلها، ينشرون آيات الهدى ويسوسون أهلها بالحق والعدل، إن عشرين سنة في تاريخ الشعوب كعشرين دقيقة في تاريخ الأفراد، وماذا تفعل عشرون دقيقة في تأييد رأي وإبطال آخر؟ ولكنها قد فعلت في تاريخ المسلمين ما يعد معجزة من معجزات التاريخ، أفكان أولئك المسلمون من طينة غير طينة البشر حتى استطاعوا أن يأتوا بالخوارق ويفعلوا المستحيل؟ إنهم لم يكونوا إلا ناساً كسائر الناس، ولكنهم كانوا يملكون شيئاً لا يملكه غيرهم في ذلك العصر ولا تملكونه أنتم في عصركم هذا. أفتدرون ما هو؟ إنهم كانوا يملكون تقوى الله حق تقاته، بها سادوا وملكوا وسعدوا، وبفقدها ذللتم وشقيتم واستعبدتم!.

لا تستعجلوا عليّ بالسؤال وتقولوا: ألسنا نصلي ونصوم ونعبد الله كما كانوا يعبدونه؟ فوربكم إن بينكم وبين تقوى الله حق تقاته بعد ما بين المشرق والمغرب، ولو كنتم على شيء منها لكنتم على شيء من العزة والرفعة والسعادة.

أين التقوى فيكم؟ أهي في مساجدكم المملوءة بالبدع والمنكرات؟ أم في أسواقكم الغاصة بالربا والمنهيات؟ أم في مدنكم المكتظة بالملاهي والحانات؟ أم في بيوتكم المشحونة بالخرافات والمحرمات؟ أم في قلوبكم المترعة بالأهواء والشهوات؟!.

أين الأتقياء فيكم؟ أعلماؤكم الذين ركنوا إلى الدنيا ومالؤوا أهلها؟ أم قادتكم الذين أهمّتهم شهوات أنفسهم وعلو جاههم فلم يبالوا بشقاء أمتهم؟ أم أغنياؤكم الذين جادوا بأموالهم للسفه والشهوة والمتعة، وقبضوها عن العلم والبر وما به تقوى الأمة؟ أم حكامكم الذين حادوا عن سنن العدل، وكان صاحب الحق عندهم من كثر ماله وعظمت منزلته لا من قوي برهانه ووضحت حجته؟ أم في شبابكم الذين استهوتهم مفاسد الغرب فاندفعوا في الإباحية المخزية حتى غدوا لا كالرجال في شهامتهم وشجاعتهم، ولا كالنساء في حيائهن وعفتهن، بل جنساً ثالثاً تحار في تعريفه وتسميته!.. أم

نساؤكم اللائي خلعن برقع الحياء فزاحمن الرجال في مجتمعاتهم وأسواقهم بأشكال مضحكة لما فيها من غرائب التقليد، ومؤسفة لما فيها من الفتنة والإغراء؟ أم تجاركم الذين أصبحوا كأغنياء اليهود: لا يعرفون حلالاً ولا حراماً، إنما همّهم جمع المال من أي طريق كان ومهما جمعوا منه لا يجدون البركة فيه؟ أم جماهيركم الذين تقاطعوا وتنابذوا وانصرف كل فريق منهم عن نصرة الفريق الآخر مهما اشتد به الكرب والضيق؟ إن فلسطين تعاني منذ أمد طويل من فظائع الأقوياء وغدر الجبناء ما تنوء بحمله أقوى الأمم، فما فعلتموه لنصرتها؟ وسوريا اجتاحتها السيول على غفلة فأماتت أكثر من ألفي نفس وتركت خمسين ألفاً بلا مأوى فهل أعانها في نكبتها إلا قليل؟ والمغرب الأقصى تسيل في جنباته دماء الأبرياء من أبنائه ظلماً وعدواناً، فهل أظهرتم من ذلك ألمكم؟ والمسلمون في أمصار أخرى يضجون من عدوان المستعمرين على دينهم وتعطيلهم لأحكامه في الزواج والطلاق، فهل غضبتم لذلك أم علم بذلك منكم إلا نفر ضئيل؟

هذا هو تقاطعكم وتلك هي تقواكم، أفتقولون بعد هذا أنكم على تقى وطاعة؟ إن تقوى الله حق تقاته أن تأخذوا بكل ما جاء به الإسلام، أما أن تفعلوا شيئاً وتدعوا أشياء فذلك هو الإثم واللعب والاستهزاء!.

إيه يا أبنائي! كثيراً ما أسمع خطباءكم وأدباءكم يتغنون بمحامد دينكم ومفاخر أسلافكم فتطربون وتفرحون، وتعجبون كيف لا تبصر الأمم محاسن دينكم وكيف لا تحترمكم وأنتم أولو مجد أثيل وعز باذخ؟ أأنتم تجهلون أم تتجاهلون؟ إن المقياس الذي تقاس به الأمم في عصركم هذا مقياس عمل مادي لا نظري معنوي، فالنظريات والقوانين الصالحة لا يفوز أهلها باحترام الأمم إلا بعد أن يبرزوها إلى حيز الوجود فيراها القاصي والداني معمولاً بها بين أهلها، أما إن كانت محبوسة في الكتب أو كان أهلها يعملون بخلافها فلن تغنيهم شيئاً، ولن تفيدهم إلا الازدراء بهم والاستخفاف بعقولهم. فتغنيكم بمحامد شريعتكم وعظمة مدنيتكم لا يفيدكم شيئاً ما دمتم تهجرون

تلك المحامد وتقطعون الصلة بينكم وبين مدنيتكم الخالدة. . كونوا عمليين لا قوّالين، وإياكم أن تؤملوا من الأمم إنصافكم وتقدير دينكم ما دمتم على ضعة وتخاذل وتواكل، وإن لكم في تاريخ الأمم المعاصرة شاهد صدق على ما أقول. .

إن ألمانيا خرجت من الحرب العالمية مهزولة مهشمة فتألبت عليها الأمم الغالبة تحد من حريتها، وتحول بينها وبين قوتها حتى جعلوا لسلاحها حداً لا يجوز لها أن تتجاوزه، فماذا فعل الغيورون من أبنائها؟ إنهم لم يحتجوا لأن القوة الغاشمة صماء عمياء لا تسمع ولا تبصر، ولكنهم رأوا أن يعملوا وأن يحتكموا إلى القوة وهي الحكم الفصل. فأخذوا في العمل بخفاء وحذر حتى برزوا للميدان أقوياء وكشفوا القناع عن وجوه تتحفز للانتقام، فإذا وجوم وسكون واحترام!. . احتلوا الرين فسكتت فرنسا على مضض ونقضوا معاهدة فرساي فأصيبت الدول الموقعة عليها بالخرس. وطالبوا بمستعمراتهم فقوبلوا بالتسكين والاسترضاء، وها قد سمعتم زعيمهم بالأمس يقول لهم: «إن مستعمراتنا ستعود إلينا بعد ست سنوات!. .» لا تعجبوا يا أبنائي فإنها القوة تفعل الأعاجيب!. .

وإيطاليا أما سمعتم خبرها يوم صممت على استعمار الحبشة؟ والأقوياء في وجهها يضجون ويصخبون، ثم أجمعوا على أنها معتدية ثم أعلنوا عليها حرباً اقتصادية، فما التفتت إليهم بل مشت في طريقها لا تعتمد إلا على القوة، حتى تم لها السيطرة على الحبشة وتحطيم سيادتها، وسرعان ما اعترفت بعض الدول بقانونية تلك السيطرة الاستعمارية، ولا يزال بعضهم الآخر يؤمل ثمناً لتصريحه بالاعتراف!. .

واليابان رأت من تضعضع الصين واتساع رقعتها ما يغريها باستعمارها فجردت عليها الجيوش والأساطيل وشنت عليها غارة لا تعرف الشفقة ولا الرحمة، وما زالت تكتسح البلدان وتفتك بالأطفال والنساء والشيوخ حتى اليوم. أما الدول القوية فإنها تؤلف اللجان وتعقد المؤتمرات لترى هل

اليابان معتدية أم لا؟ أفرأيتم مثل هذه البرودة القاتلة؟ أفرأيتم كيف تنهزم الحجة أمام القوة، وينتصر الباطل المسلح على الحق الأعزل؟! أفتذكرون كيف اعتدى اليابان على سفير الإنكليز وحاولوا قتله فلم يكن من الإنكليز إلا الاحتجاج والاستنكار، وكيف اعتدى مجهولون على أحد الحكام الإنكليز في فلسطين فأبعدوا وعذّبوا ونُكّل بهم. فلماذا سكت الإنكليز في الأولى وغضبوا في الثانية؟ إنها القوة التي أسكتت، والضعف الذي أنطق، فالويل للضعيف والموت لمن يُغلب!.

يا أبنائي، إن الإسلام لم يكن ظالماً يوم شرع الجهاد، ولا معتدياً يوم أمر بأخذ الحذر وإعداد القوة، وما ترى هؤلاء الذين يشنعون على الإسلام تحذيره وإيقاظه إلا أنهم قد ألقموا حجراً بما يرون اليوم وما يسمعون!..

إن فيكم نفراً يسمون أنفسهم «أنصار السلم» وقد أخذوا على عاتقهم تنفيركم من الحرب وتسميم أفكاركم بالسلم رغماً عما أنتم فيه من ضعف وهوان، فقولوا لهؤلاء إما أن تكونوا مغفلين أو مدسوسين ولا ثالث لهما...

القوة يا أبنائي!. العمل يا أبنائي!. اليقظة يا أبنائي! قبل أن تنفجر القنبلة الكبرى فتكونوا أول ضحاياها!... وداعاً يا أبنائي وإلى اللقاء في العام المقبل إن شاء الله.

وما انتهى شيخنا حتى فاضت الدموع مرة أخرى أسفاً على فراقه، ثم ودعوه حزانى مكتئبين.



بمناسبة أعمال التبشير في السودان[1]

لا ندري إلى متى يمتحن الله عباده المسلمين بالنوائب، ولا نعلم إلى أي حد تنتهي عنده الكوارث المفجعة التي تحل بأقطار المسلمين قطراً بعد قطر: فمن المغرب الأقصى إلى طرابلس الغرب إلى جزر الملايا إلى فلسطين في جنوبي الشام، ما تزال منذ عشرات السنين تنبعث الزفرات الحرَّى من أفئدة مسلمي تلك البلاد مما يلقونه من عنت الغرب وجوره وإرهاقه. وها نحن أولاء نسمع في هذه الأيام خبر نكبة تنزل بقطر من أقطار الإسلام على يد المتمدنين من أبناء الغرب وعلى مسمع من العالم وبصره!..

أجل! إن القوم ـ وربك ـ غير نائمين ولا غافلين. وها هي حملة أخرى من حملاتهم يوجهونها اليوم إلى السودان تنظمها هيئات مختلفة وتحميها حكومة متمدنة ويُنفِّذها رجال نذروا أنفسهم لهذا العمل فما يزالون يشقون ويسعون له منذ نعومة أظفارهم. ولا ندري بماذا سيفاجئوننا غداً وقد عودونا أن نرى منهم المؤلم على غير انتظار. وما نشكّ في أن هذا كله تأديب من الله لنا على ما فرطنا في دينه، وما أنكرنا من شريعته، وما كفرنا بنعمته، بعد أن كانت تطوى لنا الأرض وتفتح لنا الدنيا وتجبى إلينا الأموال أعزة مكرمين.

وبعد، فما تزال تترامى إلينا الأخبار عن حوادث التبشير في السودان حتى أيقنا أنها حق لا ريب فيها، وكلها مجمعة على أن حكومة السودان قد

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٥٣٥ العام الحادي عشر ١٣٥٥هـ.

فصلت بين شمالي السودان وجنوبيه، وأنها حظرت على التجار المسلمين التجول في الجزء الجنوبي منه وأخذ أموالهم ونسائهم معهم، وحظرت على أهل تلك البلاد التكلم باللغة العربية، وأن الهيئات التبشيرية تتلقى إعانة مالية كل سنة من حكومة السودان، وأنها قد نصَّرت إلى اليوم عدة فتيات مسلمات تحت عوامل الفتنة والإغراء، إلى ما هنالك من أعمال تبين عما أعد في الخفاء من برنامج واسع للقضاء على الإسلام في تلك البلاد.

وعلى الرغم من سعي حكومة السودان لمنع تسرب تلك الأخبار إلى خارج القطر السوداني، فقد وصلت إلى مسامع المسلمين في مصر وسارع الأزهريون إلى استنكار تلك السياسة الخاطئة، وانتهى الأمر بأن أرسل كل من دولة رئيس الوزراء وفضيلة الأستاذ الأكبر برقية إلى حاكم السودان يستطلعانه حقيقة الحالة، فأجابهما الحاكم العام بنفي تلك الأخبار نفياً باتاً. وهدأت العاصفة بعد ذلك ـ كما هو دأبنا دائماً ـ واطمأن أولياء الأمور إلى جواب الحاكم العام. ولكن أهل السودان ما تزال أصوات استغاثتهم تدوي في أجواء الفضاء يستصرخون الأزهر وشيخه والأمة ورئيسها، فماذا سيكون من الأزهر ومن الأمة إزاء هذه النكبة!

نحن لا نرتاب في أن الأزهر قد بدأ يشعر بواجبه نحو الإسلام والمسلمين، وأن أبناءه أخذوا يشعرون بثقل المهمة الملقاة على عواتقهم، ولا نرتاب أيضاً في أن الأمة متألمة لهذه الأنباء، ولكن غضب الأزهريين لا يتعدى إبلاغ احتجاجهم إلى شيخ الأزهر، وألم الأمة لا يخرج عن أن تطلب من رئيسها الاحتجاج على ذلك. وهذا في نظرنا لا يكفي، فإن كلاً من رئيس الوزراء وشيخ الأزهر لن يكون منهما ـ بالنظر لمركزهما الرسمي - أكثر من برقية احتجاج إلى حاكم السودان العام يراعى فيها كثير من المجاملة الرسمية، ثم تقف المسألة عند هذا الحد. إن الأمر من الخطورة على جانب عظيم، وإن هذا الأسلوب من الاحتجاج الذي جرى عليه المسلمون إزاء كل نكبة تنزل بهم لن يكون من شأنه تفريج الكرب أو تخفيف الأزمة وإنما

يكون من شأنه إطماع الغرب بتوسيع نطاق التبشير في محيطنا الإسلامي ما دمنا لا نتعدى دائرة الاحتجاج الكلامي الطويل العريض.

في الأمثال العامية (إن الحرب لا تكون بالنظارات) ومعنى هذا أن الأمور الخطيرة لا تحل بالكلام والنظر فقط، وما دام المبشرون في السودان جاذين في تنصير أبنائه تنصيراً عملياً تساعدهم في ذلك حكوماتهم وحكومة السودان فمن الواجب أن نقابلهم بعمل إيجابي يؤدي إلى وقف عدوانهم، وأمامنا الآن أمران: الأول: إيفاد لجنة من مفكري الأمة وأصحاب الضمائر النزيهة فيها لمعرفة مدى أعمال المبشرين في السودان وعما يقدم إلى حكومة السودان من شد أزرهم أدبياً ومادياً وإدارياً إيفاد بعثة إسلامية من متخرجي الأزهر للدعوة إلى الإسلام في المناطق المقفولة في السودان. وهذان الأمران ميسوران لحكومة مصر ومشيخة الأزهر.

لقد أوفدت الحكومة منذ مدة بعثة اقتصادية إلى السودان مبتغية من وراء ذلك تقوية الأواصر بين القطرين الشقيقين، وما نعتقد أن الحكومة المصرية تحرص على رفاهية السودان وماليته أشد من حرصها على صيانة دينه وعقائده. ففي استطاعتها أن تردف البعثة الاقتصادية ببعثة أخرى تدرس الأمور التي يضج منها أبناء السودان وتمتلىء بهم صحفهم وأنديتهم. وإن الأزهر الذي أوفد بعثة إلى أوربا وبعثات متعددة إلى بلاد الإسلام آخرها بعثة الهند لا نظن أنه يضن ببعثة إلى السودان هي في نظرنا خير بعثة تتأتى منها الفائدة الكبرى للإسلام والمسلمين، وما نظن أن ميزانية الأزهر التي اتسعت للأموال الطائلة للترقيات والعلاوات تضيق اليوم عن نفقات بعثة صغيرة تثبت وجود الأزهر وتقيم الدليل على حاجة العالم الإسلامي إليه.

هذه كلمة عجلى نبعثها من أعماق الفؤاد وقد أدمته النكبات تتوالى على الإسلام وأهله غافلون، وأعداؤه أيقاظ عاملون.

رحماك يا رب! . إن الجرح من نكبة البربر في المغرب الأقصى لم

يندمل بعد، فكيف تقوى النفس على ألم بعد ألم؟ وكيف يتحمل الجسم جرحاً على جرح؟

رحماك يا رب!. أكلما حلت نكبة بالإسلام تبعتها نكبة، حتى هُدت القوى، وانحلت الهمم، وسرى اليأس إلى قلوب فريق من المخلصين؟

رحماك يا رب!. إن المصيبة قد عمت حتى لم يبق في قوس الصبر منزع، وإن الغفلة بين المسلمين قد عمت حتى لم يبق لليقظة بينهم مجال، وإن علماءنا قد استكانوا للدنيا حتى كدنا نقطع منهم الآمال، فاملأ اللهم قلوبنا بالصبر، وابعث في أمتنا الحياة، وألهم زعماءنا العمل والإخلاص، قبل أن يتملكه العدو تنفيذ خططه، هنالك تكون المصيبة الكبرى وهنالك يكون البلاء.



ماذا يراد بها كلّه؟[1]

كانت البلاد العربية حتى الأمس القريب تضج من الظلم الصارخ، وتتألم من الجور الفادح يأتيها به الغرب فتضيق به صدورها ويغضب منه حليمها وتشيب لهوله أطفالها، وكانت تصحب هذا الألم ثورةٌ بين الفينة والفينة تلتهم الأخضر واليابس وتأكل الأموال والرجال، وكانت النفوس حينذاك ملتجئة إلى الله، مستمسكة ببعض عرى الإسلام، أو قل أنها كانت راضية بآدابه وتقاليده نافرة بعض النفور ممن استباح ديارها وأذاقها الذلّ أشكالاً وألواناً، وكنا يومئذ نرى أمتنا على شيء من الخطل في العمل والفكر، فنهيب بها أن ترجع إلى حظيرة الحق قبل أن تستقر في الباطل، وكان عزاؤنا الوحيد فيما تجابهنا به من صد وإعراض أن الاستعمار الذي ابتليت به بلادنا هو علة العلل التي نرفع أصواتنا باستنكارها وأن أمتنا ما زالت تكافح وتناضل للتخلص منه، فلا بد من أن يلتفت زعماؤنا وذوو الرأي فيها بعد نيل حريتها إلى العلل فيزيلوها من نفوس الأمة، وإلى العقائد الباطلة المخالفة لحقائق الدين فيجتثوا جذورها من أدمغة الشباب، وإلى الانحلال الخلقي فيطهّروا منه قلوب العامة. ثم دار الفلك دورته فإذا العراق يخطو خطوات واسعة نحو الاستقلال الحقيقي، وإذا بسوريا ترتبط مع فرنسا بمعاهدة صداقة وتحالف، وإذا بمصر تصافحها إنكلترا بمعاهدة وقع عليها

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٥٣٩ العام الحادي عشر ١٣٥٥هـ.

زعماؤها؛ ولم تبق إلا فلسطين - فرج الله كربتها - تريق دماءها وتبذل أموالها ليتمّ لها ما تمّ لشقيقاتها - مصر وسوريا والعراق - ثم ماذا بعد ذلك؟ كان أن ارتفعت في العراق أصوات التبرّم بتقاليد العرب والإسلام والاقتداء برجال في بلاد أخرى كانوا من قبل مسلمين فأصبحوا اليوم في تفكيرهم واعتقادهم من أتباع موسكو وباريس وروما...

وأما سوريا فلا تزال حكومتها تضنّ على الأمة بمدرسة دينية يتخرج منها القضاة والمفتون، فصار يوسد القضاء الشرعي فيها إلى غير أهله وأصبح الناس يتقاضون أمام قضاة جهلة يفتون بغير علم يَضلون ويُضلون. وأما مصر - وهي التي يتتبع العرب خطواتها - فقد سمعنا فيها صوتاً يدعو إلى توحيد القضاء فلا يكون أهلياً ولا شرعياً، وكان ينبغي أن يبتدأ بالدعوة إلى أخذ القوانين المصرية من ينابيع الشريعة الإسلامية فيتحد القضاء بطبيعة الحال، وإلا كان معنى ذلك إلغاء المحاكم الشرعية وليس في مصر من يرضى بذلك، وسمعنا بعض النساء المثقفات ينادين بالإضراب عن دفع الضرائب وعن المساهمة في الدفاع الوطني حتى يسمح لهن بالنيابة في المجلس النيابي والجلوس على كراسي القضاء ووظائف الدولة، وارتفع صوت كاتب روائي مشهور يطلب إلى الشباب نبذ الطربوش ولبس القبعة لأن الطربوش محتقر في نظر الأجانب والقبعة محترمة! ثم أعقبه ممثل معروف فأبدى ألمه واشمئزازه من رؤية الطربوش الأحمر على رؤوس المصريين، وعجب كيف يقف بهم التفرنج عند هذا الحد بعد أن لبسوا البنطلون ورباط الرقبة؟. ثم وجه نداءه إلى الوزراء والزعماء يطلب منهم أن يكونوا أول من يميتون شعاراً لنا ويستبدلون به شعار أقوام أذلونا أعواماً طوالاً وناصبونا العداء قروناً عديدة!.. ويقوم من وراء هذا وذاك شيخ من شيوخ المسلمين زعم أنه فسر كتاب الله في مجلدات ضخمة فيفتي بحل لبس القبعة لمسلمين نشأوا في ديار الإسلام ولا يزالون في ديار الإسلام ولا يعرفون غير هذه العمائم والطرابيش، وحجة الأستاذ أن رسول الله ﷺ كان يلبس لباس المشركين!..

وكأن كل هذا لا يكفي، فقام بعضهم يطالب وزارة المعارف أن تعلم العربية للمسلمين بمنهاج ولغير المسلمين بمنهاج آخر مما لم يسبق له نظير في مدرسة من مدارس العالم وأن يكون الأحد يوم عطلة رسمية في بعض الامتحانات كيوم الجمعة. وهناك يثيرونها ضجة عالية حول الأوقاف الأهلية يطلبون إلغاءها وتوزيع حقوق الإنسان الآتية على أهل الطبقة الموجودة الآن وقطع ما أراد الله أن يوصل من الخير ومنع حدوث الأوقاف في المستقبل بدعوى أنها ليست من الإسلام في شيء! وكأن عمل المسلمين منذ زمن رسول الله صلوات الله عليه إلى اليوم لا يكفي دليلاً على شرعية ذلك العمل وإسلاميته؟

وهذا مدرس من مدرسي كلية اللغة العربية بالأزهر يذهب إلى أن الأمر بإقامة الحد على الزاني والسارق في كتاب الله ليس للوجوب بل للإباحة!... كأنه فهم الإسلام باجتهاده أكثر مما فهمه النبي ﷺ والصحابة والتابعون وجميع أئمة المسلمين وفقهائهم إلى اليوم.

وذاك واعظ من العلماء يتأبط زوجته ويذهب بها إلى محفل اختلط فيه الرجال بالنساء ويقف خطيباً فينسب إلى الإسلام أنه يجيز هذه الأحوال...

سبحان الله! أكل هذا حدث بعد أن تم لهذه الأقطار العربية استقلالها كما يقولون؟.. وهل استقلال أمة يدفعها إلى أن تتنكر للماضي وتنقض عرى دينها عروة عروة؟

مهلاً مهلاً أيها الثائرون على تقاليد الماضي، المندفعون نحو الأغيار بقضكم وقضيضكم. إن أمتكم التي تودون تحويلها من إسلاميتها إلى تفرنج يذهب بالكرامة، وتقليد يزري بالعزة، ليس من الهين انحداركم بها إلى تلك الهاوية السحيقة بمثل تلك الصيحات المنكرة ولا بتلك الثورة التي تعلنها أقلامكم الطائشة.

إن أمتكم تتطلب منكم توجيهها نحو الخير والعلم والصناعة والثروة والقوة والرفعة، وليس أكبر خيانة لها ولا أبلغ إجراماً في حقها من أن

تلبسوا عليها الحق بالباطل، فتصرفوها عن الجد وتحاولوا إقناعها بأن خيرها وقوتها إنما هو في القبعة لا في الطربوش، وفي التجرد من حلية الدين لا في التمسك بها، وفي الاندماج في أمم الغرب لا في التميز عنها.

سلوا علماء الاجتماع في الغرب الذي عبدته قلوبكم: هل لرقي الأمة وانحطاطها علاقة بلباس الرأس وثياب البدن؟ وأيهما أضمن لاستقلال الأمة: أتميزها عن الأغيار، واعتزازها بشخصيتها وتقاليدها، أم اندماجها بهم في عاداتهم وتقاليدهم وأزيائهم؟

نحن نفهم أن يدعو كاتب قومه إلى اتخاذ شعار خاص غير الطربوش الذي يزعمون أنه شعار أجنبي، ونفهم أن يثور الشباب من الأمة على شعار تلبسه أمتهم وهو مزرٍ بكرامتها غير متفق مع ماضيها وحاضرها، ونفهم أن يقوم هؤلاء الشباب بحملة واسعة للخلاص من الامتيازات الأجنبية في بلادهم. نحن نفهم كل هذا، ولكنا لا نفهم كيف يقوم كاتب فيدعو الأمة إلى أن تذوب في بيئة أخرى مخالفة لها في الدين واللغة والتقاليد؟ ولا نفهم كيف يقوم ممثل فيدعو إلى أن تختفي رؤوس المصريين تحت قبعات الغرب؟ ولا نفهم كيف تسعى مصر جهد طاقتها لإلغاء الامتيازات الأجنبية ثم يدعو أحد أدبائها إلى أن يكون المصريون جميعاً أجانب بقبعاتهم بدلاً من أن يكون الأجانب في مصر مصريين بطرابيشهم. ولا نفهم كيف تتفق جزئيات هذه الحملة على الإسلام للتخلص منه بينما نريد لمصر أن تتبوّأ زعامة العالم الإسلامي وتحمل لواءه؟. واحدة من اثنين إما أن تكون مصر مسلمة ومؤمنة برسالة الإسلام فيكون لها من ورائها سبعون مليوناً من العرب يصدون عنها عادية العادين ومن ورائهم أربعمائة مليون من المسلمين تهوي إليها قلوبهم وأفئدتهم، وإما أن تكون كما يريده لها هؤلاء النفر فلا تكون إلا هي وحدها تقف وجهاً لوجه أمام دول الغرب التي تترقب الفرص لابتلاع كل ما تستطيع ابتلاعه، أما التذبذب بين هذا وذاك فهذا ما نعتقد أنه يعرقل سير الحضارة في وادي النيل لا يعود على أهله بما نرجوه جميعاً من خير.

أيها المصريون، أيها السوريون، أيها العراقيون، أيها العرب جميعاً: إن بلادكم كانت قبل الإسلام نهباً مقسماً بين الرومان والفرس، وإن أهلها كانوا عبيداً أذلاء يساقون إلى ميادين الفناء بسياط الذلة والصغار، ولولا أن أتى الإسلام فاستخلص البلاد وأهلها من الأنياب المفترسة لبقينا إلى اليوم في ذلة وعبودية، فلنعرف للإسلام هذه النعمة علينا ولنعلم أننا إن لم نكن للإسلام أعواناً فسيقيض الله للإسلام أعواناً آخرين ولكننا والله إن لم يكن الإسلام عوناً لنا فلن يكون لنا عون غيره أبداً.

أيها المصريون والسوريون والعراقيون، أيها العرب جميعاً: إن فينا ناساً يريدون أن ينحرفوا بنا عن سواء السبيل، يزينون لنا خروج الكماليين ومن تبعهم على الدين لنقع فيما وقعوا فيه فاحذروهم أشد مما تحذرون أعداءكم المستعمرين، وإن فينا نفراً أنتجتهم مدارس الغرب يريدون أن يفصلوا بعضنا عن بعض فخذوا من هؤلاء حذركم، فإن في دعوتهم هذه تقطيع أوصالنا وتمزيق شملنا وخراب أوطاننا، إن الغرب لا يخافكم سوريين ولا عراقيين ولا مصريين وإنما يخافكم عرباً ويخافكم مسلمين، وما دام دعاة التفرقة قد خذلوا شخصيتكم الجامعة فسيكونون لشخصيتكم المنعزلة أشد خذلاناً، وما داموا قد حاولوا أن يصرفوكم عما يخافكم به الغرب ويوجهوكم إلى ما به يبتلعكم فكيف تأمنونهم على قضية الوطن؟

أيهاالمسلمون. اعتصموا بالإسلام فلن يكون لكم نجاة إلا به لأنه قوة لا يعرف قدرها إلا من أحسن الظن بها واعتصم بعروتها التي لا انفصام لها.



تصديح خطير لعام (١٣٥٥)[1]

لا أعلم أني - منذ أخذت أفهم الحياة - قد قصرت بالقيام بواجبي نحو أخ عزيز عليّ ولا أعلم أني حين أسمع بسفر صديق أو بقدوم رفيق إلا وكنت أول المودّعين وأول المستقبلين. ذلك هو شأني مع إخواني، وكذلك كان شأني مع (سني) حياتي، فما كنت أسمع بمقدم عام جديد حتى أهرع للقائه وأبالغ في الحفاوة به، ثم لا أزال أمامه وأقطع معه مراحل حياتي حتى يؤذنني بالرحيل، فلا أكاد أنتهي من وداعه حتى أستقبل زميله الجديد. وهكذا دواليك إلى أن كان العام الماضي وقد شدّ رحاله، وحزم أمتعته، وأرسل إليَّ ينبؤني بدنوّ ساعة الفراق وكان أدى مهمته على أتم وجه، ولشدَّ ما كانت نفسي تتوق إلى رؤيته قبيل رحيله لأودي ما عليَّ له من واجب صرت أحاول أن أتحدث إليه بحديث أنقله إلى قراء (الفتح) لكن الشواغل أذهلتني عن ذلك الواجب، فمضى صاحبي مودعاً دون أن ألقى عليه نظرة، أو أنتزع منه حديثاً. وما كادت تبتعد عني الشواغل حتى بادرت إلى اللحاق به فهرعت إلى مدينة (الدهر) حيث هو مُلق رحله، ووجدتني أمام بناء كبير شامخ الذرا وقد عُلقت على بابه لوحة كبيرة كتب عليها (نادي السنين). ودخلت النادي فلمحت فيه خليطاً من شرقيين وغير شرقيين، مسلمين وغير مسلمين، وأحداث وشيوخ، وهذا مبتسم متهلل بالبشر والسرور، وذاك

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٥٤٣ العام الحادي عشر ١٣٥٦هـ.

مكتئب تلمح في وجهه علامات الأسى والألم، وكل واحد منهم يحمل رقماً معيناً على ذراعه الأيمن يعطى له حين انتسابه إلى النادي، فبحثت عن صاحبي رقم ١٣٥٥ فوجدته بين نفر من زملائه تضمهم حلقة واسعة، وقد أخذوا يتجاذبون أطراف الحديث، وتقدّمت نحوه بالتحية فردّ عليّ بأحسن منها، فقلت له ما حال بيني وبين وداعه، وذكرت له أن هدفي من لحاقي به أن يتحدث إلى قراء (الفتح) عن ملاحظاته فينا، وعما يجب علينا في عامنا الجديد. فرحب بي خير ترحيب وقال: مرحباً بالفتح، خادم الإسلام، ومحطم الأصنام... وعدوّ الاستعمار، وخاذل الفتنة، وقاصم ظهور الملاحدة والمفتونين.. ثم قال لي: إنني أقص الآن على زملائي هؤلاء خبر رحلتي، فإذا أحببت الانتظار إلى نهاية الحديث فعلت، وإلا أجبتك الآن إلى ما طلبت، قلت: بل الاستماع إلى أحاديثكم ومناقشاتكم أحبّ إليّ. فأجلسني بجانبه بعد أن قدمني إلى المجتمعين واحداً واحداً، وأخرجتُ مذكرتي لأدون فيها محضر تلك الجلسة.

قال رقم ١ ـ وكيف تركتَ المسلمين وراءك؟ لعلهم لا يزالون كما تركتهم أنا في تقوى وصلاح، وألفة ومحبة وطاعة لله وانقياد لرسوله؟

١٣٥٥ ـ آه يا صديقي، لقد تبدلت الحال فالمسلمون في عهدي غيرهم في عهدك.

رقم ١ ـ يا عجباً، وكيف ذلك؟ هل رفع من بينهم كتاب الله؟ هل فقدت منهم سنة رسوله؟

١٣٥٥ ـ لا يا صديقي، فالكتاب لا يزال يتلى، ولكن بالألسنة لا بالعقول، فهو لا يتعدى الحناجر إلى القلوب. والسنة لا تزال محفوظة ولكن في الكتب، ومقروءة ولكن للتبرك. والمصلون لا يزالون يملؤون المساجد ولكن بصورهم وأجسامهم، أما قلوبهم وأفئدتهم فتملؤها الدنيا والأهواء والشهوات، ثم هم في منكر ملأ بيوتهم ومجتمعاتهم، وفي فقر عم طبقاتهم كافة، وفي جهل صيّف في ربوعهم وشتى، وفي غفلة ملأت أمسهم

ويومهم، وهكذا أصبحوا لا في الموتى فيستريحون، ولا في الأحياء فيعملون. . .

رقم ١ - وأين علماؤهم، يزيحون عنهم حجب الجهل ويدخلون في أفئدتهم نور الكتاب والسنة؟

١٣٥٥ - ويلي من علمائهم!. . لقد احتلت الدنيا حبة قلوبهم، فللدنيا يسعون، وللدنيا يتعلمون، وللدنيا أيضاً يدافعون عن الدين ويناضلون!. . ثم هم بين اثنين: متألم من المنكر ولكن بقلبه لا بلسانه ولا بقلمه، ومدافع عن المنكر من وراء ستار ليبتغي عند أهله الحظوة والرفعة، وليقال أنه عصري، وأنه مصلح، وأنه مجدد. . . أما من يرى المنكر فيتألم لذلك قلبه وقلمه ولسانه، وأما من يدافع عن الدين غير طالب لشهرة ينالها، ولا آسف على دنيا تفوته، فذلك بينهم قليل. . . وقليل. .

الجميع - لا حول ولا قوة إلا الله.

رقم ٢١٨ - رحمة الله على أحمد بن حنبل. . .

رقم ١ - وأين أغنياؤهم ينقعون غلة الصادي ويخففون لوعة البائس والمسكين؟. .

١٣٥٥ - ويحهم ويحهم!. إنهم رغبوا عن معاونة المصلحين إلى إغناء الممثلات والمغنين، وانصرفوا عن إمداد الأمة بأموالهم لتنفق في سبيل الخير أو تستعمل في شركات التجارة، إلى مصارف المستعمرين فأودعوا فيها أموالهم بفائدة أو بغير فائدة، وقبضوا أيديهم عن بناء مسجد أو مستشفى أو مدرسة، وبسطوها في معونة معاهد التبشير والثقافة الأجنبية، وبينا تجد منهم من يبخل بقرش على أخ له في الإسلام، إذا بك تجده يحمل أمواله إلى بلاد الغرب لينفقها على مراقصه وملاهيه بلا عد ولا حساب، وإن أمة هذا حال أكثر أغنيائها هل تراها تجد للغني والثروة سبيلًا؟

رقم ١٣ ـ وأين أمير المؤمنين يرد المظالم ويجمع الصدقات ويؤلف بين المسلمين؟

١٣٥٥ ـ ليس للمؤمنين أمير على نحو ما تعلم، وإنما هم مشتتون كقطيع من الغنم لا راعي له.

أصوات ـ إذاً من يحكمهم ومن يتولى شؤونهم؟

١٣٥٥ ـ لقد تشتت شملهم بعد حرب يسمونها الحرب العامة، فتقاسمت بلادَهم دول الغرب وأعملت فيهم بأنظمتها يد السلب والنهب.

الجميع ـ لطفك اللهم بعبادك، أمسلمون ويحكمهم غيرهم؟..

رقم ١٤ ـ يا لله للمسلمين! كيف وصلت بهم الذلة إلى هذه الحالة، وأنا شهدتهم يوم زَلزلت جيوشهم أركان فارس في يوم القادسية، ونزل قائدهم سعد بقصر كسرى فأذن فيه وأقام الصلاة؟

رقم ١٥ ـ وأنا شهدت بعيني يوم دخل الفاروق بيت المقدس واستقبله أهلها فرحين.

رقم ١٩ ـ وأنا حضرت عمرو بن العاص مع أربعة آلاف من رجاله يوم رفعوا راية الإسلام عزيزة عادلة رحيمة على وادي النيل.

رقم ٩٢ ـ وأنا رأيت طارق بن زياد يخوض العدوة إلى الأندلس فينشر فيها لواء الرحمة والمعونة والعمران فلا يقف أمامه شيء.

رقم ١٧٥ ـ وأنا رأيت بنفسي سفن المسلمين تملأ البحر الأبيض المتوسط لمحاربة البيزنطيين فانتصروا عليهم واستولوا على قبرص وأقريطش.

رقم ٥٨٣ ـ وأنا رأيت صلاح الدين في يوم حطين يضرب الشرك ضربة زلزلت أركانه فأعاد كلمة الحق إلى الأرض المقدسة بأبطاله الغر الميامين.

رقم ١ ـ إذاً كيف يرضى المسلمون بما ذكرتَ عنهم وقد فتحوا الشرق والغرب؟ وإلى متى هم نائمون؟.

١٣٥٥ ـ هناك عوامل كثيرة أدت إلى استمرارهم في الغفلة، ولكنهم بدأوا يستيقظون.

١٣٥٤ ـ حقاً لقد شهدت من آثار نهضتهم ما يدعو إلى الرضا والتفاؤل بمستقبل زاهر، ولقد رحلت عنهم وسوريا تفاوض فرنسا، ومصر تفاوض إنكلترا، وفلسطين في بركان من النار. فماذا كان بعد ذلك؟

١٣٥٥ ـ لقد انتهت مفاوضات سوريا ومصر بمعاهدتين مع فرنسا وإنكلترا، وهما وإن لم يكن فيهما كل ما يرضي ففيهما إن شاء الله ما يمهد الطريق للوصول إلى ما يرضي.. وبينما سوريا تتسلم مقاليد أمورها إذا بجيرانها الترك يقدمون لها أول هدية بعد استقلالها ليبرهنوا لها وللعرب على ما يكنونه لهم من حب وولاء!.. فأثاروا مشكلة الإسكندرونة، ومن البدهي أن نقول أن المسألة انتهت ـ بتدخل فرنسا وعصبة الأمم ـ على حساب سوريا لأن سوريا ضعيفة وتركيا قوية ودول الغرب دائماً لا تقف حيث يقف الحق، وإنما تقف حيث تكون القوة والجشع ومصلحة الاستعمار! وأما فلسطين فقد اشتعلت فيها الثورة ويكاد يمتد لهيبها إلى بلاد العرب التي بادرت إلى الاشتراك بها اشتراكاً فعلياً. وكانت معارك بين الحق والباطل دامت ستة أشهر كاملة، أيد الله فيها الحق وخذل الباطل وأهله. كان من نتائج تلك الثورة أن أرسل الغاصبون لجنة تحقيق في أسباب الشكوى، فحققت، وإلى يوم رحيلي لم تعلم النتيجة. على أني تركت فلسطين والنار مشتعلة، والنفوس مهتاجة، والخواطر مضطربة، ولا يعلم إلا الله متى تنتهي الحال. ومن الواجب أن أذكر لك أن المسلمين يقوموا بكل ما يجب عليهم نحو فلسطين من معونة مالية قد توالت الصرخات من فلسطين تطلب المال لمنكوبيها فلبى نداءها الفقراء وأوساط الناس، وأعرض عنها أهل الثروة والسعة حتى أشد الناس اتصالاً بها.

أصوات ـ لعمر الحق ما أصيب المسلمون إلا من هذا.

١٣٥٥ ـ على أنه قد حدثت هنالك فتن في بلاد العراق أدت إلى

سقوط وزارة وقيام أخرى. وليست العبرة بقيام هذه وسقوط تلك، وإنما هي في الروح التي تطوى عليها كلتاهما، وما من شك في أن بوادر الأمور تنذر بقوة الميول التي لا تحسن الظن كثيراً بالإسلام في تلك الديار وإن لم يظهر ذلك بجلاء حتى اليوم، وكما حدث ذلك في العراق كذلك ظهرت في مصر الدعوات الخبيثة إلى القبعة وانتخاب المرأة للنيابة، والتلاعب بأحكام الله، وإلغاء القضاء الشرعي ومثل هذا تقريباً حصل في إيران وألبانيا، وأن ذلك كله ليدعو إلى الظن بأن موجة التمرد على أحكام الإسلام وتقاليده أخذت تظهر بقوة بين بعض الأمم الإسلامية عن جهل وعماية، وإذا كان ذلك مؤلماً حقاً فإن مما يسر تلك الحركة الدينية التي قام بها بعض طلبة الجامعة وهي وإن آلمت نفوساً، وأغضبت رجالاً موقفهم من الإسلام معلوم، لكنها رغم أنوفهم جميعاً ستكون لها الغلبة بإذن الله، وسيرتفع صوت الحق حتى يصمّ آذان المبطلين، والله من ورائهم شهيد.

الجميع ـ اللهم أيّد الإسلام وأيقظ أهله، واجعل عامهم الجديد عام سعادة ورخاء.

ثم انفضّ المجلس، والتفت إليَّ صاحبي وقال: إن أشد ما أزعجني أن ترتفع أصوات الإساءة إلى الإسلام من نفر من المسلمين في الوقت الذي لا يحفظهم من غوائل الغرب إلا الإسلام وحده. إن الأمة إذا نهضت نفضت عنها غبار الضعف والضعة. فهل وجدوا في الإسلام ضعفاً حتى يحاولوا التخلص منه؟ ام هل وجدوا فيه ضعة حتى يسعوا إلى البراءة منه. إن الأمة لا تحيا بغير دين، فإذا كان أولئك النفر يريدون لأمتهم أن تتخلص من الإسلام فمعناه أنهم يريدون تحويلها إلى دين آخر. وما عهدنا غير الإسلام ديناً جمع بين قوة الروح وقوة المادة، فهلا تعلم الأمة أن هؤلاء الذين يدعون بأنهم يسعون لقوتها إنما يسعون بعدائهم للإسلام إلى تجريدها من قوتي الروح والمادة اللتين لا غنى لأمة من أمم الأرض عنهما، سيعلم أولئك النفر فيما بعد أنهم مخطئون. وستعلم الأمة أنهم كانوا لكيانها

هدّامين، ولاستقلالها محطمين! نصيحتي إلى الأمة في عامها الجديد أن لا تركن إلى عهود الغرب، فالقوم لا يفهمون إلا بلغة القوة. وأن لا تخدع بأضاليل المهوشين والمفتونين، فهم لا يندفعون إلا وراء الهوى والشهوة، وأن تتمسك بعرى دينها ففيه هدى بصائرها وحياة ضمائرها، وبه سلامة بلادها من عبث أعداء الأمة وأدعيائها على السواء... وهنا انقطع عن كلامه فمددت إليه يدي وشكرت له تفضله بتصريحه الخطير....



موقف من مواقف الشرق مع الغرب [1]

بين الشرق والغرب عراك منذ أجيال متقادمة، يشتد أحياناً فتتكلم الأسنة والرماح، ويخف أحياناً فيتكلم المكر والدهاء، وفي كلتا الحالتين إنما يرمي الغرب في عراكه مع الشرق إلى تبديد ثروته وتمزيق ملكه، والقضاء على ما يتمتع به من طمأنينة في العقيدة، وراحة في الحياة، وعزة في النفس، ليجعل منه الشعب الخاضع للقوة، المعذب في المعيشة، المضطرب في نظمه وعقائده وقوانينه، ووسيلته إلى ما يرمي إليه تختلف باختلاف العصر والبيئة، فيوم كان الشرق في عزة وصَوْلة، وكان الناس في الغرب ينقادون لعصبات رجال الدين، أثاروها حرباً دينية شعواء، وأرسلوا بجيوشهم إلى الشرق معلنين أنهم إنما يأتون لإنقاذ شعوبه من الضلال، وبلاده من الكفر، ومقدساته من الاضطهاد. وكان بينهم وبين الشرق معارك ومواقف انتهت باندحارهم ورجوعهم إلى بلادهم، على وجوههم ذلة المنهزمين، وفي أدمغتهم حضارة المسلمين، وفي قلوبهم الضغينة على أولئك المنتصرين، ويوم تفككت عرى الشرق وتحرّرت العقول في الغرب من سلطة الكهنوت وتعصباته، أعلنوا الحرب على الشرق مرة أخرى وأفرغوها في قالب سياسي وقلب ديني، ثم أرسلوا مع كل جندي قسيساً ليغزو الأول القلاع والثغور ويغزو الثاني العقول والقلوب، وبين غفوة الشرق وجهل قادته

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٥٤٧ العام الحادي عشر ١٣٥٦هـ.

وتخاذل حكوماته، ضاعت الدولة، وغاضت العزة وتبدّدت الحضارة. فما هي إلا أن رأينا أعلامهم مرتكزة على القلاع تعلن الاحتلال، وجيوشهم تبني الثكنات إيذاناً بطول المقام وعدم الارتحال، وقسسهم تبني المعاهد لتجعل الاحتلال لدى أبناء الأمة أمراً محبوباً بعد أن رأوه بأعينهم واقعاً محتوماً، واستقرت الأمور بعد ذلك على هذا: جيش يعزز سلطة الغاصبين، وقسس ينشرون ثقافة المستعمرين.

ولما بدأ الشرق يصحو من ذهوله، لم يلتفت أكثر قادته إلا إلى الخطر الأول دون الثاني، فوجهوا جهدهم كله لمقاومة الاحتلال العسكري، وتركوا الاحتلال الثقافي يغزو الأوساط والمجتمعات بلا رقابة ولا حذر، وكان من أثر هذا أن سمعت الأمة من بعض أبنائها أصواتاً منكرة لم تسمعها من قبل، ودعوات خبيثة تحمل في طياتها الهدم والفوضى والفساد فلم يرعب القادة هذا الخلل في وحدة عقول الأمة كما يرعبهم الخلل في وحدة صفوفها، ورأى دعاة الثقافة الأجنبية هذا الإهمال من جانب القادة فرصة سانحة للتقدم إلى الأمام بخطوات جريئة سريعة فاختطفوا الناشئة القاصرة بالإغراء الدنيء والحيل الساقطة، رغبة في تنصيرهم وجعلهم ألسنة داعية إلى الكفر والضلال.

أنا لا أريد أن آتي بالأدلة على صحة ما أقول، فالوقائع أكثر مما نحتاج إليه لإثبات هذه الحقيقة في مثل هذا المقال، وكلها تدل على مبلغ ما في نفوس بعض اللصوص المتسترين بستار العلم من إجرام وفوضى وبلاء على الناس، وعمل على التفريق بين الأب وفلذة كبده الذي كثيراً ما يكون دون سن الرشد وإرساله سراً إلى بلاد أخرى من حيث لا يدري الأب من أمره شيئاً.

لقد كنا في غنى عن أن نقيم الأدلة على إجرام هذه الفئة، وعلى أن المعاهد التي أنشأها في بلادنا هذا النوع من الناس لم ينشئوها حرصاً على تثقيفنا ورقينا، وإنما هي لأغراض ينكرها الدين الخالص، ويأباها العلم الحق، وتشمئز منها الضمائر الحية، وتغضب لها الأمة العزيزة.

لقد كنا في غنى عن بيان هذا كله لولا أن في هذه الأمة نفراً ينكرون

نور الشمس ولو وضعتها في أعينهم، يحسبون أن انتظام أبناء الأمة في سلك هذه المعاهد من تمام الرقي وكمال التمدن، وأن لهذه المعاهد فضلاً على البلاد، حيث نشرت فيها العلم، وأذاعت الثقافة، وأوسعت للناشئة مجال التفكير الحر والآراء الناضجة. . . ولسنا ندري ما جوابهم عن هذه الحوادث المتتالية المخزية التي وصمت أولئك الذين يدَّعون الثقافة والعلم. . بالخزي والفضيحة والعار؟. .

ومن أعجب ما في الأمر أن يعقد مؤتمر الامتيازات في مونترو ويكون أول ما تطلبه الدول من وفدنا الضمانات اللازمة لحماية المؤسسات العلمية والدينية التابعة لها. . ومن قبل هذا طلب مثل ذلك من العراق حين رغب في الانضمام إلى عصبة الأمم. وفي كل يوم نسمع تلك النغمة: حماية المؤسسات الدينية. . إذاً فلهذه المؤسسات الدينية أهمية كبرى عند دول الغرب، ولها فيها فائدة عظمى، ولا ندري أهذه المعاهد هي التي تحتاج إلى الحماية خوفاً عليها منا، أم نحن المحتاجون إلى الحماية خوفاً على أبنائنا منها وأية حماية يطلبها ناس وقفوا حياتهم على الإساءة إلى البلاد التي ينزلونها وسرقة العقائد النقية الطاهرة من صدور الشباب السذج القاصرين؟ وتنفيرهم من آبائهم وذويهم وتشريدهم عنهم إلى بيوت أخرى وبلاد أخرى.

تقدس عدل الإسلام. بالغ في الحرص على حماية الأموال من أيدي اللصوص حتى جعل جزاء السرقة قطع اليد، وبالغ في الحرص على حماية الأنفس من سطوة المجرمين حتى جعل القتل دواءً للقتل، وبالغ في الحرص على استتباب الأمن في البلاد حتى جعل لمن يقطعون الطرق ويخيفون المارة، ويأخذون أموال الناس بالباطل، القتل والقطع والصلب والتغريب في الأرض. أما دول أوروبا فإنها لا تكتفي بأن تسكت عن مرتكبي ما ذكرناه من جرائم، ولكنها تطلب من الحكومة المصرية أن تحمي من تحتاج إلى من يحميها منهم، لأن فيهم لصوص العقائد وهي أغلى من الأموال، وقتلة الضمائر وهي أثمن من النفوس، ومن يفرقون صفوف الأمة، والتفرقة أشد

بلاءً وأفظع جباية من قطع وسرق وسلب المارة..

بوركتم يا وفود الغرب!. تأبون أن تدعوا الأشقياء يجوسون دياركم آمنين، ثم ترسلون إلينا بالمتعصبين منكم يتظاهرون بالدعوة إلى الحق ونحن قد عرفناه قبل أن تعرفوه، وبإرشادنا إلى العدل ونحن أقمناه قبل أن تقيموه، وبدعوتنا إلى العلم ونحن أذعناه قبل أن تذيعوه، ثم لا يهدون إلى الحق إلا بالتضليل، ولا إلى التمدن إلا بالهمجية، ولا إلى العلم إلا بالتغرير. فإن كان هذا حقكم وتمدينكم وعلمكم فنحن فخورون عليكم بحقنا الذي لا يخالطه اللبس؛ وبتمدننا الذي لا يخالطه التوحش، وبعلمنا الذي يرقيه، وسينصفنا الدهر منكم يوم تزول عنكم تلك القوة التي جعلت أشراركم في وقاية من أن تنالهم يد العدل أو رقابة القانون..

احذري يا مصر التمويه، وقولي لمن يطالبك بما يزيد على حدود القانون والعدل: إن كنتم تطلبون حماية رعاياكم ومعاهدكم وأموالهم وحرياتهم، فإن ديني قد تكفّل بحماية الأموال حتى قرر لسارقها عقوبة رادعة لم تقرروها إلى اليوم، وكفل لمن يخالفه في الدين حرية لم تعرفوها أنتم إلى اليوم، وإن كنتم تطلبون حماية الأشرار والمجرمين عندما يرتكبون الجريمة والشر كما وقع ذلك منهم كثيراً فافعلوا ذلك في بلادكم أولاً حتى أفعله معكم. أما أن تحرّموه في بلادكم وتبيحوه في بلادي فذلك منطق يرفضه الحق وتأباه الكرامة.



تجارة أحمد مكي وتجارة جحا!..[1]

وصـرت إذا أصـابـتـنـي سـهـام   تـكـسـرت الـنـصـال عـلـى الـنـصـال

أجل إننا ما زلنا نتلقى السهام من أعداء الإسلام واحداً تلو الآخر ما بين بعيد عنه وقريب منه، حتى أصبح ذلك أمراً عادياً مألوفاً لأنفسنا، وحتى أصبحنا لا نرى العجب في كثرة المتهافتين على عداوة الإسلام بل في قلتهم أو سكوتهم عن الطعن والافتراء! وأعداء الإسلام من أبنائه أحد اثنين: إما جاهل لا يفقه من دينه شيئاً، نشأ في محيط غير إسلامي، وتثقف بثقافة لا دينية، فغدا يطعن في الإسلام عن جهل وغفلة وغباوة، وإما غرٌّ مفتون بالشهرة، مبتلى بحب الظهور، فهو يفتري على الإسلام ويشوه حقائقه ويتلاعب في أحكامه، حرصاً على أن ينعت بكلمة التجديد أو يوصف بحرية التفكير، فيكون له بعد ذلك من انتشار الصيت واتساع الذكر ما يجعله محط أنظار الشباب، وموضع ثقتهم وإعجابهم.

وهنالك فريق من أبناء المسلمين شب على ضعف في العقيدة، وانحطاط في الخلق، واضطراب في الثقافة، فغدا يتلمس وسائل الرزق والمال فلم يجد غير الزلفى إلى خصوم الإسلام وشانئيه، فتنازل لهم عن عقيدة آبائه وأجداده، وتظاهر بالتجرد من عصبية الدين، وأطلق لسانه وقلمه في التمدح بأخلاقهم وعاداتهم وعقائدهم أيضاً! كل ذلك لقاء وظيفة تكفل

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٥٤٨ العام الحادي عشر ١٣٥٦هـ.

له العيش، أو دراهم يملأ بها الجيب، أو خطوة يقضي بها المصالح، فيا سوء حظ الإنسانية بأمثال هذه النفوس الوضيعة الساقطة!

أعرف واحداً من هؤلاء تلقى علومه في معهد كاثوليكي ثم حاز شهادته، وهو من ضعف الدين وسوء الخلق على جانب عظيم، وكان له زميل مسيحي وعده بإيجاد عمل له عند أبناء ملته، فما هو إلا أن عق دينه، وهجر أمته وأطلق لسانه في شتمها وذمها ولازم زميله ملازمة الظل لصاحبه، مبدياً إعجابه بما عليه هو وقومه من تقاليد وعقائد وأخلاق ومنكرات، وأخيراً برّ له صاحبه بوعده فازداد في التقرب والتملق ولا يزال حتى اليوم يسبح بحمد أولياء نعمته، ويثني على حسن أخلاقهم وسمو آدابهم!...

هذا واحد من كثيرين خسروا الدين والخلق وأغضبوا الله والرسول ليسلم لهم الحقير من متاع الدنيا، وتتلذذ أسماعهم بترديد آيات الثناء الكاذب من ذوي الغايات والأغراض، وأنا لم أشك قط حين قرأت ما نقله الأخ الأستاذ علي الطنطاوي أجزل الله مثوبته عن ذلك المسمى (بأحمد مكي) في أن هذا الأحمق الذي زعم أن المسيح ابن الله وهو يحمل اسماً إسلامياً وينحدر من بيت إسلامي إن هو إلا أحد أولئك الذين ابتلي بهم الإسلام والمسلمون في العصر الحاضر..

ليست عقيدة التثليث وبنوة المسيح لله من العقائد التي تجد سبيلاً إلى العقول، وحسبك أن تجتمع بأي مسيحي مهما علا كعبه في العلم وتناقشه في تلك العقيدة لترى كيف يتقهقر أمام الحجة الدامغة، وكيف يقف حائراً مرتبكاً لا يدري كيف يدافع عن هذه العقيدة وهي عنده أساس إيمانه والركن الذي لا يقوم دينه إلا عليه، وأذكر أني كنت في الصيف الماضي مسافراً من القاهرة إلى بلاد الشام، فالتقيت في الباخرة برجل عرفت منه فيما بعد أنه كان يتلقى علوم اللاهوت في مدرسة للرهبنة في مصر وقد أنهى دراسته وأنه عائد إلى الشام ليرسم قسيساً في إحدى الكنائس، وامتد بنا الحديث حتى تناول مسألة التثليث، وأخذنا نتناقش فيها في جو يسوده الهدوء والصفاء، وكان يحاول أن يثبت قبول العقل لعقيدة التثليث بأمثلة لا ألبث أن أزيفها له واحداً فواحداً،

حتى إذا انقطعت حجته سكت قليلاً ثم قال: الحق أن عقيدة التثليث لا يمكن أن يفهمها إلا من امتلأ قلبه بنور الإيمان بالمسيح فأنت تحاول فهمها الآن عبثاً!. فضحكت وقلت له: هب أن وثنياً أراد أن يدخل في دينك فبماذا تأمره؟ قال: آمره بالإيمان بالأب والابن والروح القدس الإله الواحد! قلت: فإذا قال لك كيف يكونون واحداً وهم ثلاثة وطلب منك البرهان العقلي على ذلك فماذا تقول له؟ أتقول له أن فهمها يحتاج إلى إيمان؟ وهل يكون مؤدى قولك هذا إلا تناقضاً مضحكاً يبرأ منه العقلاء؟ قال: وكيف ذلك؟ قلت: المسألة بسيطة، فمؤدى كلامك هكذا: التثليث لا يفهم إلا بالإيمان بالمسيح، والإيمان بالمسيح لا يتم إلا بالتثليث فالتثليث لا يفهم إلا بالتثليث. وهذا قياس منطقي من الشكل الأول بدهي الإنتاج كما يقولون!. فأكمد وجه الرجل وتغير الرجل وتغير لونه وقال: على كل حال أنا لست على قدم راسخ في العلم فإن أحببت أن تقتنع بهذه العقيدة فاسأل من هو أكثر مني علماً وأعلى في الكهنوتية مقاماً، ثم ولى مغضباً وهو يتعوذ بالله من هذه الساعة السوداء التي تغلب فيها الباطل على الحق والضلالة على الهدى بزعمه؟!.

وصفوة القول أن التثليث لا يفهمه المسيحيون أنفسهم وكثير منهم لا يعتقدون به. فلا يعقل أن يفهمه هذا المسلم الجغرافي أو يعتقده، ولا سبيل أيضاً إلى أن يكون قد قال هذا القول مبتغياً من ورائه الشهرة إذ ليس من سبيلها القول بأشياء يحكم العقل ببطلانها، وإذاً فليس هنالك ما يدعوه للقول بتلك العقيدة إلا أن تكون له مصلحة خاصة يرجو تحقيقها بهذا القول وقد قال عنها الأستاذ الطنطاوي أنها هي التقرب إلى وزير معارف لبنان المسيحي لينقله من القرية إلى المدينة!.. أسمعتم يا أيها الناس؟ رجل يغير عقيدته ويقول ما لا يقبله عقل ليتم له النقل من مكان إلى مكان؟ ولعمر الله أن جحا كان أعقل منه. فلقد ذكروا أنه رحمه الله كان قد اشترى سلعة بخمسة قروش فباعها بأربعة. أما هذا فقد انتقل من النعيم إلى الجحيم لينقل من قرية إلى مدينة؟ فهل يكون الناس مخطئين إذا ضربوا المثل بعد اليوم بتجارة (أحمد مكي) بدلاً من (تجارة جحا)؟

وبعد، فنحن لا نكتب عن هذا الرجل المرزوء في عقله وخلقه لمكانته الاجتماعية فأنا لم أسمع به قبل اليوم وهو أهون من أن نضيع في سبيله دقيقة واحدة، ولكنا نكتب لنستخرج العبرة من حادثته ولنعالج فيها مشكلة خلقية خطيرة لها أكبر الأثر في تحويل مجرى حياتنا العامة إن تفاقمت واتسعت. هذه المشكلة هي الاستهانة بالفضيلة والآداب والرجولة والدين أيضاً في سبيل الوصول إلى المنافع الشخصية والمآرب المادية!.. فقد انتشر هذا الخلق الساقط في كثير من الأوساط البعيدة عن الدين والأخلاق، وأصبحت العقائد والمبادىء الإنسانية السامية سلعة تشترى وتباع بالدرهم والدينار، ولسنا نعلم خلقاً أشد هدماً لكيان الأمة من هذا الخلق المادي الوضيع بل لا نعلم أمة اتصفت به غير اليهود ومن أجله عوقبوا بفقدان الملك وضياع العزة والتشتت في بقاع الأرض إلى يوم الدين!

مقياس الرجولة في الرجل ثباته على عقيدته ومبدئه، وليس أدعى إلى إكبارك له وإعجابك به من دفاعه عن عقيدته بكل ما يملك وتحمله في سبيلها صنوف الأذى والآلام، ولا أدعى إلى احتقارك له وازدرائك به من مساومته على عقيدته، وبذلها بثمن بخس لمن يحقق له غرضاً من أغراض النفس الشهوانية الفانية، ومن غرائب الصدف أن يعلن (أحمد مكي) عن مبلغ انحطاط الرجولة في نفسه باستهتاره في عقيدته في الوقت الذي كان يقف فيه السيد (خالد شلدريك) على منبر جمعية الشبان المسلمين في القاهرة متحدثاً إلى الجماهير عن سبب إسلامه بقوله: «كان أبي من رجال الكهنوت وكان يطمع مني أن أنهج نهجه وألحق به في الرهبنة، وكان يلقي إلي بالكتاب المقدس لأكثر من تلاوته وسني إذ ذاك خمسة عشر عاماً وكنت أمعن النظر في ديانة أبي وعقيدته فأرى فيها ما لم يقبله عقلي قط. من ذلك أن الحجر الأساسي لعقيدة المسيحيين هو الاعتقاد بأن الله هو الأب والابن والروح القدس الإله الواحد، وأنا لم أفهم حتى اليوم كيف يكون الواحد ثلاثة والثلاثة واحداً وكيف يكون الابن والأب إلهاً واحداً، ومن ضرورة كون المسيح ابناً أنه متأخر عن أبيه في الوجود فكيف كان هذا الإله الواحد

موجوداً قبل أن يوجد المسيح؟ هل كان الموجود كله أو بعضه؟ وإن كان كله فكيف ذلك والمسيح لم يوجد بعد وإن كان بعضه فكيف يوجد بعض الإله قبل أن يوجد بعضه الآخر؟ إلخ» فتصور الفرق بين هذين: هذا رجل إنكليزي ولد من أبوين مسيحيين وعاش في بيئة كهنوتية ولم يكن يعرف من العربية شيئاً قط، فأنف أن يعتقد ما لا يعقله ثم أنف أن يسكت عما لا يقبله فجهر برأيه في دين أبيه وقومه وناله من أذاهم الشيء الكثير، وما زال ثابتاً على الجهر بالحق حتى الساعة التي وقف فيها بين إخوانه المسلمين ينتقد فيها ديانة أمته غير هياب للنقد ولا خائف من اللوم، وذاك رجل عربي ولد من أبوين مسلمين وعاش في محيط إسلامي وهو ابن عالم من علماء المسلمين، ثم لا يستحيي من أن ينبذ ما تهدي إليه الفطرة، ويقول ما ينكره العقل، سعياً وراء منفعة صغيرة عاجلة فانية!... ألا قبح الله من لا كرامة له.

ألا إن هذا وأمثاله خزي على الأمة وشر على الأخلاق فيجب أن يعالجوا علاجاً حاسماً سريعاً وعلاجنا نحن معاشر الكتاب التشهير بهذا الخلق في الصحف وبيان ما يرتكب في حق الدين والأمة من آثام وسيئات، أما غيرنا فقد يملك من العلاج ما هو كفيل برد عقول هؤلاء إليهم وإيقافهم عند الحد الذي يجب عليهم أن يلزموه!



هوى الكوكب الهادي[1]

هوى الكوكب الذي تألق في سماء البيان العربي فبهر الأبصار لقوة ضيائه.

هوى النجم الذي هدى السارين في ظلمات الباطل ونجاهم من بيدائه.

مضى العلم الذي حمى الحق من كيد خصومه ومكر أعدائه.

مضى الإمام الذي جمع حوله القلوب بحسن دفاعه عن القرآن وجميل ولائه.

مضى القائد الذي كان في المعارك حارس الإسلام وحامل لوائه.

مضى ناصر اللغة حين أزرى بها المستعجمون، ومؤيد القرآن حين هاجمه المضللون، والمدافع عن الدين حين تألب عليه المفترون والمنافح عن تراث الإسلام يوم ازدراه المفتونون، فكان هو البطل الذي أحرز لقومه النصر في كل موقعة، والجحجاح الذي ألحق بأعدائه الهزيمة في كل معركة، وبينما قومه يحوطونه بالتأييد، ويتطلبون منه المزيد، لم يرعهم إلا هدوء الميدان وخفوت الحركة، فانطلقوا يتساءلون: ما الخبر؟ فإذا هي النكبة

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٥٥٠، العام الحادي عشر ١٣٥٦هـ. في مناسبة وفاة مصطفى صادق الرافعي رحمه الله.

المؤلمة التي أذهلت العقول، وإذا هي النازلة المفجعة التي أدمت القلوب. لقد استشهد البطل. لقد مات مصطفى صادق الرافعي فإنا لله وإنا إليه راجعون.

مات الرافعي؟ تلك هي الكلمة التي رددها الناس ذاهلين حين سمعوا صوت الناعي، يا عجباً أيموت من كان حتى ساعة الوفاة شاغل الدنيا ومالىء سمعها؟ أيموت من لم تهدأ له حركة، ولم يسكت له قلم، ولم يعرف عنه راحة ولا سكون؟ أينتقل هذا النابغة العظيم في أقل من طرفة عين من حركة دائبة إلى هدوء دائم، ومن حياة واسعة إلى حفرة ضيقة؟ ولكنه الموت نهاية كل حي، فاستسلموا لحكم الله تتناثر من أعينهم الدموع، وتتصعد من أفئدتهم الزفرات.

ليس بعجيب أن تجزع الأمة لموت الرافعي، فلقد اتصل، رحمه الله، بأوتار أفئدتها فضرب عليها حتى هز منها المشاعر، وأثار فيها الإعجاب بأدبه، واستحق منها التقدير لنبوغه، وأي شيء يهز مشاعر الأمة أكثر من أن يهاجم كتاب الله شرذمة من النوكى فينبري لهم الرافعي الكاتب، يلوح لهم بالبرهان، ويقرعهم بالحجة، ثم ينقض عليهم انقضاض الصاعقة فيجعلهم أثراً بعد عين؟ وأي شيء أبعث على رضا الأمة من أن يرمي لغتها بالقصور والجمود نفر يرطنون كما ترطن الأعاجم فيبرز لهم الرافعي الأديب يقيم لهم الدليل تلو الدليل على أن لغة العرب أوفى لغة؛ وبيانهم أجمل بيان وإذا لم تستسغها أذواقهم فذلك يرجع إلى ما في حلوقهم من مرارة لا إلى ما في لغتهم من حلاوة؟ وأي شيء أدخل للسرور إلى قلب الأمة من أن يرمي الإسلام بعض أعدائه بما يحسبونه مذمة ونقيصة فلا ترى إلا الرافعي المسلم يعرض عليها من أسرار التشريع ما لم تقرأه في كتاب ولم تسمعه من عالم، فكأنما كشف له الغطاء فرأى ما رأى من حكم الله في تشريعه فهو يلقيه إليها بأسلوب عجيب، وبيان ساحر، لترى فيه جمال الحق الذي جاء به الإسلام وتميزه من قبح الشهوة.

ولا يكاد الناس ينتهون مما قرؤوا له حتى يحملهم الطرب على ترديد ما قرؤوه كما يردد الجند أنشودة النصر حين يخرجون من المعركة ظافرين، وأي شيء أدعى إلى تقدير الأمة من أن ترى أكثر علمائها ينغمسون في المادة، ويجرون وراء الأهواء، ويتخلون عن مركز القيادة، فلا تجد إلا الرافعي العالم وحده يذكر العلماء بحق العلم وأمانته وروحانيته، ثم ما يزال بهم حتى يأخذ بأيديهم إلى الجنيد والفيروزأبادي[1] وابن دقيق العيد والعز بن عبدالسلام فيجلسهم في حلقات دروسهم يستمعون إليهم وهم يقولون: «ومن ذلك كان شر الناس هم العلماء والمعلمين إذا لم تكن أخلاقهم دروساً أخرى تعمل عملاً آخر غير الكلام، فإن أحدهم ليجلس مجلس المعلم ثم تكون حوله رذائله تعلم تعليماً آخر من حيث يدري أو لا يدري ويكون كتاب الله مع الإنسان الظاهر منه وكتاب الشيطان مع الإنسان الخفي فيه[2]» ويقولون أيضاً: «فما يحسن بحامل الشريعة أن ينطق بكلام يرده الشرع عليه؛ ولو نافق الدين لبطل أن يكون ديناً، ولو نافق العالم الديني لكان كل منافق أشرف منه، فلطخة في الثوب الأبيض ليست كلطخة في الثوب الأسود، والمنافق رجل مغطى في حياته ولكن عالم الدين رجل مكشوف في حياته لا مغطى، فهو للهداية لا للتلبيس، وفيه معاني النور لا معاني الظلمة، وذاك يتصل بالدين من ناحية العمل فإذا نافق فقد كذب وغش وخان[3]».

ثم أي شيء أدعى إلى إعجاب الأمة وتقديرها واحترامها من أن ترى الرافعي الاجتماعي يصور المجتمع وأمراضه بريشة المصور الماهر، ويكشف عن كل ناحية من نواحيه، ثم يشرح هذا الجسم المريض بمبضع الطبيب

---

(١) الفيروزأبادي: محمد بن يعقوب بن محمد، أبو طاهر: من أئمة اللغة والأدب، ولد عام ٧٢٩هـ وتوفي ٨١٧هـ، من أشهر كتبه القاموس المحيط.

(٢) من مقالة الأسد.

(٣) مقالة (أمراه للبيع) آخر ما كتبه الفقيد رحمه الله. وكان قد توفي عام ١٣٥٦هـ.

الحاذق، فيصيب العلة في مكمنها، ويعمل على مداواتها بما وهبه الله من عقل واسع وفكر راجح ورأي سديد؟

هذا هو الرافعي الذي فقدناه بالأمس. أفعجيب أن تجزع الأمة لمن كان للقرآن والدين والأدب والعلم نصيراً وعلى أعدائها حرباً عواناً لا يعرف معهم مسالمة ولا مهاونة؟ أفعجيب أن تجزع الأمة لموت الرافعي وقد كان آية من آيات الله، ومفخرة خالدة للعرب وآدابهم؟ أفعجيب أن تجزع الأمة لموت الرافعي وقد كان أمة وحده وتاريخاً وحده، ونابغة فذاً في هذا المجتمع، وهيهات أن يملأ فراغه اليوم عالم أو يقوم مقامه أديب؟..

تباركت يا رب، أعطيت هذه المفاخر لإنسان، وجمعت هذه الآداب والعلوم في عقل، وسخرت هذه البلاغة الساحرة لقلم. فسبحانك تؤتي الحكمة من تشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.

سبحانك يا إلهي: علقت آمال أمة برجل، ونطت بيان أسرار شريعتك بكاتب، وجمعت قلوب المسلمين حول فرد، ثم اخترته لجوارك على حين حاجتهم إليه، فبكى الدين خادمه، والأمة أملها والمسلمون محبوبهم.

وما كان قيس موته موت واحد   ولكنه بنيان قوم تهدما

اللهم إنه لم يمت رجل، ولكنما رفعت هداية، وطويت حكمة، وانهدَّ بنيان، وانطفأ نور، وإن عقل المخلوق الضعيف ليعجب كيف يصطفي الموت من بسط رداء الحق، وهدى حيرة العقل، وأزاح ظلمة الجهل، ثم يترك المبطلين يضلون عبادك، والآثمين يهاجمون كتابك، والملاحدة يمكرون بدينك، ولكن العقل يعلم مع هذا أن هنالك حكمة أنت تعلمها، وأموراً أنت مقدرها، وقضاء يجب الإذعان له.

اللهم إن كنا نجزع فإنما نجزع لشدة المصيبة لا اعتراضاً على قضائك، وقديماً قالت صفية عمة نبيك صلوات الله عليه حين فجع به المسلمون:

فلو أن رب الناس أبقى نبينا   سعدنا ولكن أمره كان ماضيا

وإن كنا لا نملك رد المصيبة فإننا نملك أن نسألك أن تمطر شآبيب رحمتك على جدث الفقيد، وأن تجزيه على ما قدم لأمته ودينه من خدمات، وأن تبعثه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأن لا تحرم الأمة من روح «رافعية» أخرى.

سلام على روح الأديب الكبير، سلام على حجة الأدب ونابغة العرب، وعزاءً أيها المسلمون وصبراً.



من أحاديث رمضان [1]

قال رمضان:

. . . وكذلك إذا أردت أن تعلم مقدار ما بلغته الأمة من عظمة وارتقاء، فأحصِ زعماءها وانظر إلى وجهتهم فيها، وإلى تنوع خدماتهم لها، وانظر في ذلك نظر الباحث المدقق لا تغررك ظواهر ولا تبهرك زخرفة ولا بهرجة.

وإذا أردت أن تعرف أقدار الزعماء، فقارن بين أقوالهم وأفعالهم، وبين ماضيهم وحاضرهم، وفي الصلة بينهم وبين أمتهم التي وجدته مسرعاً إلى العمل أكثر من تسرعه في القول، منسجماً مع حاضره، ثابتاً على مبدئه من بداية أمره إلى آخره، محبباً إلى الأمة متفانياً في مصالحها العامة؛ فذلك هو الزعيم الذي يستحق السمع والطاعة والحب والإجلال.

وإذا شئت أن تبحث عن خُلق الأمة وما عليه من طهارة وشرف وإباء وعلم وحلم وكرم ووفاء، أو عكس ذلك كله، انظر إلى خلق قادتها البارزين المتبوعين، وبذلك تعلم ما خفي من خلقها من غير تعب ولا عناء.

وإذا أحببت أن تعرف مبلغ إخلاص القائد فابحث عن أعداء الأمة إليه ومعاملتهم له، فإذا ألفيتهم ينعتونه بالعدو، ويعاملونه معاملة الخصم العنيد

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العام العاشر ١٣٥٤هـ.

الشديد، فذلك الذي مقدماً للأمة جهاده، وصدقها وُدَّه وبذل لها روحه وجسده.

وإذا أردت أن تعلم أي القادة أنفع لأمته، فانظر إلى ذلك الذي يبسط منهم للحق رداءه، ويمد إلى التعاون يده، ويتناسى أنانيته ولذته ويطأ بقدميه شهوات الحكم والرئاسة حين يدعوه داعي الجهاد لإنقاذ البلاد، فذلك الذي بلغ الذروة في القيادة، وكانت حياته بركة للأمة، وجهاده رحمة للعامة، وفقده ثلمة في كيان الوطن لا يسدُّها إلا عظيم مثله يقتفي أثره.

ذلك هو مقياس عظمة الأمة وخلقها والزعامة فيها، وهو مقياس دقيق حقيقي ما زلت أستعمله منذ أربعة عشر قرناً إلى اليوم من غير أن يخطىء مرة واحدة.

قلت: إنك قد شهدت الغابر والحاضر ورأيت بعينك عز الإسلام وذله، فكيف أنتج مقياسك في أمتنا الحاضرة وزعمائها؟

فتأوه طويلاً ثم قال: يا أسفا على أمتك، ويا حسرتا على زعمائها. لقد هلك التابع والمتبوع.

تسألني عن أمتك وزعمائها، وهل كانت الأمة إلا كما أحب الزعماء أن تكون، وهل لنا أن نحكم عليها بخير أو شر وهي في قبضة الزعماء يصرفونها كما يحبون؟ كلا لا تسلني عن الأمة، ولكن سلني عن زعمائها كيف يتصرفون!

لقد طوَّفتُ في أنحاء الدنيا قديمها وحديثها، وأدركت كثيراً من الأمم في شبابها وهرمها، فما رأيت أعجب من أمر زعمائكم الحاضرين.

في كل أمة من أمم الأرض نرى زعماءها أيقاظاً للنوائب، حفاظاً للعهد، شعلة من الذكاء متقدة، وحركة دائبة غير منقطعة. يصرفون الأمور بعين البصيرة، ويقودون الأمة إلى وضح الحقيقة، إن دهمتهم داهية كانوا يداً واحدة في درء البلاء، وإن شعروا بعدوان باغ كانوا جميعاً إلباً على الأعداء، يضحون بالأنفس والأموال في سبيل أقوامهم راضية بذلك نفوسهم، منشرحة

أفئدتهم، وكذلك عهدنا بالزعماء يتعبون ليهنأ المجتمع، ويشقون لتسعد البلاد، ويموتون لتحيى الأمة.

أما زعماء أقطاركم المختلفة فقد نشأوا في أمة ضعضعتها نكبات الدهر، وفرقتها غِير الأيام، وأفسدتها سياسة الحكام، ثم رأوا بأعينهم كيف توالت عليها المصائب، واعتدت على حقوقها الأمم ولعبت فيها الدسائس، فكان ذلك كله كافياً لأن يؤجج في أفئدتهم نار الجهاد، ويولد في نفوسهم الشعور بالمسؤولية الكبرى، ويدفعهم إلى الإنقاذ والإصلاح بإخلاص وإيمان، حتى يخلّصوا الأمة من براثن الأغيار، ويوقظوا فيها الحمية لكرامتها والحيطة لعزتها، ويكونوها تكويناً جديداً قائماً على اليقظة والعزة والخلق والتقوى لتتبوأ مكانتها تحت قبة السماء. ولكن ماذا فعل زعماؤكم؟ لقد أخجلني والله صنيعهم. وأنا لا أريد أن أذكر الآن كل ما في سجلاتهم من أعمال سيحكم عليها التاريخ. ولكني أستحلفك بربك: ألم يخدروا أعصاب الأمة ويقضوا على استعدادها للنضال؟ ألم تفرقهم دسائس الأعداء وشهوات الحكم ومظاهر الزعامة؟ ألم يحوّلوا الأمة عن طريق العفة والتدين والحياة والقوة، إلى طريق ملتوية معوجة، أولها شهوة وأوسطها شقوة وآخرها ذلة؟ ألم يؤثروا لذة الراحة على عناء الجهاد، ويفضلوا عيش الترف والعظمة الكاذبة على عيش التقشف والضنى في سبيل الله؟ ألم يتفرقوا والبلاد في شقاء والأمة في بلاء؟ انظر. إنهم يتقاتلون، إنهم يتخاصمون، إنهم ينهش بعضهم أعراض بعض، والعدو الجاثم على الصدور المحتل للبلاد المدجج بالسلاح يقف منهم موقف المتفرج الضاحك الساخر! يا سوء المنقلب ويا بئس المصير.

قال رمضان: قد تدهشك ثورتي هذه في وجه زعمائك، وقد تقول أنك سلكت سبيل التعميم وكان الأولى بك أن تخصص، ولكني أحب أن تعلم حق العلم أن أمتك لا تزال فقيرة في قادتها ومحتاجة حتى إلى قائد واحد فقط يستجمع كل شروط الزعامة والقيادة، وأن قول الأستاذ صاحب (الفتح): «المسلمون إلى خير ولكن الضعف في القيادة» ربما يكون أقرب

إلى الحق والواقع لو قال: «المسلمون إلى خير ولكن الموت في القيادة».

قلت: والآن يا رمضان ادلِ إلينا برأيك في هذا الليل الحالك.

قال رمضان: اسمع مني بارك الله فيك. كنت البارحة أتجول ليلاً في مجتمعات للصائمين أدوّن عنهم مذكراتي، فإذا بي ألمح شاباً طويل القامة نحيل الجسم مشرباً وجهه بحمرة وهو جالس إلى مكتبه في غرفة يشع منها بصيص من النور، وبجانبه آخر ما أحسب إلا أنه زميله، فاقتربت منهما لأسمع حديثهما، وإذا بالشاب يقول لزميله بلهجة تمتلىء قوة وتفيض حماسة:

نحن أمة عرفت بالإباء وشهرت بالرفعة، فحرام أن تذل لعلوج الغرب وطواغيته!. نحن أمة ملكت العالم واقتادت زمامه، فحرام أن يتحكم فينا اليوم من كانوا بالأمس يرجون منا المعونة. نحن أمة لا تزال تجري في عروقها دماء العزة فحرام أن نستكين وفينا هذه الدماء تجري!. نحن أمة صهرتها حوادث الدهر حتى ابيض فاحمها، فحرام أن لا نحسن تطبيق ما تعلمناه على ما نعمله، نحن أمة ألقى الزمان الأنكد أمرها إلى أيدي من تعلم من الزعماء، فحرام أن لا ننبههم إلى خطيئاتهم. نحن أمة لا تزال حية فتية، فيجب أن نسير الزعماء كما نعتقد، لا أن يسيرونا كما يحبون!

قال رمضان: فما كدت أسمع هذا حتى انتفضت انتفاض المحموم، وأيقنت أن الغابة لا تزال مليئة بالأسود. وأن أمة لها مثل هذا الشاب بقوة إيمانه ووفرة حميته لن تموت أبداً غير أن المشكلة الكبرى.. هي مشكلة الزعماء. فهل لك أن توصل ندائي إلى مسامعهم على صفحات «الفتح».

قلت: سمعاً وطاعة. قال:

قل لزعمائك: أن الخير كامن والقوة متوفرة، فهل لكم أن تنعشوا الخير مخلصين وتستمدوا القوة من معادنها لتستعملوها في رفعة الأمة؟

قل لزعمائك: إن الأمة أسلمت إليكم أمرها، ومدت إليكم يدها، وإن تفرقكم هذا لهو بترٌ ليدها وطعنةٌ نجلاء في فؤادها فكيف تبترون يداً أحسنت

إليكم، وكيف تطعنون فؤاداً حنى عليكم.

قل لزعمائك: من لم يتعظ بالتجارب فهو غافل، ومن لم تعلمه الحوادث فهو خامل، ومن يركب رأس شهوته فهو لنفسه، ومن كان أحد هؤلاء كيف يتقدم الصفوف أم كيف يقود.

قل لزعمائك: إن لم تكن لكم قدوة بالرسول وصحابته فليكن لكن إيمان الشيخ القسام وعصبته!..

قال رمضان: هذا حديثي إليك اليوم وربما حدثتك حديثاً غيره في وقت آخر.

قال رمضان:

... وأرى أن أختم حديثي معك بحديث جامع أبثك فيه آلامي، وأودعك فيه عبراتي، وأطلعك على ما يجول بخاطري، فإن أحببت نشره على الناس فعلت وإلا فأنت ورأيك.

كل أمة من الأمم لها تقلبات كثيرة من شباب وهرم وقوة وضعف وعزة وذلة، ولكل دور من هذه الأدوار التي تمر بها عوامل طبيعية تؤدي إليه، فقد تكون الأمة ذات عز يطاول الثريا رفعة وسناءً، ومدنية تُصلح نظم المجتمع وتضمن لأبنائه السعادة فيه، فما تزال في تقدم ونجاح واتساع ملك حتى يسري إلى مجموعها داء التواكل، ويدب في نفوسها دبيب التخاذل، وتخدر أعصابها شهوات الأهواء ولذائذ الحياة الفانية، فتنحدر إلى الهاوية انحدار جلمود من الصخر حطه السيل من عل، ولا تزال في الانحدار حتى تصل إلى القرار، تتجرع غصص الموت الذليل أمداً مديداً، بعد أن طعمت نعمة الحياة الكريمة أمداً طويلاً.

وقد تكون الأمة منهوكة القوى خائرة الأعصاب من نكبات تتالت عليها حتى أفقدتها روح الحياة أمداً ليس بالقليل، ثم لم تلبث أن تفتح أعينها للنور، وتلقي عن كواهلها أردية الخمول وتنهض نهضة الأسد الكاسر إذا

أطلق من أسارة فتمحو بالجهاد أعوام قليلة ما لحقها من وصمة الخمول قروناً عديدة، وتأخذ مكانها بين الأمم الحية أو تتزعم قيادتها لتحقيق ما تتطلبه البشرية المضطهدة من حق وعدل وسلام.

وفي كلتا الحالتين يجب أن تكون لها عين بصيرة تسوس بها أمورها على أساس الحكمة. ففي حالة قوتها يجب عليها الاعتبار بمن كان قبلها من أمم ملكت شؤون العالم زمناً ثم أبادها الدهر، فتبحث عن أسباب قوتها فتأخذ بها وعن أسباب انحطاطها فتحذر منها. وفي حالة ضعفها يجب عليها البحث عن الوسائل التي رفعت من شأن الأمم التي سبقتها فتتخذ منها سلماً تصعد به إلى سماء العظمة والرفعة. ولا أطيل لك في ضرب الأمثال على صحة هذه النظرية ففي تاريخ أمتك المسلمة وما مر عليها من أدوار مختلفة ما يجعلك تؤمن بما قررته لك إيماناً لا يخالطه ريب.

وأي عاقل ينكر أن من أكبر الأسباب التي رفعت شأن المسلمين الأول خشيتهم من الله جل جلاله، وانصرافهم عن ملذات الحياة المهلكة، ونظرهم جميعاً إلى غاية واحدة ومطلب أسمى، ذلك هو إعلاء كلمة الله في ربوع الأرض، ونشر لواء الإسلام خفّاقاً فوق الرؤوس. فلما خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ومزقوا شمل الوحدة التي أنعم الله بها عليهم، أذاقهم الله كأس الذل مترعاً، وما زالوا يعانون آثاره حتى اليوم. وأنتم الآن تتبرمون بما لحقكم من ذلة وتودّون النهوض مما وقعتم فيه من كبوة. وأنا لا أنكر أن روح اليقظة قد نشطت فيكم وبعثت من جديد مرة أخرى، ولكن الذي يستثير شجوني أن لا أرى لكم تلك العين البصيرة التي يجب أن تسوسوا بها أموركم، بل أراكم تتخبطون في دياجير من الفوضى؛ وتسيرون في طرق مظلمة خربة، وتتجهون في تفكيركم اتجاهات متباينة، فكيف يرجى لكم النجاح في نهضتكم وأنت على هذه الحالة المؤسفة؟

تودون استعادة ما كان لآبائكم من مجد كللوا به جبين الدهر شرفاً وفخاراً، ولكن أين أنتم اليوم من آبائكم بالأمس؟. «شتان ما بين اليزيدين

في الندى» فأولئك قوم جعلوا رضا الله فوق أهوائهم وطاعته فوق شهواتهم. أولئك قوم فهموا الإسلام قانوناً كلياً لا يتجزأ فأذعنوا لكل صغيرة وكبيرة فيه برضا وطيب نفس. أولئك قوم كانوا يتوقّون الذنوب كما تتوقّون اليوم جراثيم الأمراض، حتى لقد روى عنهم التاريخ أنهم كانوا في معركة فأبطأ عليهم النصر فأخذوا يتذاكرون فيما عسى أن يكونوا قد ارتكبوه من ذنوب، ففطنوا إلى أنهم لم يعملوا بسنة السواك في ذلك اليوم فأخذوا يشوصون أفواههم بالسواك حتى ظن العدو أنهم يرهفون أسنانهم لأكلهم أحياءً فانهزم شر هزيمة. أولئك قوم كانوا يرون الحياة وسيلة لنيل الدرجات العلى في الآخرة، فكانوا يردون حياض المنايا ونفوسهم ظمأى إلى ارتشاف كأس الشهادة يدعون الله ـ صباحاً ومساء ـ أن لا يردهم إلى بلدهم ولا إلى أهلهم ولا إلى أولادهم. أولئك قوم كان لهم من خشية الله ما كفل لهم انتظام الأمور في مجتمعهم، فكان الأمير منهم أشد حنواً على رعيته من الأم على ولدها، وكان العالم منهم لا يألو جهداً في ارشاد العامة إلى مناهج الحق ولو ناله في ذلك أذى أو عذاب، وكان الغنيّ منهم يجود بالمال راضية به نفسه، لا يبغي بذلك إلا رضاء الله جل شأنه، وكان التاجر منهم صادقاً أميناً عفيفاً في بيعه وشرائه، وكانت المرأة فيهم عفة الفؤاد طاهرة الذيل على آداب وانقياد لأحكام الله. أولئك هم آباؤكم وأولئك هم الذين انتصر ثلاثمائة منهم على ألف من المشركين في وقعة شهدتها بنفسي وكانت أول نصر أحرز في الإسلام. وأولئك هم أبطال القادسية واليرموك وحطين وغيرها من المعارك الشهيرة في التاريخ. أما أنتم اليوم فأمراؤكم ظالمون، وعلماؤكم نائمون، وأغنياؤكم ضنينون، وشبابكم مفتون، وتجاركم غشاشون كذابون، ونساؤكم متبرجات منصرفات عن هدى الله. أما أنتم اليوم ففي غرور يملأ أدمغتكم، وفي شهوات تستولي على أفئدتكم، وفي غفلة غشت على أبصاركم. ترون الدنيا أعز ما يطلبه الرجال، والترف أسمى ما تطمح إليه الأنظار، والمال والجاه الكاذب أحق ما يقتتل عليه الأبطال، فلا غرو أن تخضع لآبائكم الدنيا وأن تخضعوا أنتم للدنيا، ولا غرو أن يعطيهم الله ما

أرادوا إذ كانوا معه كما أراد، وأن يسلب منكم ما أعطاهم إذ كنتم مع الأهواء كما تريد. ولا غرو أن يملوا إرادتهم على العالم وأن يملي عليكم إرادتهم شذاذُ العالم. أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله؟ أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم؟ أفنجعل الذين آمنوا كالذين كفروا أم نجعل المتقين كالفجار؟

ذلك هو الفرق بينكم وبين آبائكم، وذلك هو السبب الحقيقي لفشلكم في نهضتكم، بينته لك على حقيقته. والآن وقد أزمعتُ على الرحيل اليوم فلي إليك رجاء في إبلاغ كلماتي هذه إلى أسماع إخوانك المسلمين:

أيها المسلمون، كيف ترضى أمة لها دين وعقل وذكاء أن يسوسها أقوام في طباعهم جفوة وفي قلوبهم قسوة، وفي خلقهم نَبْوة. تتنافى آدابهم مع آدابها ولا تلتئم أذواقهم مع أذواقها ثم هي على إشراك بالله وكفر بدينه؟.

أيها المسلمون، إن كان أعداؤكم ملكوا الدنيا وهم على شِرك بالله، فما أحراكم بالملك وأنتم على إيمان به. وإن كانوا سادوا العالم وهم على مجون ودعارة، فما أحراكم بالسيادة وأنتم على تقوى وطهارة!.

أيها المسلمون، إن الحياة نعمة لا يستحقها إلا الشاكرون. وما الشكر عليها إلا صمود لنوائب الدهر، ويقظة لدسائس العدو، وعمارة للأرض بنشر دين الله في أرجائها!.

وداعاً أيها المسلمون، فقد أضنى الأسى كبدي، وقرع البكاء جفوني؟.

وداعاً أيها المسلمون، فسألقى اليوم ربي أشكو إليه ذل التوجه وعز الشرك واضطهاد الهدى وقسوة الأشرار وموت الضمائر إنما أشكو بثي وحزني إلى الله!.

قال رمضان: وأنت أستودعك الله.

ثم مضى في طريقه وكأنما تقطعت نفسي على فراقه حسرات.

أيها المسلمون[1]
غداً يكون العيد، فاذكروا بكاء اليتامى ولوعة الأرامل...

اليوم يقف جماهير المسلمين الوافدين من مسالك الأرض إلى البيت الحرام؛ يقفون جموعاً متراصة برؤوس مكشوفة، وأقدام حافية، وأجسام كالعارية، ونفوس خاشعة متواضعة؛ يقفون كما وقف رسول الله ﷺ وصحابته من قبل على هضبة مرتفعة في تلك البقاع المقدسة الطاهرة يبتهلون إلى الله ويرفعون أصواتهم إليه بالتكبير والتحميد ويسألونه غفران الذنوب وقضاء الحاجات وتفريج الكربات عن صدور المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فاللهم تقبل واستجب.

وغداً تنحر الذبائح، وتوزع الصدقات، وتتصافح الأيدي، وتُلبس الثياب الفاخرة، ويغدو المسلمون في مرح وحبور، غداً يكون العيد ولكن أي عيد هذا؟

العيد عيد القلوب المنشرحة لا الألبسة الزاهية! العيد عيد النفوس المطمئنة لا البطون الممتلئة! العيد عيد الأمة المستقلة، المزهوة بعزة النصر وكرامة المجد، لا عيد الأمة الرازحة تحت أعباء الذل، المكبلة بقيود النكبات، المرغمة على أن تعيش عيش البهائم والجمادات!..

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٥٨٨ العام الثاني عشر ١٣٥٦هـ.

غداً يكون العيد وتبتسم الشفاه! ولست أدري ـ ورب محمد ـ كيف نكون غداً في عيد، وهناك في ثلاثة أنحاء من عالم المسلمين نيران تتأجج، وبراكين تتفجر، وموت يلتهم الأطفال والعجزة والنساء والرجال.

لست أدري كيف تبتسم الشفاه غداً وفي قلب العالم الإسلامي ثلاث نكبات كل واحدة منها تفتت حبات القلوب والأكباد، فيا حسرتا على الغافلين! تحترق قلوبهم وتبتسم شفاههم!..

أي عيد سيكون غداً وهؤلاء إخواننا المسلمون الصينيون في مقدمة أهالي الصين الذين تسلط عليهم اليابان الجائرة أفظع أنواع التنكيل والدمار؟

أي عيد سنفرح به غداً وهؤلاء إخواننا في المغرب الأقصى يلاقون الجوع والعذاب والقتل والتشريد على أيدي أبناء الحرية والتمدن والحماية المزعومة!؟ حتى لقد بلغ ما يلاقونه من عسف وجور أن مات بعض زعمائهم في الصحراء بعد أن منع عنه الطعام أياماً كاملة، وأن كان الرجل منهم يعلق من رجليه في جذع شجرة ثم يدلى في الهواء تنهشه سياط الظالمين وأعقاب بنادقهم!..

أي عيد سيطالعنا غداً وها هي فلسطين البائسة الشهيدة المضرجة بالدماء ما زالت تلقى من أذى المستعمرين وطغيانهم ما لا يتحمله حيوان ولا جماد. أما الزعماء فشتتوهم، وأما المفكرون والقضاة والعلماء فسجنوهم في أكواخ خشبية على أرض رطبة لا تدفع حر الصيف ولا تقي برد الشتاء وأمطاره، فإذا نزل بهم المطر سهروا الليل كله واقفين على أرجلهم حتى نقل كثير منهم إلى المستشفيات مصابين بأمراض قاتلة. وأما القرى فقد هدموها بالمتفجرات والقنابل حتى غدا كثير منها قفراً يباباً، وأما أهل القرى قد سلبوهم أموالهم وأتلفوا عليهم أقواتهم وانتهكوا حرمات أعراضهم، وروعوا الأطفال في أحضان أمهاتهم، وكم من طفل بائس أزهقت روح أبيه وهو يسعى لطعامه، وروح أمه وهي تحتضنه بذراعيها، وتفننوا في تعذيب الرجال والشيوخ تفنناً لا يمكن وقوعه في عصور الهمجية.

بمثل هذا التعذيب الوحشي، وبما لا يخطر ببالك من الفظائع المنكرة أزهقت أرواح بريئة لم ترتكب إثماً ولا ذنباً، وأما الحريات فقد أهدروها وامتهنوها حتى ما يستطيع الرجل أن يفضي إلى أخيه بسر أو يتفوه بكلمة.

وحتى كانوا يسجنون الناس في بيوتهم اثنتين وعشرين ساعة متعاقبة لا يذقون فيها طعاماً ولا شراباً.

وأما الحرمات الدينية فقد اجترأوا على امتهان كتاب رب العزة وداسوه بأرجلهم، وألقوا عمائم الأئمة تحت أحذيتهم، وساقوا علماء المسلمين إلى السجون مصفدين بالأغلال يُصفعون ويُضربون، كما يفعل بالمتشردين والمجرمين!..

لا أطيق أن أذكر أكثر من هذا فوالله إن يدي لترتعش وإن قلبي ليدق دقات مزعجة أخشى منها على حياتي. وحسبي أن أقول لك أن أعمال النهب والسلب والتخريب والقتل والتعذيب لا تزال مستمرة حتى هذه الساعة، وأغلب الظن أنها ستستمر طويلاً فإلى الله نشكو بقلوب مضها الظلم. فظائع هؤلاء الذين يزعمون المدنية قد حبّبت إلينا المتوحشين من أكلة لحوم البشر!

أفيفعل بالمسلمين كل هذا ثم يكون لنا عيد، ثم نتلاقى فيها ونبتسم ونلهو ونلعب؟! إنا إذاً لأمة حرام عليها أن تمتع بنعمة الحرية والكرامة!

أيها الحجاج المسلمون! اذكروا غداً حين تنقلبون إلى أهليكم فرحين مغتبطين، أن في الصين والمغرب الأقصى وفلسطين ظلماً هدَّ من قوة الشباب، وأزرى بكرامة الشيوخ وغض من حرمة الإسلام، وأحال معالمها ورياضها أطلالاً موحشة يأوي فيها الحزن والأسى!

إذ يروا غداً بكاء اليتامى تحت أنقاض البيوت، ولوعة الأرامل في ظلمات الليل، وحزن الآباء فوق رؤوس الجبال، وهيام الفقراء على وجوههم في الأزقة والشوارع!

اذكروا السعدي يوم شنق وهو صائم وقد ناهز الثمانين من عمره. واذكروا من قبله عمر المختار يوم أعدم وهو مشرف على السبعين. واذكروا مئات وألوفاً من الضحايا التي أزهقها أدعياء رسل السلام وحماة الشعوب وأحرار الفكر ودعاة التمدن!

اذكروا كل هذه ولقنوه أطفالكم وعلموه نساءكم ثم لا تنسوا أن تمدوا لأولئك المنكوبين أيديكم فلقد عظمت فيهم النكبة حتى أني لأعجب كيف بقوا إلى اليوم أحياء، وكيف يجدون ما يأكلون؟

تداركوهم وفي أغصانهم رمق
فلن يعود اخضرار العود إن يبسا

وأما بعد فلقد كانت شمس العيد تشرق على جيوش المسلمين وخليفتهم وفتوحاتهم وراياتهم المركوزة في قلاع الشرق والغرب، فترى في قسمات الوجوه ما يشجعها على الظهور، وفي بسمات الشفاه ما يضيف إلى ضيائها البهاء والنور، فتغدو مختالة وتغيب جذلة، حتى إذا طمست المعالم وتبدلت المناظر، تغير وجهها وزالت بهجتها وإني لأراها اليوم كمدة مصفرة، فيا عجباً! حتى الشمس داخلها من الحزن على دنيا المسلمين ما صيرها هزيلة نحيلة!

عليَّ عهد الله وميثاقه أن لا أفرح في عيد، ولا ألبس له الجديد، حتى أرى أمتي تملأ يديها بقوة الدين والخلق والحديد، أو ألقى الله عز وجل وإنه لعلى هذا العهد شهيد.

فهل تبلغ كلمتي هذه أسماع شباب المسلمين؟



العمى المزدوج!..[1]

ممن ابتُلي بهم الناس في هذا الزمن نفر ذهب الله ببصرهم وبصيرتهم، فغدوا يخبطون بغير علم، ويهرفون دون معرفة، ويثورون على الله في نظمه وأحكامه وأنبيائه وشرائعه ثورة لا أثر للبصر والعقل فيها، انتقاماً من الله بزعمهم إذ رماهم بنكبتين، وأنزل بهم مصيبتين، فجعل عماهم مزدوجاً مطلمساً، فجاءت ثورتهم عمياء كعمى قلوبهم، خرقاء كخرق عقولهم، مضطربة كاضطرابهم في مشيتهم حين يضلون السبيل. ولقد عرف الناس فيما مضى واحداً من هؤلاء أدى به عماه المركب إلى أن يتقول على الله الكذب، ويرمي رسوله بالوضع، ويهاجم دين الله مهاجمة لم يبلغ شأوه فيها أساطين المبشرين وأعداء الإسلام من المستشرقين!..

وهذا واحد آخر يزفه إلينا الأخ الأستاذ علي الطنطاوي في العدد الماضي من الفتح، فقد قص علينا اجتماعه به، ومحاورته معه محاورة أظهرت ما يكنه هذا الأعمى الجديد نحو دين الله وعلمائه وأئمته من بغض ومقت وازدراء، ولقد ذهب الأستاذ الطنطاوي إلى أنه ممن ذهبوا إلى أوروبا وعادوا إلينا وقد ركبوا بين كتفيهم رأساً فرنسياً، وأحب أن أذكر للأخ أن هذا الرجل قد ركب بين كتفيه رأساً يسوعياً في بيروت، قبل أن يركب له رأس فرنسي في باريس. وسأقص للقراء تاريخ حياة هذا الرجل كما قصها

---

(1) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٥٨٨ العام الثاني عشر ١٣٥٦هـ.

عليَّ أخ طرابلسيّ ثقة، ولولا أن هذا الرجل قد غدا على الرغم من أنوف المسلمين في سوريا معلماً لأبنائهم، ومدرساً لهم تاريخ دينهم وملتهم، لما شغلت القراء ولا شغلت نفسي بتاريخ هذه السفاهة الحمقاء الجديدة!

عارف العارف ولد في قرية من ضواحي طرابلس الشام وعرف في صغره بالسلاطة والهذر وسوء الطوية، فلما شب انتسب إلى المدرسة العلمية في طرابلس وكانت يومئذ معهداً لتثقيف الناشئة ثقافة دينية أولية ممزوجة بثقافة حديثة أولية أيضاً ومدتها أربع سنوات، فكان يُظهر في أثناء الدرس والمحاورة مع شيوخه وإخوانه ميولاً شاذة وآراء متطرفة لا يلبث أن يتراجع عنها حين يشتد عليه النكير ويضيق عليه الخناق، ثم نال شهادة المدرسة فرأى نفسه في حل من أن يظهر للناس بما هو عليه من سوء عقيدة وخبث ديانة، ولم يكد يجهر ببعض آرائه حتى ناله من الصفع والضرب ما اضطره للرحيل إلى دمشق فراراً مما وراء الصفع والضرب، وحاول الدخول في الجامعة السورية فلم يفلح، فتوجه إلى بيروت وعرض نفسه على الآباء اليسوعيين فيها وما كادوا يعلمون حقيقة أمره حتى أفسحوا له في مدرستهم، وأغدقوا عليه من نعمهم، وكالوا له من ألقاب العبقرية والنبوغ ما جعله كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد، ثم اتصل بعذ ذلك بالسيد بوقور مستشار المعارف في لبنان، وأكثر من التردد عليه حتى إذا اطلع المستشار على اضطراب دينه وسوء عقيدته سُرَّ منه أي سرور، ورأى فيه العبقري الذي يستحق كل تشجيع وتعضيد؛ والرجلُ من أبناء المسلمين لا يحتاج إلى أن يكون نابغة عبقرياً في نظر من يشنأون الإسلام أكثر من أن يكفر بالله ويطعن في كتابه! . .

وانتهى صاحبنا من دراسته عند الآباء اليسوعيين فأرسله المستشار الفرنسي إلى فرنسا على حساب الحكومة اللبنانية وخصص له سنوياً ستمائة وخمسين ليرة سورية، وما زال يتناول هذا الراتب الضخم حتى أتم دراسته في السوربون مع توصيات كانت تسبقه وتصحبه. ثم عاد إلى بلاده وقد مهد

له المستشار وآباؤه اليسوعيون بدعاية طويلة عريضة، فاستقبلته الصحف بالترحيب، وأخذت تضفي عليه الألقاب الفخمة الطنانة حتى سمته إحداها بالمعري الثاني وأخرى بطه حسين سوريا! وناهيك بتأثير هذه الدعايات والاستقبالات في ضعفاء القلوب والعقول، فكيف تظن تأثيرها في مثل نفس صاحبنا وقد تنكر للملة منذ كان في المدرسة اليسوعية ثم فقد عقله يوم أرسل إلى السوربون على حساب الحكومة اللبنانية؟!

قال محدثي: ولصاحبنا ولع في الظهور يفوق كل حد، وافتتان بالشهرة عجيب، كشأن هؤلاء الذين حُرموا رضاء الله فالتمسوا ثناء الناس ليقوم شيء مقام شيء في نظر عقولهم العمياء!.. وليس أدل على ذلك من أنه حين عاد إلى البلاد كلف بعض أصدقائه بكتابة مقال في صحيفة فرنسية مملوء بما لذ وطاب من أحاديث الثناء والإعجاب! وكلف صديقاً له آخر بشراء عدة أعداد من كل صحيفة مدحته وأثنت عليه ليرسلها إلى إخوانه وأصدقائه في فرنسا!

قال محدثي: هذا مجمل الحديث عنه منذ نشأته إلى عودته من فرنسا، أما ما بعد ذلك فقد قصه عليك الأخ الطنطاوي.

وبعد، فإني والله لا أدري السر في موقف وزارة المعارف في حكومة الشام من الإسلام وتاريخه إلا أن يكون الذي يسير شؤون الوزارة من وراء رجالها الوطنيين المسلمين رجال آخرون مقنّعون غرباء عن البلاد ما يزالون يسيطرون على كل كبيرة وصغيرة فيها!. وإلا فقل لي بربك كيف قفز عارف العارف من لبنان إلى سوريا واحتل كرسي الدراسة في تجهيزية دمشق ثم وكل إليه أن يدرس تاريخ الإسلام وهو لبناني أولاً، وربيب اليسوعيين ثانياً، وصديق المستشار بوقور ثالثاً. أما أن يكون ذلك مصادفة فلا يمكن أن نصدقه وأما أن يكون عمداً ومواطأة فهذا ما تدل عليه جميع القرائن.

إن البلاد السورية عانت في عهد الاحتلال من وزارة المعارف نكبات لا تزال آثارها ماثلة في أخلاق الشباب وعقائدهم، فلما تنسمت الأمة نسيم

الحرية برجالاتها أهابت برجالاتها الذين أولتهم الحكم أن يحوّلوا دفة المعارف إلى وجهة هي أقرب إلى المحافظة على الأخلاق والوفاء للإسلام من أية جهة أخرى، فنحن نسأل وزارة المعارف ونريد أن تجيبنا بكل صراحة: هل من الوفاء للإسلام أن يدرس تاريخه ميشيل عفلق فيطعن في الإسلام ونبيه وصحابته بما هو كفيل بتقديمه إلى محكمة الجنايات في كل قانون من قوانين العالم، ثم لا يكون من وزارة المعارف إلا أن تنقله من وظيفته إلى وظيفة أخرى؟ ثم تعمد إلى آخر أخبث منه طوية وأعمى قلباً ليخلف ميشيل عفلق في وظيفته متسترة بما يحمله من اسم اسلامي مزيف؟..

هل ترضى حكومة لبنان أن يأتيها من سوريا أو من مصر أو من العراق نابغة النابغين ويكون رأيه في الكاثوليكية كرأي عارف العارف في الإسلام فتفتح له صدرها من الساعة الأولى، وتسلمه كرسي التدريس في مدارسها الرسمية متخطية كل من عندها من المثقفين والأفاضل المتقدمين.

أفبمثل هذا يراد حمل الناس على الثقة بالعهد الحاضر والاعتقاد بأنه لا يضمر للإسلام شراً ولا عدواناً؟

ألا إن الناس لا تزال لهم عقول يدركون بها، ولا تزال عقولهم في موضعها كما خلقها الله، وإن عقولهم تقول لهم أن اختيار الجهلة والمتعصبين والمغرضين وعميان العيون والقلوب لتدريس تاريخ الإسلام في عاصمة معاوية وعبدالملك وعمر بن عبدالعزيز على طلبة مسلمين تدريساً مشوهاً مقلوباً مع وجود أكفاء صالحين لذلك ليس إلا مناورة من أشخاص مختبئين وراء الستار لتشويه حقائق الإسلام في أدمغة الناشئة المسلمين، وتخريج أعداء لهذا الدين.



عام (١٣٥٦)
يتحدث إلى إخوانه فيتخذون قرارًا خطيرًا [1]

جاءني صاحبي مساء الأربعاء، فسألني سؤال المستغرب المتعجب: كيف يستقرّ بك المقام هنا وقد عزم صاحبك على الرحيل، أفلا تودّعه؟ قلت: من هو صاحبي الذي تعنيه؟ قال: العام الهجري الذي أنستَ إليه واستأنس بك منذ قدم. قلت: لقد ركبني من هموم هذه الحياة ما أذهلني عن موعد سفره رغم حبي وتعلقي به. فأمعن فيّ نظره وقال: أو مثلك يفكر في الدنيا وتعلق به همومها؟ أين ذهب اليقين بالله والرضا بقضائه؟! فقلت وأنا متعجب من عجبه: أو تظنها يا صاحبي هموماً قرّبها إليّ بُعد الدنيا عني بأصفرها وأبيضها ولذتها ورخائها؟ إنها أحزان أمة تعاني الأسر والهوان، إنها هموم ملة تكاثرت حتى ملأت جنبات النفس أسىً ولوعةً.

وإذا كان الإسلام قد أجزل المثوبة لمن ملأ قلبه هم المعيشة وتحصيل القوت لأهله وأطفاله ـ مع ما تكفل الله لهم من الرزق والمعونة ـ فما بالك بمن أهمه أمر دينه ومصير بلاده وشؤون أمته؟ وهل ترى ذلك مما يتنافى مع اليقين بالله والرضا بقضائه؟ قال: معاذ الله. أن يكون الرضا بقضاء الله باعثاً للمسلم على ترك التفكير في مصالح أمته والعمل على إنقاذها من محنتها، وما أحسب الذين يزعمون ذلك إلا أن إبليس أخزاه الله قد استخف بعقولهم فكسا لهم هذه المعصية

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٥٩٣ العام الثاني عشر ١٣٥٧هـ.

ثوباً مزيفاً من الإيمان والتقوى، فتعبدوا الله بها على أنها رضى ويقين، وما هي إلا خنوع واستسلام وقلة دين!.. ثم قال هيا بنا فإني أخشى أن يفوتنا وداعه.

ودخلنا المحطة وكنت أظنها مزدحمة بجماهير المودعين، فإذا هي خالية إلا من بعض أفاضل القوم، وإذا بالصديق المسافر مطرق الرأس دائم التفكير قد خطت الهموم على جبينه خطوطاً، وأورثته الآلام نحولاً في جسمه وذبولاً في عينيه، حتى ليكادان ينطقان بالدمع، لولا أن في بكاء الرجال معنى من معاني الأنوثة المستخزية والطفولة القاصرة! قرأت آلامه في عينيه ووجهه وجسمه، فوجدتني مدفوعاً إلى مرافقته في سفره بغية الترفيه عنه وتخفيف وطأة الهموم عن نفسه، فأبديت له رغبتي، فانفرجت شفتاه عن ابتسامة خاطفة هي كل ما يملكه المحزون حين يجد بعض ما يسره، وليس ألذّ ولا أمتع للنفس الحزينة من أن تكتشف نفساً حزينة أخرى فتبثها شكواها ونجواها.

ودنت ساعة الوداع، وانطلق بنا القطار ينهب الأرض، وما زلنا نتجاذب أطراف الأحاديث حتى خلطتُ نفسي بنفسه واستطعت أن أطلع على سر حزنه، قال: كيف لا أتألم وقد حللتُ بالمسلمين فما رأيت منهم حفاوة ولا إكراماً، ورحلت عنهم فما ودّعني منهم غير من رأيت، بينا شهدت استقبال الغربيين لعامهم فما رأيت أكثر منهم وفاءً ولا أحسن استقبالاً، أفبمثل هذا يعاملني المسلمون، وفي مستهل أيامي تذكير ببدء انتشار النور وانبثاق الضياء، وفي أخرياتها تذكير بكمال الدين وتمام النعمة؟ قلت له: هوّن عليك الأمر، فبعض هذا الجفاء الذي تراه لم يكن إلا وليد الذلة التي وصلنا إليها، وما دامت بلاد الإسلام تحت سيطرة الغرب وسطوته فكيف تنتظر أن تستقبل وأنت رمز أمة مغلوبة كما يستقبل زميلك الغربي وهو رمز أمة قوية ملأت البر والبحر عدّة وعدداً؟ على أن بعض الهيئات عندنا تستقبلك بحفلات عامة تقيمها لك، وفي هذا بعض الاعتراف بفضلك! قال: أتكتفون من ذكراي ببضع خطب وقصائد تذهب مع الهواء؟ أين المعاهد التي

تنشئونها؟ أين المستشفيات التي تشيدونها؟ أين المال الذي تجودون به للخير والإحسان؟ ثم هذا هو احتفال الهيئات، فأين احتفال الأفراد؟ هل تحس لي أثراً بينهم؟ ألا يجهل كثيرون أسماء شهوري وموضعي من السنين؟ ألا يأبى أكثرهم التأريخ بي زاعماً أن ذلك رجعية في هذه العصور الراقية؟ تعتذر عن ذلك بالاستعمار، فهل حظر الاستعمار على أحد منكم أن يؤرخ بي؟ أم هل حال بينكم وبين الاحتفال بي احتفالاً يليق بكرامتي؟ نعم إن من مصلحة المستعمرين أن تنسوني لتنسوا تاريخكم وذكرياتكم المملوءة بالمجد والفخار، وقد عملوا على ذلك فأطعتموهم جهلاً وعماية، ولم يتنبه لذلك علماؤكم ولا زعماؤكم ولا أولو المكانة فيكم غير نفر يعدون على الأصابع، ولا تزال الجمهرة الغالبة من أدبائكم وزعمائكم يهزؤون بكل دعوة ترمي إلى العناية بي؛ ويدَّعون أن لا صلة بين التأريخ بي وبين الدين والأمة، فقل لهؤلاء الذين جهلوا فائدة التأريخ الديني: لم فرض الله الصيام في شهر رمضان والحج في ذي الحجة دون غيرهما من الشهور الغربية أو غيرها وهو يعلم أن دينه سينتشر في بقاع الأرض ويدخل فيه الشرقيون والغربيون؟ ألا ما أشد عقوقكم وغفلتكم أيها المسلمون!..

قلت له: ثم ماذا يؤلمك؟ قال: أشياء كثيرة أذكر لك منها الأخلاق، الأخلاق التي هي عماد السعادة والكرامة، الأخلاق التي غزا بها الإسلام الأديان وافتتح البلدان، هذه الأخلاق انقطعت الصلة بينكم وبينها، فالغفلة في علمائكم، والشحّ في أغنيائكم، والتملّق في كبرائكم، والرذيلة في عامتكم، والإباحية في شبابكم، والتهتّك في نسائكم، فأين أنتم من أخلاق دينكم وأين هي منكم؟ وأعجب ما رأيت أني سمعتكم تترنّمون كثيراً بترديد ألفاظ «الحرية» و «الاستقلال» وتتحمّسون لهما كثيراً مع استرسالكم في الخلق السيء وابتعادكم عن العمل النافع، فيالله للتعساء! يطلبون الخير بألسنتهم ويعملون للشر بأيديهم!..

ولم ينته صاحبي من كلامه حتى وقف بنا القطار في محطة «الدهر»

فاستقبلنا فيها فريق من أعضاء نادي «السنين» - وهم كما قلت للقراء من قبل يحملون أرقاماً تعطى لهم عند انتسابهم للنادي - وتوجهنا رأساً إلى دار النادي ودخلناه بين هتاف الأعضاء وحفاوتهم، وهناك لمحت صديقي رقم **١٣٥٥** فتعانقنا وتبادلنا السلام والتحية؛ ثم اجتمع الأعضاء جميعاً في البهو الكبير ليتحدثوا إلى العضو الجديد.

رقم ١ - ماذا وراءك أيها الأخ الكريم؟

١٣٥٦ - فتن كثيرة وشرور متزايدة، وأمور تؤلم وتحزن!

١٣٥٥ - يا للعجب لقد ودعت المسلمين وأنا متفائل بنهضتهم، فقل لي بربك كيف ساءت الحال وتفاقم الشر؟

١٣٥٦ - المسلمون مبتلون بالاستعمار، ومبتلون بأنفسهم، وإحدى هاتين النارين كافية لإبادة أقوى الأمم وأمنعها، فكيف إذا اجتمعتا معاً في أضعف الأمم وأفقرها؟

١٣٥٥ - اللهم إليك نبعث الشكوى، إنني تركت المسلمين وأكثرهم يظنون أنهم سيبدؤون عهداً جديداً مملوءاً بالتجديد والإنشاء، بفضل المعاهدات التي عقدوها مع الغرب، فكيف اشتدت وطأة المستعمرين عليهم بعد ذلك؟

١٣٥٦ - كل من يظن أن المستعمرين يودون إنصاف المسلمين فهو مخطىء، إذ ليس النزاع بين الفريقين على حقوق يدعيها كلاهما على السواء، بل على حقوق يغتصبها أحدهما وهو يوقن أنه مغتصب لها، وإنما الذي برَّر له اغتصابه أنه قوي وذاك ضعيف، وليست شريعة هذه المدنية قائمة على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، بل على إعطاء القوي وحرمان الضعيف، فما دام المسلمون ضعفاء وأولئك أقوياء، فسيجدون منهم عدواناً وبغياً، مهما عقدوا معهم العقود وأكدوا لهم المواثيق. تلك حقيقة كان يجب على المسلمين أن يعلموها منذ أمد طويل!.

٥٣٢ ـ صدقت صدقت، إن أعداء الإسلام أبعد الأمم عن خفارة الذمم والوفاء بالعهود، وليس هذا خصلة فيهم اليوم وإنما هو شيء توارثوه عن آبائهم منذ عصور طويلة، ولقد رأيت بعيني غدر الأفرنج بأهل بزاعة (قرب حلب) وكانوا قد حاصروها مدة طويلة فضعف المسلمون عن مقاومتهم فسلموها لهم على أن يكونوا آمنين في أرواحهم وأموالهم، فلما دخلوها أعملوا فيهم القتل والسبي والأسر حتى بلغ عدد من جرحوا من أهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس، ثم بلغهم أن كثيراً من الأهالي اختبأوا في الكهوف فأشعلوا النار في فوهاتها فمات كل من فيها خنقاً بالدخان.

٨٩٨ ـ وأنا رأيت بعيني غدر الأسبان بالمسلمين بعد سقوط غَرناطة ونقضهم للشروط والمواثيق شرطاً فشرطاً.

٩٠٤ ـ وأنا شهدت بنفسي كيف أكرهوا المسلمين على التنصر بقوة الحديد والنار، وكيف أصبحت الأندلس نصرانية كلها، فنصبوا في المساجد الصور والصلبان، وعلى المآذن النواقيس، وأجبروا الأطفال على عبادة الصليب والخضوع للقسس، ولم يبق في الأندلس من يجرؤ على الجهر بكلمة التوحيد.

١٠١٧ ـ وأنا حضرت الفصل الأخير من مأساة المسلمين بالأندلس يوم أصدر فيليب الثالث ملك أسبانيا قراراً بنفي سلالة المسلمين الذين ما زالوا يحافظون على تقاليدهم سراً، فطردوا طرداً مثيراً للشعور والعواطف، يحملون أثقالهم وأولادهم فوق ظهورهم، وبين أيديهم نساؤهم وبناتهم، فكانت أفجع مصيبة وأمرّ نكبة عرفها التاريخ.

١٣٥٦ ـ تبارك الله أعدل الحاكمين، إن إسبانيا اليوم تغرق بالدماء وتموج بالفتن، وما أظن ذلك إلا انتقاماً من الله للمسلمين.

١٣٥٥ ـ لقد أججت في سويداء القلب ناراً محرقة، فقل لي كيف تركت سوريا؟

١٣٥٦ ـ إنها تعاني من دسائس أعدائها ما لا تكاد تطيقه، فقد أثاروا

عليها الأقليات، ودفعوا ببعض المأجورين إلى إهاجة الفتنة بحجة غلاء الأسعار، وأنت تعلم كيف أضاعوا لواء الأسكندرون وفرطوا به، ولا يزالون يكيدون لها الدسائس لتستسلم لهم فيما يطلبونه من التسلط على ثروة البلاد وماليتها، وما زالوا يطاولونها في التصديق على المعاهدة حتى اليوم.

١٣٥٥ ـ اللهم لطفاً وعناية، وكيف تركت المغرب الأقصى؟

١٣٥٦ ـ يا رحمتا لتلك البلاد! أفقروها وأجاعوها حتى بلغ فيها الجياع مليوناً ونصف مليون انتشروا في البلاد يطلبون القوت فمات كثير منهم في الطرقات، أفرأيتم في العالم أمة يبلغ بها الجوع إلى هذا الحد؟ أسمعتم أن في الدنيا أمةَ تعذب وتقتل وتشرد لأنها احتجت على قطع الماء عنها، وهي شيء تشترك فيه الإنسانية والحيوانات العجماء؟ تلك هي أسباب ثورة المغرب الأخيرة، قطع المستعمرون الماء عن أهل مكناس لتسقى به مزارعهم، فلما احتجوا قوبلوا باطلاق الرصاص فقتل منهم **٢٣** مسلماً وجرح ستون، وأرادت البلاد أن تعلن تأييدها لأهالي مكناس تأييداً سلمياً فسالت الدماء الطاهرة في الشوارع العامة، وقبض على ستة آلاف رجل وحكم على ألفين بأحكام تتراوح بين ستة أشهر وسنتين، وشرد الزعماء عن بلادهم ومات واحد منهم تحت الضرب وجرح آخرون، ومزقت المصاحف الشريفة وديست بالأقدام مبالغة في الإهانة والنكاية.

الجميع ـ الله أكبر! أكتاب رب العزة يمزق ويداس؟ بشرى الظالمين بيوم عصيب!..

١٣٥٥ ـ هات مما عندك هات! حدثنا كيف تركت فلسطين؟

١٣٥٦ ـ فلسطين؟ يا شقاء فلسطين يا بؤسها؟ إنها اليوم قطعة من الجحيم والخراب، يجوس خلالها الزبانية الغلاظ فيتلفون الزرع، ويهدمون البيوت، ويهتكون الحرمات، ويعذبون الناس ويحبسونهم في بيوتهم ويحرمونهم أقواتهم ومؤونتهم، ويقتلون مواشيهم ودوابهم، كل ذلك بحجة التفتيش والتنقيب عن الثائرين!... ولم يكتفوا بكل هذا الإرهاق بل هنالك

محاكم عسكرية تحكم بالإعدام على كل مسلم يحوز مسدساً أو أي سلاح مهما صغر، ومن غرائب حكمهم أنهم حكموا على مسلم وجدوا معه ثلاث رصاصات فارغة بالسجن سبع سنوات، أما اليهودي الذي ثبتت عليه جريمة القتل عمداً فقد أبدل حكم الإعدام عليه بالسجن عشر سنوات!

أصوات - أكل هذا يلاقيه مسلمو فلسطين على يد حلفائهم؟

صوت - ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار.

١٣٥٦ - وهنالك ما هو أنكى وأشد، وضعوا المجلس الإسلامي الأعلى تحت رئاسة قاض إنجليزي، وفصلوا المحاكم الشرعية عن المجلس الإسلامي وجعلوا للمندوب السامي حق إقالة القضاة الشرعيين..

أصوات - المندوب السامي البريطاني هو الذي يعين قضاة المسلمين؟ يا لذل المسلمين!...

آخر - وماذا فعل المسلمون إزاء هذه الإهانات؟

١٣٥٦ - المسلمون؟ إنهم نيام لم يستيقظوا بعد، أو مستيقظون لم يعملوا بعد، أو عاملون ولكن على تشتيت شملهم وتخريب بيوتهم بأيديهم. وقلّ أن تجد بلداً إسلامياً إلا وفيه أحزاب تتناحر وتتطاحن وتختلف على العرض الفاني من مال أو جاه أو منصب، في الوقت الذي تشتد فيه النكبة بفلسطين وغيرها وفي بلاد أولئك الذين يتخاصمون ويتقاتلون.

٩١٨ - ذلك هو الذي أضاع الأندلس من أيدي المسلمين! كان المسلمون فيها يقتلون ويصلبون وتسمر أعينهم وتسلخ جلود وجوههم وهم يستصرخون سلاطين بني عثمان فما وجدوا مجيباً ولا معيناً!.

٥٦٢ - وذلك عينه هو الذي جعل شاور أمير مصر يسلم القاهرة للصليبيين كي لا يستولي عليها أسد الدين أحد قواد نور الدين زنكي صاحب دمشق. ففضل أن يستولي عليها أعداء الإسلام ويدفع لهم الجزية أيضاً على أن يستولي عليها المسلمون من جيوش نور الدين...

الجميع ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، صدق الله العظيم. ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾. اللهم ألهم المسلمين رشدهم وصوابهم.

١٣٥٥ ـ حدثتنا عن الحالة السياسية في بلاد الإسلام فكيف الحالة الدينية فيها؟

١٣٥٦ ـ أما في العراق فالحالة لا تسر كثيراً، وأما في سوريا فمن دواعي الأسف أن أقرر أن حكومتها الوطنية لم تكن عند ظن الناس بها من الوجهة الدينية، فقد حاولت إلغاء القضاء الشرعي تدريجياً ولكنها تراجعت مضطرة. وأرادت إلغاء الوقف الأهلي وإلى الآن لم تقطع في ذلك. وأسندت تاريخ المسلمين إلى خواجة متعصب فلما ضجّ منه الناس أسندته إلى مسلم شكلًا وخواجة عقيدة، ولا تزال ممتنعة عن تقرير الدروس الدينية بطريقة إجبارية في جميع المدارس رغم إلحاح الأمة وتكرر طلبها، وهكذا يشاء الله أن تقترن الحركة الوطنية في سوريا بمحاربة الدين ومهاجمته، ولكن من فضل الله على بلاد الشام أن كانت هنالك هيئات منظمة من الشباب الصالح والشيوخ العاملين كرابطة شباب محمد ﷺ وجمعية العلماء تقاوم عدوان رؤوس الإلحاد بالحجة والبرهان، وتُنبّه الأمة إلى ما يراد بدينها من سوء، فكان لها الفضل في كبح جماح حركة العداء للإسلام أو إخافة القائمين بها. وأما في مصر فكما عهدتها من قبل غير أن السواد المتعلم تنبه أخيراً لما يحاوله بعض الناس من غض لكرامة الإسلام ولا تزال المعركة قائمة. ومما يذكر بالخير أيضاً يقظة الأزهر ومساهمته بنصيب وافر في تثبيت الروح الإسلامية في الحياة الاجتماعية العامة. وفي رأيي أن النصر سيكون حليفه إن أخلص لله وعرف كيف يقود السفينة بدقة ومهارة. ومما هو جدير بالملاحظة والاهتمام موقف الأحزاب السياسية المختلفة من الإسلام في أكثر أوطانه، فلهذه الأحزاب سياسة وطنية خاصة تسعى إلى إنجاحها سواء خالفت الإسلام أم لا. ولما كانت العقائد السياسية قد احتلت في نفوس العامة المقام الأول فقد سرى الاستهتار بمصالح الإسلام من رؤسائهم إليهم

وليس أدل على ذلك من أنها أصبحت تنظر إلى كل من يدعوها إلى المحافظة على مظاهر الدين وسيادته نظرة شزرة منكرة متهمة له بالتعصب الديني والعمل على التفرقة بين الطوائف المختلفة، إن هذه السياسة خطرة إلى أقصى حد، والذي أرجو من إخواني الأعضاء أن يتخذوا قراراً حاسماً في هذا الموضوع يذاع في العالم الإسلامي ليكون المسلمون على بينة من أمرهم.

وهنا أخذ الأعضاء في وضع صيغة القرار؛ ثم أعلنه الرئيس رقم ١ وهذا نصه:

«استمع أعضاء نادي السنين إلى بيانات الأخ الجديد رقم **١٣٥٦** عن الحالة العامة في البلاد الإسلامية ورأى في بياناته أن حالة المسلمين تزداد سوءاً وتأخّراً. وأن الخلافات الشخصية المضرة بمصلحة ديار الإسلام لا تزال قائمة بينهم على الرغم من تعسف الغرب معهم واضطهاده لهم. ومما لفت نظر الأعضاء ما ذكره عن أضرار الأحزاب السياسة بالمصلحة الإسلامية العامة، لذلك رأى المؤتمرون أن يلفتوا نظر العالم الإسلامي إلى أن ما هو واقع فيه اليوم من تفرقة وتناحر ليس إلا من اختلاف غاياته وتوزع ميوله وأهوائه، وإن من الواجب على المسلمين بعد اليوم أن يشترطوا على كل من يدعوهم إلى مبدأ سياسي أن لا يختلف مع الإسلام في شيء، وأن يعطي عهد الله وميثاقه أن يكون وفياً لمبادىء الإسلام عاملًا على رفعة شأنه، وبهذا يفسدون على أعداء الإسلام خططهم ويكون لهم مبدأ واحد يحتكمون إليه حين تتضارب نزعاتهم وآراؤهم. هذا ما يجب على المسلمين اتباعه ولا ينفرنهم منه خشيتهم من أعداء الإسلام أن يرموهم بالتعصب فنحن الذين شاهدنا تاريخ الإسلام من بدايته إلى الآن لم نجد سلاحاً أمضى في نحور المسلمين من هذه الكلمة التي يخوفهم بها أعداؤهم. يجب أن يعلم المسلمون أن التعصب للأسلام ليس عدواناً على أحد ولا خصاماً لطائفة وإنما هو دفاع عن مبادئه التي وسعت الأمم جميعاً في أيامه الذهبية الأولى

فليعلنوا تعصبهم للأسلام غير هيّابين ولا وجلين، يجب أن يعلم المسلمون أن دفاعهم عن حقوقهم وأنفتهم من أن تستعلي طائفة أخرى عليهم ليس عاراً يلحقهم خزيه، وإنما العار كل العار أن تسلب حقوقهم فلا يطالبوا بها خشية أن يرموا بالتعصب، وليس أشد حماقة ولا جهلًا ممن يرمي سلاحه في ميدان القتال لأن عدوه أخبره أن هذا السلاح غير مفيد في الكفاح والنضال!... هذه نصيحتنا إلى المسلمين والله ولي الهداية والتوفيق».

ثم تسلمت نسخة من هذا القرار وودعت الأعضاء جميعاً على أن يكون موعدنا العام القابل إن شاء الله.



الجهاد الضائع[1]

كلما تناولتُ صحيفة سياسية وفرغت من قراءتها، أشعر بهمّ شديد يملأ جوانب نفسي، حتى ليمنعني في كثير من الأحيان من القيام بما عليَّ من واجبات أمداً ليس بالقليل. ذلك أني وأنا أتتبع سير الحوادث العالمية، ومباحثات الدول وأقطاب العالم، وسعي الأمم لتقوية مركزها وحفظ كيانها، أحاول أن أعثر في خلال هذه الأنباء على خبر سارّ يتعلق بالمسلمين، وينبىء عن يقظتهم وشعورهم بالحياة، فلا أجد بل لا أقرأ عنهم غالباً إلا حين يذكر الدعايات وتسابق الدول إلى الضحك على الشعوب المستعبدة: فهذه تقول إن المسلمين غاضبون لاغتصاب ألبانيا، وهذه تقول إنهم ساخطون لحوادث فلسطين. فلا يجري ذكر للمسلمين إلا حين يراد اتخاذهم مطايا للوصول إلى شد أزر الدول المتناحرة المتهالكة على الاستئثار بخيرات الدنيا وبسط السيطرة على الأمم والممالك. ومما يزيد في الألم أن ترى زعماء المسلمين ـ والدنيا منغمرة بالقلق والاضطراب، والدول الكبيرة تحاول ضمان انحيازهم إلى جانبها عند حدوث حرب عالمية ـ تراهم منصرفين عن كل شيء إلا عن التراشق بالتهم والمثالب، والتخاصم في سبيل الحكم والزعامة، متناسين كل واجب عليهم في هذه الظروف الدقيقة، متغاضين عن كل خطر يهدد أقوامهم من جرَّاء هذا التناحر الزريّ المؤدي بأقوى الشعوب إلى التحلل والفناء،

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٦٥٥ العام الرابع عشر ١٣٥٨هـ.

فكيف بأضعفها شأناً وأشدها ضياعاً وغفلة وتفرقاً؟. ومن العجيب أنه لم يسلم بلد إسلامي من هذا المرض المستعصي: ففي الهند وفي الشام وفي مصر وفي العراق وفي المغرب وفي غيرها من الأقطار المسلمة، زعماء يتناحرون ورجال يتشاتمون، وأحزاب لا همّ لها إلا أن يحطم بعضها بعضاً، ويقوم ضعيفها على أنقاض قويها، أو يجثم قويها على صدر ضعيفها. ومن ورائهم أعداء يضحكون بملء أشداقهم إذ استطاعوا أن يشغلوهم بما رموا إليهم من فتات الموائد، لينصرفوا إلى جمع الأسلاب والغنائم آمنين مطمئنين!

كان هذا حديثي دائماً بيني وبين نفسي، حتى قرأت اليوم ما أضرم النار في أحشائي، وزادني ألماً على ألم، وحسرة على حسرة، فقد ذكرت الصحف فيما ذكرت من أنباء الشام أن القوّات التركية تحشد بكثرة هائلة على الحدود السورية، وأن الأفكار قلقة مما أشيع عن ضم منطقة الإسكندرون إلى تركيا ضماً نهائياً ومما يشاع عن مطامع تركيا في سوريا. وقرأت بعد ذلك أن الأزمة الوزارية لا تزال قائمة في دمشق، وأن الجبهة الوطنية التي أراد أهل الخير تأليفها من الأحزاب السورية لم تؤلف بعد، وأن الفرنسيين ينوون حلَّ مجلس النواب والعودة إلى نظام الحكم الفردي الذي ذاقت منه البلاد أهوالاً ما زالت ماثلة في الأذهان إلى الآن.

قرأت هذا فلم أكد أصدّق أن في الشام رجالاً لا يغارون على وطنهم أو على مصلحة بلادهم أو على كرامتهم على الأقل، وإلا فكيف جاز أن يتأخر تأليف الجبهة الوطنية حتى الآن وقد بدا من الفرنسيين نقض العهود وسوء النية، ومن الأتراك رغبة السيطرة وأخذ البلاد بالقوة؟

كيف جاز أن يتأخر تأليف الجبهة بعد أن صرحت فرنسا بعزمها على دفن معاهدة سنة **١٩٣٦**، فمن كان من مؤيدي هذه المعاهدة فقد رجع عنها أصحابها، ومن كان من معارضيها فقد كفى الله البلاد شرّها، فأي شيء بعد ذلك يعوق رجال البلاد عن الانتظام في حلقة واحدة وقد زال شبح هذه المعاهدة المشؤومة التي سببت الفرقة وباعدت الشقة وأوصلت البلاد إلى الدمار والخراب؟!

أي شيء يصدُّهم عن تناسى الضغائن، وعن التصافح بالأيدي، والاتفاق على خطة واحدة في مقاومة الأخطار؟ أهو اختلافهم في البرامج؟ إنهم جميعاً لا برامج لهم، ولو اتخذوا لأنفسهم برامج لاستلهموها من ميول الشعب، فلن تجد في أصولها من تفاوت! أم هو اختلافهم في الغايات؟ إنهم جميعاً يدّعون العمل لاستقلال البلاد! أم هو اعتقادهم بزوال الخطر وغفلة الأعداء؟ إن الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم يشعرون بإحداق الخطر وتكاتف الناهبين! إذاً فلم لم يتفقوا حتى الآن؟ لم يبق إلا أنهم تنازعوا على الجاه، أو طغت حزازات قلوبهم على أحكام عقولهم فأنفوا أن يدوسوا الصغائر! وأنفوا أن يتناسوا الأحقاد! واستكبروا عن جلوس بعضهم إلى بعض يفكرون ويتناصحون! فيا ضيعة الشام، تلك الأرض المباركة، أرض المحشر والمنشر، ويا فرحة المتربصين!...

إن التاريخ سيدوّن فصول هذه الرواية التي يمثلها بعض الزعماء اليوم على جثث الشهداء من ضحايا الحرية، وسيكون حكمه عليهم قاسياً، وسيحملهم تبعة بقاء الشعب راسفاً في قيوده وأغلاله زمناً طويلاً. أجل إنه سيحملهم وحدهم تلك التبعة، أما الشعب فقد ضحى وناضل وجاهد تحت ألوية الوحدة منذ عشرين عاماً دون أن يتأخر عن تلبية نداء الخير مرة واحدة: دعى إلى الثورة فلبى وثبت عليها ثلاث سنين وكاد يجني ثمارها لولا تعارض أهواء الزعماء واستفحال أنانيتهم. ودعا إلى الإضراب أولاً فلبى وثبت خمسين يوماً لا يستعمل الكهرباء ولا يركب عربات القطار ولا يفتح أسواقه للعمل، حتى أمروه بالعودة فعاد. ثم دعا إلى الإضراب ثانية فلبى وثبت أربعين يوماً حتى اضطروه إلى التقهقر باختلاف كلمتهم وتشتت آرائهم. وما زال يتظاهر في كل مناسبة، ويثور كلما نالهم ضيم، ويضحى بالأموال والأرواح ليصل بهم إلى مقاعد الحكم وقاعات المجلس النيابي، فلئن فاته ما يصبو إليه من كرامة وسعادة فليس الذنب ذنبه، ولكنه ذنب الذين لم يحسنوا القيادة، ولم يرزقوا الإخلاص لله والفناء في المصلحة العامة، ولم يستغلوا قوة الشعب وحرارة إيمانه لمصلحته ورفاهيته، بل

لجاههم ونفوذهم وتمتعهم وحدهم بالرفاهة والنعيم! . .

وأنا أعترف بأنني جائر في هذا الحكم إن قصدتهم به فرداً فرداً، واعلم أن فيهم نفراً وهبهم الله إحساساً صادقاً وقلباً طاهراً، ويداً بيضاء لم تلوّث بما لُوِّثت به أيدي كثيرين، فهم يؤلمهم ما يؤلم الأمة، ويغضبهم أن ترجع البلاد مسافات طويلة من هذا التشتت والانقسام، ولكني أصدر فيما أكتب عن حمية الشباب وثورة الإيمان، والحمية إذا ثارت تأخذ القلة بذنب الكثرة، لا سيما وأنا أرى أن هؤلاء قصروا في الجهر بكلمة الحق، وكان عليهم أن ينقذوا البلاد من هذه الفوضى، فأنا معذور إن رمى سهمي آخرين لم أقصدهم، أو تناول حكمي جماعة ليس من الإنصاف أن يتناولهم، ما دمت أرى أن الشر متغلب على الخير، وعناصر الفساد تحتل الميدان دون عناصر الخير والرشاد!

والآن وقد استحكم الخلاف بين القادة، واستيقظت أنانية بعضهم، وتعذر جمعهم تحت راية الوطن، فإننا نضع الرجاء في رجال المستقبل من شباب محمد ﷺ، وشباب الجامعة والمعاهد، وشباب الجيل الحاضر ممن سمت أرواحهم وقويت عقائدهم وحسنت أخلاقهم. بهؤلاء نضع الثقة في أن يحملوا الزعماء والكبراء حملاً على الاتحاد واطراح الشخصيات والعمل للمصلحة العامة، لعلهم يقلعون عما هم فيه خشية أن تفلت من أيديهم مقاليد الزعامة التي شغفوا بها حباً. وإن لم يفعلوا فيبقى هذا الشعب المسكين ضحية الأهواء والشهوات حتى يقيض الله له الرجل الذي يقوده إلى مواطن النصر والمجد!

أيها الشباب، عزمة من عزماتكم الجبارة، وصرخة من صرخاتكم المدوية تنصر الحق وتخذل الباطل، ولن تعجزوا ـ وأنتم مجتمعون ـ عن أن يكون منكم ما كان من الفاروق وهو منفرد وحده حين زأر زئير الآساد في بطاح مكة يتحدى الباطل وزعماءه، فكانت صرخة أخزى الله بها جموعهم، وألقى الرعب في قلوبهم، وأعلى بها كلمة الحق ونصر بعدها أهله!

أيها الشباب، إن صحائف التاريخ تنشر اليوم بيضاء ليدون فيها ما دون لأسلافكم فتية الإسلام الأطهار عند انبثاق نوره. فحقِّقوا فيكم أمل الإسلام، وأمل الأجداد من قبلكم، والأجيال من بعدكم. واحرصوا على أن تلقوا على من يأتي بعدكم من الشباب دروساً يتعلمون فيها كيف يذود الفتيان عن الحق إذا تخلّى عنه الرجال، وكيف يثور الأبناء للمجد إذا دبّ دبيب التخاذل في صفوف الآباء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.



عبر المصائب[1]

لا شك أن للمصائب فضلاً كبيراً على المسلمين في هذا العصر، فما زالت تنثال عليهم واحدة بعد أخرى حتى دبت فيهم تباشير الحياة، وتفتحت أعينهم للحقائق، وتنبهوا لما يراد بهم من سوء وأذى. ولئن كان عملهم للخلاص مما هم فيه بطيئاً جداً فهذا لا يمنعنا من القول بأن المصائب كانت ذات أثر فعال في تنبيههم وإيقاظهم. نقول هذا بمناسبة الضجة العنيفة التي قامت في بلاد الشام الشمالية على نظام الأحوال الشخصية للطوائف، وكان من أثرها أن وعد المندوب الفرنسي بتعديل كل ما يشكو منه المسلمون، فقد خرجنا من هذه الحركة بعدة عبر:

العبرة الأولى: أن من أكبر أخطاء رجال السياسة في الشرق العربي استهانتهم بالدين وبكل ما يتصل به، وإعراضهم عن الإصغاء إلى نصائح العلماء ووصاياهم، وعدم الرجوع إليهم في كل ما له مساس بالدين من قريب أو بعيد، فقد تبين أخيراً أن الحكومة السورية المستقيلة كانت على علم بهذا النظام قبل أن يذاع، وأن المفوضية الفرنسية طلبت منها إرسال مندوبين عنها ليشتركوا في سنه ووضع مواده، فأنابت عنها حضرات نعيم الأنطاكي مدير الخارجية السابق وعارف نكد مدير العدلية وعبدالرحمن الكيالي وزير المعارف والعدلية السابق، فاشتركوا مع المندوبين الفرنسيين في

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٦٤٥ العام الثالث عشر ١٣٥٨هـ.

وضع ذلك النظام الممقوت. ونحن لا نريد أن نعرض لترجمة هؤلاء الأعضاء الثلاثة، وإنما نكتفي بأن نذكر أنه لا صلة لواحد منهم بالدين الإسلامي ولا معرفة له به قليلًا أو كثيراً، زد على ذلك أن الأول مسيحي، والثاني بطل القانون الذي تقدمت به الحكومة السورية للإسراع في القضاء على المحاكم الشرعية فرفض، والثالث مواقفه من التعليم الديني والبعثات العلمية للأزهر معلومة مشهورة. فإذا كان هؤلاء هم الذين وكل إليهم الاشتراك مع الفرنسيين في وضع نظام يتعلق بدين البلاد وعقائدها وأحوالها الشخصية فماذا ننتظر أن يكون هذا النظام؟ وكيف نرجو أن يقف هؤلاء موقف المدافعين عن دين الأمة وعقائد أبنائها أمام الفرنسيين الطامعين في نقض بناء الإسلام في بلاد الشام كما أرادوا أن ينقضوه في المغرب الأقصى بين إخواننا البربر وغيرهم؟ ولو أن الحكومة السورية قدرت العواقب وراعت شعور المسلمين لعهدت في هذا الأمر إلى أجلة علمائهم، فهم أدرى بذلك من غيرهم، وأحق بالدفاع عن كرامة دينهم، وأعرف بدخائل المستعمرين نحو الإسلام وتعاليمه.

ولو أنها فعلت ذلك لحفظت كرامتها في أعين الناس ولنجت من تلك السمعة السيئة التي جرها عليها هذا القانون مما أدى إلى استقالتها تحت الضغط والتأثير، ونحن على يقين بأن الحكومة حين أقرت الفرنسيين على ذلك القانون لم تكن تحسب أن سيكون له هذا الأثر السيء في نفوس الأمة، ولا كانت تحفل بما سيكون من اعتراض العلماء عليه - ولهذا ما كادت تعلو أصوات النغمة عليه من أنحاء البلاد ويهب العلماء لرفع كلمة الحق مدوية عالية حتى تبرأ منه رئيس الحكومة وأمر بعدم العمل به في المحاكم الشرعية - وهذا خطأ آخر إذ كيف يجوز لهؤلاء الرؤساء أن يجهلوا مقدار الشعور الديني في محيطهم أو يتجاهلوه وهم إنما يعتمدون في كل مواقفهم السياسية على هذه الأمة التي لا ترى في الحياة أغلى عندها من الاحتفاظ بدينها المقدس وقرآنها الكريم؟ ومما لا ريب فيه أيضاً أن الحكومة لم توافق على هذا القانون متجاهلة خطره الديني إلا لترضي الفرنسيين فيما

يتعلق بحقوق الأقليات المزعومة ليتم لها من بعد ذلك تصديق المعاهدة المشؤومة، وهذا خطأ ثالث إذ لا يجوز لأي كان أن يبيع عقائد المسلمين وأحكام دينهم العادلة الرحيمة بقصاصة من الورق معرضة للتعديل والتحوير والتمزيق في أي وقت شاء الأقوياء المغتصبون.

ثلاثة أخطاء آخذ بعضها برقاب بعض ناشئة عن شيء واحد هو بُعد رجال السياسة فينا عن الدين وعدم تأثرهم بآدابه وتعاليمه تأثراً يعصمهم من الإساءة إليه من حيث يشعرون أو لا يشعرون، ونحن إذ نأخذ هذا على الحكومة السورية السابقة نرى من الإنصاف والاعتراف بالحق أن نسجل لرئيسها موقفه الأخير فهو وإن كان قد أساء اختيار الذين ندبهم لمذاكرة الفرنسيين في هذا القانون عند وضعه، لكنه أحسن صنعاً حين أجاب رغبات العلماء واتقى غضب الأمة فأمر بعدم العمل به وفضل الاستقالة على التقهقر والرضوخ لأهواء المفوضية الفرنسية.

العبرة الثانية: أن رجال الأحزاب في بلاد الإسلام كثيراً ما يتخذون الدفاع عن الدين وسيلة للنيل من خصومهم، حتى إذا تمكنوا من الحكم كانوا أشد منهم عداوة له ونيلًا من كرامته. وهذا سلاح خطير جداً وإن أفاد الدين في بعض الأحيان، لكنه يجعل في نفوس الناس شكاً في كل من يدافع عن الدين من رجال السياسة والحكم من غير تفرقة بين المخلصين والمهرجين، وهذا هو ما حدث أخيراً من رجال بعض الأحزاب في حمص فإنهم ما كادوا يرون النقمة عظيمة جداً على نظام الطوائف حتى استغلوا هذا الشعور البريء فدعوا الناس إلى إقفال المتاجر وتعطيل الأعمال والتظاهر احتجاجاً على ذلك النظام، فاستجاب الناس نداءهم وقاموا بمظاهرات عظيمة أزهقت فيها روح شاب طاهر بريء وجرح ما يزيد على مائة وعشرين من قوى الحكومة والأهلين، وسرعان ما تبين للناس - والأسى يملأ قلوبهم - أن الغرض الحقيقي للمحرضين هو تعكير صفو الأمن وحمل الحكومة على الاستقالة لأغراض حزبية معلومة!.. وبلغني أن كبيراً من زعماء المعارضة

في دمشق أخذ يشيع في المجالس حين كانت أزمة قانون الطوائف مشتدة أن الحكومة أخطأت كل الخطأ في عدم الرجوع إلى العلماء قبل إقرار النظام، وأنه لو كان هو في الحكم وطلب منه الفرنسيون إرسال مندوبين يشتركون في وضع القانون لما استشار إلا علماء الدين، ولما أناب إلا من يرضونه منهم، أجل هكذا قال ذلك الرجل، وهو هو الذي قال لي حين كان في مصر وكنت أتباحث معه في شأن الوحدة الإسلامية والوحدة العربية «إن الواجب علينا إرضاء الأقليات كيفما كان حتى لو طلبوا منا أن نجعل العطلة الرسمية للحكومة والمدارس يوم الأحد بدلًا عن الجمعة لفعلنا، ولو طلبوا أن يكون التعليم في المدارس علمانياً (لا دينياً) لأجبناهم إليه بلا تردد، فقارن بين هذا القول وبين ما سبق، ثم قل رحمة الله على أخلاق الرجال في هذا الزمان!..

العبرة الثالثة: أن كثيراً من الناس تساءلوا عن الفائدة التي عادت على المسلمين من مؤتمر العلماء الذي انعقد صيف العام الفائت في دمشق، والحق من أكبر فوائده بعث روح الحمية والنشاط في نفوس العلماء حتى لكأنها خلقت خلقاً جديداً. فمن ذا الذي كان يظن أن يقف العلماء من قانون الطوائف ذلك الموقف المملوء بالكرامة والغضب لدين الله وأحكام شريعته غضباً لم يكن يتصور أقرب الناس إليهم أن يكون قوياً إلى هذا الحد؟ واسمع صرخات الحق تنطلق من أفواه علماء الإسلام في بلاد الشام فتهز أركان الظلم هزاً عنيفاً، تقول جمعية العلماء في احتجاجها: «إن جمعية العلماء بدمشق راعها ما قرأته في الصحف عن نظام الطوائف والقرار المعدل لبعض مواده الصادرين من المفوضية الفرنسية، ذلك لما تضمناه من الأحكام المخالفة لكتاب الله الذي يتمسك به المسلمون كافة في مشارق الأرض ومغاربها، ولا يرضون عنه بديلًا من نظم وقوانين وقرارات مخالفة لأحكامه ونصوصه الدنيوية والأخروية، ويبذلون أرواحهم وأولادهم وأموالهم في سبيل المحافظة عليه وتأييد أحكامه التي يعتقدون أن في اتباعها سعادتهم الدينية والدنيوية» ثم تقول في آخر الاحتجاج: «وتطلب الجمعية بإلحاح من

الحكومة أن تعيد النظام المذكور إلى المفوضية الفرنسية، وأن تؤذنها بأن الأمة الإسلامية لن تقبله بوجه من الوجوه، ولن ترضى عن أحكام شريعتها بديلًا. وأن تبلغ جميع المحاكم والدوائر إهماله وعدم اعتباره قانوناً مرعياً لحين صدور قرار من المفوضية العليا بإلغائه والرجوع عنه، لما فيه من الاجتراء على تبديل شرع الله والحكم بغير ما أنزل الله إلخ» ويقول علماء حمص وقد تقدموا جماهير الشعب للاحتجاج على ذلك القانون: «إن المسلمين لا يمكنهم السكوت عن هذا القرار، ويعدّون الرضا به كفراً. ولن يقبلوا بحال من الأحوال أن يتحكم غيرهم في شؤون دينهم ولو أدى ذلك إلى بذل أرواحهم» ويقول علماء اللاذقية في احتجاجهم إلى المفوضية الفرنسية: «إن الانتداب الذي فرض في هذه البلاد فرضاً رغماً عن أنه مسطر صكه من طرف واحد وبقلم القوة، فإنه حفظ للناس حرية أديانهم وحال دون تدخل السلطة المنتدبة بالأمور الشرعية، فكيف يتدخل العميد الإفرنسي في شؤون الطوائف الدينية ويصدر قراراته بتغيير وتبديل الشريعة الإسلامية؟ ومن المدهش أن نرى فخامتكم تفاجئون الأمة بعد أن اعتبرت نفسها أمة مستقلة بموجب معاهدة سنة ١٩٣٦ لا سلطة تشريعية فيها إلا سلطة الأمة الممثلة بمجلسها النيابي مما لا يخالف قواعد الشرع الإسلامي، تفاجئونها بهذا القرار الذي لا يتحدى سلطة الأمة التشريعية فحسب بل يتحدى سلطتها الدينية، وإذا كانت سلطتكم تخولكم هذا الحق فإننا نرفضه رفضاً باتاً ولا نقبل به نحن معشر المسلمين. إن الدين الإسلامي الحنيف هو دين دنيوي وأخروي ومدني واجتماعي متكفل بما هو الأصلح، وليس بحاجة إلى من يأتي فيزعم إصلاحه، كما أنه لم يتعرض يوماً ما للأديان الأخرى مع ما كانت عليه الدول الإسلامية من القوة والعظمة والجاه والعدالة. ومن المؤلم أن نرى الدولة الفرنسية التي تدعى أنها نصيرة الحرية تحاربنا اليوم في ديننا وتحاول إكراهنا على ترك شريعتنا واتباع قوانين محدثة تخالف كل المخالفة أحكام الشرع الإسلامي. فلذا نستنكر هذا العمل ونحتج أشد الاحتجاج على هذا القرار ونطلب إلغاءه وجعله في حكم العدم واعتبار المسلمين أمة لا

طائفة، وإن للدين الإسلامي قدسية واجبة الرعاية والاتباع والاحترام.

تلك هي نبذ من صواعق الحق الذي صدع به علماء الإسلام في وجوه المعتدين. ومما يبعث على الدهشة والغبطة أكثر من هذا أن العلماء كانوا يتقدمون المظاهرات السلمية التي أقيمت احتجاجاً على هذا العدوان، مع ما هم عليه من تقدم في السن وضعف في القوى، فكان لذلك المنظر أثره واحترامه في نفوس العامة وأثره لدى المراجع الحكومية. فحيا الله هؤلاء السادة الأعلام بما أحيوا في النفوس من ميت الآمال، وبما بيضوا وجه الإسلام أمام شانئيه والكائدين له، ولا زالوا بدوراً ساطعة يستضيء بنورهم الحائر، ويحتمى بحماهم المستغيث والملهوف.

العبرة الرابعة: ظل الفرنسيون يعملون خلال عشرين عاماً على إبعاد ناشئة الإسلام عن دينهم بما وضعوه لهم من مناهج للتعليم والثقافة، وظنوا أنهم واصلون بذلك إلى ما يبتغون. ولكن مصيبة نظام الطوائف كشفت الغشاوة عن أبصارهم، وأفهمتهم أن الدماء القوية الحارة التي كانت تجري في شرايين سلفهم الذين حملوا مشعل الهداية في آفاق الدنيا، لا تزال هي بعينها تجري في شرايين أحفادهم مهما حيكت لهم الشباك والحبائل، فقد جاء من حمص أن الشباب ما كادوا يعلمون بقرار الطوائف حتى دعوا الناس إلى الاجتماع في أحد المساجد الكبيرة، ووقف أحدهم يخطبهم عن هذه المصيبة بقلبه لا بلسانه، فما كنت ترى إلا أعيناً دامعة، ونفوساً ثائرة، وقلوباً ملتاعة. ثم وقف آخر يلقى على تلك الجموع العهد الذي قطعه طلاب العلوم الشرعية والمدارس الثانوية على أنفسهم، وهذه صيغته:

«نعاهد الله معشر الشباب أن نقدم أرواحنا ودماءنا فداء لمحمد ﷺ ودينه، والله على ما نقول وكيل».

ثم قرروا بعد ذلك الإضراب عن الدروس، وساروا في مظاهرة عظيمة اخترقت شوارع المدينة الكبرى هاتفين «الله أكبر الله أكبر» وأرسلوا في النهاية الاحتجاج الآتي إلى المفوضية الفرنسية:

«إن طلاب المدرسة الشرعية والمدرسة التجهيزية (الثانوية) بحمص يأسفون لقرار الطوائف الذي أقام المسلمين وأقعدهم، ويعدونه ضربة قاضية على كتاب الله وشريعته اللذين هما أغلى تراث تفتديه الأمة بدمائها وأولادها وأموالها. ولما كان ذلك القرار لا يمكن ولن يمكن إقرار مادة منه إلا إذا فني العالم الإسلامي ولم يبق فيه من يدافع عن دين محمد بن عبدالله ﷺ، فإنا نعلم السلطة الفرنسية بأن أرواحنا ودماءنا نقدمها رخيصة في سبيل الإسلام والقرآن، ولن تهدأ النفوس حتى يلغى هذا القرار الأثيم! نؤيد السادة العلماء في احتجاجهم، ونعلن أننا جنودهم، وقفنا أنفسنا لخدمة الإسلام والمسلمين».

مرحى مرحى لشباب الإسلام وفتية محمد ﷺ، فقد برهنوا اليوم على أنهم لا يزالون أمل الإسلام المرجى، وجنوده البواسل. فالثبات الثبات أيها الشباب على عهدكم، تكلؤكم عناية الله، وتحرسكم رعايته، وتحف بكم قلوب القادة من علماء المسلمين وكبرائهم وذوي المكانة فيهم.

أيها الظالمون! لقد امتلأ العرين بالأشبال والأسود، فالويل لمن تحدّثه نفسه بعد اليوم بانتهاك الحمى، وتخطى الحدود!



كلهم صادقون[1]

الدنيا في هذه الأيام قائمة قاعدة، والدول مضطربة جزعة، والاستعدادات الحربية بالغة أشدها في كل أمة، وكلمة «الحرب» ترددها الألسنة صباح مساء، حتى ليمسي الرجل وأكبر ظنه أن سيصبح على دوي طلقات المدافع وقصف الطائرات، وينطلق من بيته وهو لا يدري إن كان يعود إليه سالماً أو مصاباً بغاز محرق أو مدمر أو مهيج، أو يلقاه قاعاً صفصفاً قد دمرته القنابل المدمرة المخربة، ويمر في الميادين فيرى الخنادق تحفر والملاجىء تجهز وما هي إلا قبور يحشر إليها الناس هرباً من الغارات، فمن قدر له أن يسلم من الموت محترقاً فقد حكم عليه أن يموت في هذه الملاجىء مختنقاً، وهكذا يعيش الناس اليوم.

كريشة في مهب الريح طائرة لا تستقر على حال من القلق

وبدهي أن جماهير الشعوب لا يد لها في صنع هذا الاضطراب والجزع، وإنما اليد الطولى لرجال السياسة وقادة الأمم، ولا أعني بذلك ساسة الشرق الإسلامي وقادته فهم والحمد لله الذي لا يحمد على المكروه سواه لا ناقة لهم ولا جمل - بل ولا شاة ولا قطة - في هذا الصراع الدولي القائم الآن وإن كانت شعوبهم هي المقصودة به أولاً وآخراً بل هم في شغل منشرحو الصدر على أرائكهم متكئون وفي اللهو منغمسون وفي السعي

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٦٥٠ العام الثالث عشر ١٣٥٨هـ.

لزعامتهم المهدمة البالية منهمكون، بينما النيران من حولهم تكاد تلتهمهم وتلتهم أقوامهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون. لم يبق مسؤولاً عن ذلك إلا قادة الغرب وزعماؤه، ففيم الصراع والنزاع؟ المسألة بسيطة والسر معلوم، فالإنكليز والفرنسيون وحلفاؤهم خرجوا من الحرب الكبرى وبأيديهم أكبر نصيب من الأسلاب والغنائم، فاقتسموها فيما بينهم قسمة عادلة كما يقتسم قطاع الطرق أسلاب المارّة حين يسودهم الوئام والصفاء، وهناك دولتان خرجتا من الحرب إحداهما مهيضة الجناح وأخراهما مسلوبة الأرباح فعز عليهما أن يفوز غيرهما بخيرات الدنيا ونعيمها وهما محرومتان، فما زالت الأولى تسعى وتدأب حتى نبت ريشها واستقام عودها، وما زالت الثانية تجتهد حتى قوي نابها واشتد ساعدها، فقالتا للآخرين: تعالوا نقتسم الأسلاب من جديد ونصفي الحساب!. ولكن كيف يستقيم الظل والعود أعوج؟ هذا شيء لم ينالوه إلا بإراقة الدماء وما أراقوا الدماء إلا لينالوه. أفيقدمونه غنيمة باردة وهم أقوياء أشداء؟ هذا شيء بعيد عن منطق الحق والعدل والإنصاف! قالت الأوليان إذاً تربصوا. وما هي إلا غمضة عين حتى ابتلعت إحداهما الحبشة ومدت الأخرى يدها فاختلست النمسا وحركت الأولى قدمها فإذا هي في ألبانيا. وتحركت الثانية فإذا هي تجر إليها تشيكوسلوفاكيا ثم قالتا وهما تزمجران: تلك هي أيها المترفون الممتلئة بطونهم صولات الجائع إذا ثار، والعطشان إذا منع عنه الماء، وما خفى أكثر مما ظهر، وما يأتي أكبر مما غبر، ولن نكف عن العدوان حتى لا ندع لكم شيئاً ولا نذر! وكانت الضربة أليمة والمفاجأة عظيمة، فاشتد الجزع وثار الطمع وقال الأصدقاء بعضهم لبعض: ويلكم! أندع هاتين العصابتين تسلبان الغنائم، وتهاجمان الحمى، ونحن مجتمعون متساندون؟ لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون!.. لندفعن عن الممتلكات والمستعمرات حتى ترتدّا على أعقابهما ونريهما عاقبة تطاول الضعفاء على الأقوياء والفقراء على الأغنياءا! ولكن أنى ذلك وقد أخذنا على غرة، فلا بد من الاستعداد والتسلح، ولا بد من التزود لحرب طاحنة حالقة، فلنشغل المعتدين بالكلام

ولنملأ الدنيا بالتهييج والاتهام، حتى يكمل التهيؤ ويتم الاستعداد!

قالت فرنسا: إن المدنية المسيحية أصبحت معرضة للخطر إزاء همجية الدول الاستبدادية، وإن أسوأ شيء تتصف به هذه الدول الغدر ونقض العهود!

وقالت أمريكا: إن مأساة اليهود في ألمانيا وهجوم المستبدين على الأمم الضعيفة أمر ينظر إليه العالم بعين الجزع، فعلى الذين يقدرون حرية الشعوب أن يتكاتفوا لرد هذا العدوان.

وقالت انكلترا: إن سلب حريات الأمم وتمزيق دولهم والتضييق على اليهود أمر يثير الشعور الإنساني والرحمة البشرية، ويضطر ناس للاعتقاد بأننا نعيش في عصر الأدغال.

وقالت ألمانيا وإيطاليا: إن الدول الديمقراطية تتباكى على الحرية والإنسانية والعدالة، فهل نسيت انكلترا مذابح البوير، ومآسي فلسطين، وفظائع الهند وعدن؟ وهل نسيت فرنسا فظائع سوريا وتونس والمغرب الأقصى؟ وهل حرق الزنوج في أمريكا مما يشرف تاريخ الإنسانية ويتفق مع دعوى الحرية في تلك البلاد؟

ووقف العرب والمسلمون من بعيد يقولون لهؤلاء وأولئك: لقد صدقتم والله جميعاً فيما يتهم به بعضكم بعضاً من فظائع وفضائح. ولستم جميعاً بصادقين في تمسحكم بالإنسانية والعدالة وحقوق الشعوب. وما نرى بعضكم يمتاز عن بعض في سياسة الأدغال، وهل سميت إحداكن بالنسر الألماني، وثانيتكن بالدب الروسي، وثالثتكن بالأسد أو الحوت البريطاني. إلا لأنكم تنفذون قانون الأدغال؟ هل نسيتم أيها السادة المتألمون لنقض العهود أنكم أعطيتمونا عهوداً صريحة بضمان حقوقنا واستقلالنا، وأعطى أجدادكم مثل ذلك لأجدادنا في الأندلس، فما رأيناكم قديماً ولا حديثاً تحفظون وداً أو تقيمون عهداً أو تنفذون اتفاقاً إلا إذا كانت لكم فيه مصلحة، وما وجدنا منكم إلا نكثاً للعهود وإخلالاً بالوعود وتلاعباً بالمواثيق كما تشاء أهواؤكم ومصالحكم!..

هل نسيتم أيها المتباكون على نكبة اليهود في ألمانيا وإيطاليا أن نكبة مسلمو فلسطين باليهود أشد مما نكب به يهود ألمانيا وإيطاليا بما لا يصح معه القياس والمقارنة، وما سمعنا من أحد منكم إنكاراً أو احتجاجاً أو اشمئزازاً، فهل هؤلاء من طينة غير طينة البشر، أم أنتم قوم كالنادبات من النساء لا يبكين إلا حين تلوح لأبصارهن المصلحة والمنفعة!

هل نسيتم أيها المتشدّقون بالدفاع عن الحريات من الفريقين المتناحرين أن أربعمائة مليون من البشر تحكمونهم بالحديد والنار وتعاملونهم بسلب الحريات وانتهاك الحرمات، دون أن تتألم ضمائركم أو تهتز مشاعركم أو يأخذكم بهم الرفق كما رفقتم بحيواناتكم التي أسستم لها جمعيات، وشيدتم لها مستشفيات، وعرّشتم لها حدائق ومتنزهات؟ أفلا يستحق هؤلاء معاملة كهذه التي تعاملون بها حيواناتكم، أم أنتم قوم فيكم طبيعة الوحوش لا تحنو إلا على أطفالها وذراريها؟

قال الراوي: ولكن أسماع هؤلاء المتمدنين في القرن العشرين مملوءة بأزيز الطائرات وقعقعة السلاح، فلم يصل إليها قول العرب والمسلمين واستمروا على تجاهلهم حتى الآن، يدفعهم الرياء إلى التحبب إليهم بالدعايات وزعم التقرب إلى قلوبهم بالألفاظ المعسولة التي تكشف عما وراءها من خبث ومكر، كما يكشف بريق العملة الزائفة عما فيها من غش وتزييف!

وبعد فقد ذكرنا موقف دول الغرب اليوم بعضها من بعض بما ذكروا في كتب الأدب من الطُرَف من أن واعظاً وعظ الناس في بعض المساجد، فلما ظن أنه بلغ من وعظه ما أراد مدَّ يده ليأخذ مصحفه ويمشي، فلم يجده، فالتفت إلى القوم ليسألهم عنه، فإذا هم خشّع يبكون، فتولته الدهشة وقال لهم: كلكم يبكي، فمن ذا الذي سرق المصحف؟.. ونحن نسأل هؤلاء الذين يرفعون عقيرتهم بنصرة الشعوب المظلومة: من الذي خرّب مدن فلسطين، وجعل عاليها سافلها، وترك أعزة أهلها أذلة، ولطخ جدرانها بالدماء، وملأ بيوتها بالأرامل، وشرّد أطفالها في الأزقة، وزجّ رجالها في السجون، ولوّث أيديه بدماء شهدائها وأبطالها؟..

من هم الذين صوبوا نيران المدافع الرشاشة إلى قبة المسجد الأقصى ولوثوا صحنه الطاهر بنعال جنودهم القذرة، ونسفوا بيوت الله بالديناميت ولم يرعوا لرجالها حرمة ولا ذمة؟

من ذا الذي سلب أهل المغرب الأقصى وتونس والجزائر أموالهم، وعقارهم، وعقائدهم، وحرياتهم، وكراماتهم، وأذاقهم العذاب أنواعاً وألواناً؟

من ذا الذي أجرى الدماء أنهاراً في شوارع سوريا وجعل من أمتها الواحدة أمماً مختلفة ودولاً متفرقة وحاول أن ينسف قواعد شريعتها بقانون ذميم لم يتراجع عنه إلا بعد أن رأى بعينه نتائج سياسته الحمقاء؟

وأين كنتم يوم اعتدى الظالمون على أهل طرابلس الغرب في أعراضهم وأموالهم وشريعتهم وقذفوا بمجاهديهم من الطائرات إلى الأرض، وانتهكوا حرمة البطولة والشيخوخة بسفك دم الإنسان الكامل عمر المختار. ثم يوم أعلنوا ضم طرابلس الغرب إلى مستعمراتهم وفرضوا على أهلها التخلي عن أمتهم وملتهم، كل ذلك على مسمع منكم ومرأى، فما حركتم ساكناً ولا أظهرتم تألماً.

وهل لو كانت ألبانيا مسيحية محضة مثل رومانيا أو اليونان كنتم تقفون هكذا متفرجين على غزوها وهي أصغر من مديرية واحدة من مديريات القطر المصري، هوجمت بمائة وسبعين سفينة حربية وبأربعمائة طائرة عسكرية وبفيالق ملأت سهول ألبانيا وجبالها؟

تتسابقون اليوم في الدعايات ويحاول كل فريق منكم تشويه سمعة الآخر في نظر المسلمين حتى لقد أخذت صحفكم وإذاعاتكم وكُتّابكم يصفون اشمئزاز العالم الإسلامي من حوادث ألبانيا بإسهاب، فالمسلمون في تونس والجزائر حانقون غاضبون وفي سوريا يتظاهرون ويهتفون: (لا إله إلا الله، موسوليني عدو الله) وفي الأزهر يحاولون التظاهر فيمنعهم رجال الشرطة، وفي لندن يطلبون من موسوليني التخلي عن لقب حامي الإسلام!

بمثل هذا تملؤون صحفكم وإذاعاتكم ضحكاً من المسلمين ورياء فمتى كنتم تقيمون للشعور الإسلامي وزناً، ولِمَ لم تذكروا قبل هذا نقمة المسلمين على سياسة الظلم في فلسطين، وسوريا، والمغرب، والهند، وطرابلس الغرب وكل بلد دخلتموه على اختلاف ألوانكم فأفسدتموه. وهل ينسى المسلمون أنكم كنتم قبل اليوم تجعلون في آذانكم وقراً لئلا تسمعوا احتجاج المسلمين على إيطاليا لأن الود كان مستحكماً بينكم وبينها. وإذا كان المسلمون في سوريا وصفوا موسوليني بأنه عدو الله، فهل وصفوكم بأنكم أحباب الله وأصفياؤه؟ أم أنتم جميعاً في نظرهم وفي نظر كل مسلم مشتركون في محاربة هذه الأمة المسكينة لا لذنب اقترفته غير أن الذين تولوا أمورها قديماً تركوها ضعيفة وفريسة للمفترسين.

وتقول صحف روما وكتابها وإذاعاتها إن الملك أحمد زوغو لم يكن شديد التمسك بإسلامه، وأنه رضي بتنصير أولاده وبدد أوقاف المسلمين وخرب مساجدهم، فمتى كنتم يا هؤلاء تعنون بمثل هذا، ومتى كنتم تغارون للإسلام وأوقافه ومساجده وتنصير أبنائه وإذا صح شيء من هذا فلعلكم كنتم الحاملين له عليه، ألستم أنتم الذين تحاولون أن تخرجوا شعباً بأسره من عروبته وإسلاميته وتدمجوه في كاثوليتكم وإيطاليتكم، ألستم أنتم الذين رميتم شيوخ المسلمين من الطائرات وكان جنودكم يصفقون لذلك ويضحكون ويقولون: ليأت محمد نبيكم البدوي ليخلصكم من أيدينا؟

أشفقوا يا أدعياء المدنية على أنفسكم، فأنتم إنما تغالطون أنفسكم بمحاولتكم إفهامنا أنكم تحترمون أديان الناس وتقليدها، ونحن الذين بلوناكم جميعاً فما رأينا لدولة منكم فضلاً على أخرى إلا في المكر والدهاء. لا يا هؤلاء، لا تتعبوا أنفسكم بعد اليوم فوالله إن كنا وما زلنا نضحك بملء أفواهنا حين نسمع دعاياتكم وإذاعاتكم، وما نرى فيها إلا دليلاً على جزع المبطل وتزعزع مركز الظالم سوى شعوره بالإساءة إلى الإنسانية والحق، فأنتم الآن تسعون لتلطيف الجو واكتساب مودتنا لنسعفكم عند النوازل،

ولكن هيات فنحن من قوم خاطب الله نبيهم بقوله: «**وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء أن الله لا يحب الخائنين**» ومن أمة قال شاعرها:

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المرّ من ثمره

❀ ❀ ❀

الفتح في عامها الرابع عشر[1]
جهاد متواصل في خدمة دين الله وشعوب المسلمين

تدخل الفتح بهذا العدد في عامها الرابع عشر، وهي - بهذا العمر الطويل الحافل بأصدق آيات الجهاد والتضحية - أقدمُ الصحف الإسلامية الموجودة الآن، وأرسخها قدماً في خدمة الإسلام والمسلمين.

للفتح في نفسي ذكريات جميلة، فلا أزال أذكر كيف تناولتُ أول عدد وصل إليّ منها بغبطة دونها غبطة الملهوف إذا وجد ضالته، وكيف كنت أنتظر يوم وصولها بفارغ صبر، وكيف كنت أبذل ما أستطيع بذله في نشرها وتعميم تناولها بين أيدي الجمهور، ولا أزال أذكر كيف تفتحت عيناي لحقائق المجتمع الإسلامي بعد أن اتصلتُ بها، وكيف كانت قراءتها تلهب في فؤادي حمية الشباب وعصبية الإسلام، فإذا أنا ثائر هائج، وإذا أنا بين جدران السجون تارة وفي غرف التحقيق تارة أخرى. ولا أزال أذكركم كنت أعاني من الشوق إلى الأستاذ الخطيب والرغبة في لقائه حتى بلغ بي الأمر أن رأيته في أحلامي مرات متعددة، وما كان اللقاء بعدها حقيقة ويقظة إلا ليزيدني به حباً، وبجهاده وخلقه إكباراً وإعجاباً، ولم يكن هذا من شأن (الفتح) معي وحدي، بل قل مثل ذلك في إخواني الذين هم الآن قرة عين

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٦٥١ فاتحة العام الرابع عشر ١٣٥٨هـ.

الإسلام في ديار الشام. ولا أعرف فيمن أعرف من شباب الشام اليوم صادقاً في خدمة الإسلام قوياً في جهاد أعدائه إلا وللفتح عليه فضل ـ بعد الله ـ في إمداد روحه بالقوة واليقظة، وفي توجيهه إلى هذا السبيل توجيهاً صالحاً كفيلاً بالإيصال إلى الغرض المقصود.

إن للفتح أثراً محسوساً في تحريك الهمم الخامدة، والعزائم الراقدة، ودفعها إلى العمل الصادق فيما يرضي الله ورسوله. وستفوز (الفتح) بأكبر قسط من ثناء التاريخ وتقريظه بعد أن حازت إعجاب الغيورين من شباب الإسلام وقادته، وذلك راجع إلى ما اجتمع في (الفتح) من ظواهر ثلاث لا تجدها مجتمعة في غيرها من الصحف والمجلات:

أولاها: صدق إخلاص منشئها وعظيم وفائه لدينه وأمته، وشدة شكيمته في الحق، وبذله جهود الجبابرة لنشرها وإيصال صوتها المدوّي إلى كل أذن وقلب، وتضحيته بكل ربح مادي في سبيل أداء رسالتها على الوجه الذي يحقق المصلحة الإسلامية المنشودة. ولست الآن بصدد الحديث عن جهاد صاحب (الفتح) ومدى خدماته، فذلك له غير هذا المقام. على أني أخشى أن أتعرض للوم الأستاذ وعتبه بالتحدّث في موضوع ليس من خلقه الاطمئنان إليه، ولا الارتياح له.

ثانيتها: خطتها الواضحة في خدمة الإسلام؛ وسلوكها في ذلك سبيلًا مستقيماً ملائماً لروحه وحقيقته الخالدة، فهي تخدم الإسلام على أنه دين عبادة وسيادة. فمن أخطأ في الأولى أو الثانية فليس من الإسلام في شيء ومن حارب الأولى فهو في نظرها كمن حارب الثانية. وهي من أجل هذا تحارب من ألحد في آيات الله وانتقض على أحكامه ونظمه، كما تحارب من أذلّ المسلمين وانتقص من سيادتهم وحرياتهم سواء بسواء. وقليل من الصحف الإسلامية من تنهج هذا المنهج الكفيل بخلاص المسلمين ورفعتهم، بل أكثرها ما بين مهتمة ببحث الناحية الروحية فقط من صلاة وصيام وحج وغير ذلك، فلا تعنى بشؤون الإسلام السياسية قليلًا ولا كثيراً؛

وليست مدعية خدمة المسلمين ومحاربة دول الاستعمار وهي في الوقت نفسه تشجع الفسوق والإلحاد، وتأخذ بيد ذوي العقائد الضالة الهدامة، وتكيل المدح والثناء جُزافاً لمن حاربوا أحكام الله وتشريعه المتقن الرفيع، وبين هذه وهذه ضاع المسلمون واستعبدت أوطانهم.

ثالثها: ثباتها على مبدئها الذي أسلفناه، فقد تعرَّضت لضربات قوية من دول الاستعمار كافة، واستهدفت لحملات متعددة من ذوي الأغراض السيئة، وهي في هذا وذاك ثابتة ثبوت الجبال، ماضية في جهادها المشكور: لا يثنيها وعد ولا وعيد، ولا ينحرف بها بذل ولا عطاء. وكثيراً ما هاجمت رجالًا ذوي حيثية في الهيئة الاجتماعية هجوماً عنيفاً لانحرافهم عما تعتقده من حق وصواب، غير مبالية بسخطهم وسخط أشياعهم ما دام في ذلك إرضاء الله وخدمة كتابه، وما موقفها من مسألة القبعة والرابطة الشرقية وعصبة الإلحاد في مصر وترجمة القرآن أولًا ليس بغائب عن أذهان قرائها الأفاضل.

تلك هي فيما أرى أظهر الميزات التي تنفرد بها الفتح عن غيرها من الصحف الإسلامية، مما حبب بها كبار الناس وكرامهم، ولست أغمط بقية الصحف المخلصة للإسلام حقها من الثناء والتقدير، ولكني أودّ أن أصرّح في هذا المقام بأنه كان من الواجب أن يكون لنا مثل (الفتح) في خطتها ومنهجها صحف كثيرة تساهم معها في إيقاظ الفكر الإسلامي الحاضر من سباته العميق، وتوجيهه الوجهة التي تكفل سيادة المسلمين وخلاصهم من حالتهم الراهنة، ولكن ذلك مع الأسف لم يوجد إلى الآن، ولذلك أسباب ليس هنا محل الإفاضة فيها.

قي شيء آخر لا أحب أن يفوتني في هذه العجالة، وهو مدى انتشار (الفتح) في الأوساط الإسلامية، لا شك أنها منتشرة في كل قطر إسلامي، ومحل عناية كثير من أفاضل المسلمين، ولكن لا نكران بأنها لا تلقى التأييد والرواج الواجبين لها. ولذلك عوامل كثيرة أهمها سيطرة الأحزاب السياسية

على عقول الجماهير بواسطة صحفهم القوية التي يبذلون لها الأموال الطائلة لتصوغ عقول العامة بالشكل الذي يوافق أهواءها وغاياتها، ومن المؤلم حقاً أن هذه الأحزاب ـ يختلف بعضها مع بعض في كل شيء إلا في البعد عن خدمة الإسلام والإخلاص له. فللأغراض السياسية المحل الأول من عنايتهم واهتمامهم، أما الشؤون الإسلامية فيستخدمونها كوسائل للوصول إلى ما يبتغون أن لم يعملوا على محاربتها بالفعل. ومن هنا تجنّى جمهرة صحفنا السياسية على الإسلام عمداً أو بغير عمد، فلم يتيسر لجمهور القراء والناشئة أن يفهموا الإسلام كما ينبغي أن يفهم، ولا أن تملأ أدمغتهم بعظمة الإسلام ووجوب الدفاع عنه كما يجب أن يكون، فاتسعت الشقة بينهم وبين العاملين في حقل الشؤون الإسلامية، ولم تستطع (الفتح) وأمثالها أن تشق لها طريقاً قوياً وسط هذه الجموع الحاشدة لتوقّف ذلك على المال قبل كل شيء، وأنى يكون المال إلا في صناديق الحكومات والأحزاب؟ ولا ريب أن هذه الحالة المؤلمة سيؤاخذ الله عليها أقواماً كثيرين كانوا يستطيعون النهوض بهذه الصحيفة الإسلامية حتى تقف بجانب زميلاتها، لو أنهم ابتغوا وجه الله والدار الآخرة. أما الأستاذ الخطيب فقد أعذر إلى الله بهذه الجهود المضنية التي بذلها خلال ثلاثة عشر عاماً وحيداً فريداً لا معين له إلا الله جل شأنه، ولا ذخيرة له إلا قوة إيمانه وصدق إخلاصه، وحسبه أن الله كافأه على ذلك في الدنيا بالتفاف الصفوة المختارة من شباب المسلمين وأفاضلهم في عشرات الأقطار حوله، يقدرون له جهاده حق قدره، ويدعون الله له في ظهر الغيب بطول العمر وإجزال العطاء، وإثابته ثواب المجاهدين لإعزاز كلمته وخدمة دينه، وأما مكافأة الله له في الآخرة فما عند الله خير وأبقى، وإن للمخلصين في خدمة دينهم عند ربهم زُلفى وحسن مآب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

بين مصر والشام[1]

سافرت في الصيف الماضي إلى الشام لقضاء العطلة الصيفية كشأني في كل عام، وكنت عزمت على الاتصال أثناء إقامتي هناك بقرّاء الفتح، فأرسل إليها بضع مقالات تتناول الحالة العامة في بلاد الشام من جميع وجوهها، ولكني شغلت عن ذلك أول الأمر بواجبات لا مناص لي من القيام بها، ثم كان أن أعلنت الحرب واضطربت شؤون العالم - وللحرب أحاديث غير أحاديث السلم، وجوّ الحرب جوّ مكفهر قد يكبل الأقلام ببعض القيود تقديراً للحالة الراهنة - فانصرفت عما كنت أريده مرجئاً ذلك إلى فرصة أخرى ولعلها قريبة - إن شاء الله -.

والآن وقد عدت إلى القاهرة منذ أسابيع لا بد لي من الخوض في حديث كثر التحدث به في مجالس الناس عامة وخاصة، وأعني به موقف القطرين الشقيقين أحدهما من أخيه، وعلاقة كل منهما بالآخر.

مصر والشام قطران شقيقان تربط بينهما روابط الدين واللغة والجوار والانتماء لأمةٍ واحدةٍ منذ قرون طويلة، حتى إنهما ليتشابهان في كثير من العادات والتقاليد فقلّ أن يشعر مصري بآثار الغربة في الشام إلا كما يشعر بها ابن القاهرة إذا زار الإسكندرية أو أسيوط، وكذلك شعور الشامي إذا قدم

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٦٩٣ العام الرابع عشر ١٣٥٩هـ.

مصر. ومن هنا كثرت هجرة الشاميين إلى مصر والمصريين إلى الشام سواء في طلب العلم أو الرزق أو الراحة والنشاط.

بيد أن الاتصال بين البلدين لم يكن قبل الحرب العامة كشأنه الآن، فقد كانت استانبول دار الخلافة ومركز العلم والملك والثقافة، فكان أبناء الشام حينئذ أشدَّ ارتباطاً بها منهم بالقاهرة. حتى إذا وضعت الحرب أوزارها وانقطعت العلاقات بين استانبول والبلاد العربية والإسلامية، أخذت القاهرة تحتل مركز استانبول من قبل رويداً رويداً، وما هي إلا سنوات معدودة حتى أصبحت محطَّ رحال أبناء العربية والإسلام بأزهرها وجامعتها وصحافتها ومطابعها واتساعها وغناها وتقدمها الاجتماعي والعمراني، فازداد اتصال الشام بمصر وتطلعت إليها أنظار المتعلمين والمثقفين والمنشغلين بالمسائل العامة، ثم ازداد الأمر وثوقاً بما تحمله القطران من صنوف العناء في سبيل الحرية والاستقلال، فوجدت بينهما الآمال المشتركة والآلام المتشابهة، حتى ذاعت أحاديث العطف والتأييد على ألسنة الزعماء في البلدين، وامتلأت صحفهما بأخبار الرحلات العلمية والرياضية المتبادلة بين الطرفين.

ومصر ـ بلا ريب ـ جديرة بهذه المكانة الممتازة في قلوب الشاميين، غير أن بينهما نوعاً من العتب سنحاول الكلام عن شيء منه رجاء أن يصل إلى أسماع من يعنيهم هذا الأمر فيبادروا إلى إزالته ليزداد الإخاء تأكداً والحب توثقاً!

يتمنى الشاميون على إخوانهم المصريين أن تزداد عنايتهم بتتبع أخبارهم ومعرفة أحوالهم والوقوف على مدى ثقافتهم وتقدمهم، كما يفعل الشاميون فيما يتعلق بمصر إذ لا تكاد تخفى عليهم صغيرة ولا كبيرة من أحوالها وتقلباتها ومدى نهضتها. وقد شاهد ذلك واختبره كل من زار الشام أدناها أو أقصاها من أعيان المصريين في العشرين سنة الأخيرة. وإنك لتختلط برجل الشارع في الشام فتبهرك إحاطته الشاملة بشؤون مصر دقيقها

وجليلها، حتى ليعرف أسماء زعمائها ووزرائها وتاريخ حياتهم ومواقفهم من القضية الوطنية، ويحفظ من أقوالهم ما يحتمل أن يكونوا هم أنفسهم قد نسوه، ويعرف أسماء البلدان المصرية والمشهور منها وما تمتاز به كل منها على غيرها وما إلى ذلك مما قد يخفى على كثير من أبناء مصر أنفسهم. وتختلط بالرجل المثقف فتراه واقفاً على حركة التعليم في مصر والقائمين بشؤونه وإلى أي مدى يسير ويتجه، مما يدلك على تتبع تام للحوادث واستقصاء لها. وتجتمع برجل السياسة فيقصّ عليك من سياسة مصر الداخلية والخارجية وحوادث الأحزاب فيها وموقف بعضهم من بعض ما يدلك على إحاطة شاملة بتاريخ الحركة المصرية في جميع أطوارها. وتلقى رجال الجمعيات الإسلامية فيحدّثونك عن الجمعيات الإسلامية في مصر وعن رؤسائها وأعمالها، حتى ليخيل إليك أنهم من أعضائها العاملين فيها المبرّزين في خدمتها. وتستمع إلى رجال الأدب فتراهم على أعظم جانب من الوقوف على الحركة الأدبية وقادتها وزعماء النثر والشعر فيها. وتصغى إلى رجال الشرع وأئمته ومفتيه فترى عندهم العلم التام بسير رجال الأزهر، وتاريخ حياتهم، ومواقفهم الإيجابية أو السلبية من الحوادث التي لها صلة بالإسلام، وبمبلغ خدماتهم للدين والعلم، وبما يؤلفون ويكتبون ويفتون. ترى هذا كله في أبناء الشام على اختلاف نزعاتهم وطبقاتهم. فما هو موقف إخوانهم المصريين منهم ومن بلادهم وحركاتهم؟ أنا لا أريد التبسط في هذا الجواب فقد يعز على بعض إخواننا المصريين أن يسمعوه كاملاً على وجهه الحق. وحسبي أن أشير الآن إلى أننا كثيراً ما نُسأل ونحن في مصر عن سوريا وأين موقعها وما الفرق بينها وبين لبنان ومن يحكم فلسطين وسوريا ومن هو ملك الشام؟ بمثل هذا تعلم مبلغ إحاطة بعض إخواننا في مصر بشؤون الشام. ولست أزعم أن هذا صنيع الجمهرة منهم، ولكنه بلا ريب هو صنيع الكثير من متعلميهم، فما بالك بالعامة والدهماء؟

قد يكون هناك أسباب كثيرة حملت أبناء الشام على العناية بشؤون مصر وتتبع أخبارها ليست موجودة عند أبناء مصر، ولكن مهما يكن الأمر،

ومهما يكن غنى مصر وسعتها ورقيها، ومهما تكن حاجة الشام إلى ثقافتها ومعاهدها، فهذا لا يصحح أبداً أن يكون بين الشعبين مثل هذا التفاوت الكبير في معرفة أحدهما بالآخر، لأن هذا النوع من المعرفة يتوقف عليه التعارف الإسلامي والتعاون المنشود.

ومما يعتب به الشاميون على إخوانهم تلكؤ الصحف والهيئات عند الشدة بما يستطيعون من عطف ومعونة، فقد نكبت سوريا عام **١٣٥٥**هـ بحوادث التظاهر والأحزاب، نكبة جعلتها في أشد الحاجة إلى العون، ثم نكبت بحوادث السيول التي أفقدت زهاء عشرة آلاف طفل ورجل وامرأة مأواهم وطعامهم وشرابهم، وليس هذا الرقم صغيراً بالنسبة إلى جارة قليلة النفوس. ونكبت فلسطين بحوادث الثورة الأخيرة ثلاث سنوات متلاحقة أتت على الطريف والتالد من أموالهم وأقواتهم وأوقعتهم في مجاعة شاملة عامة، وكان المأمول أن يبلغ عطف مصر على شقيقتيها مبلغ عطفها على فنلندا وبولندا، فضلًا عن الحبشة وتركيا!..

نحن لا نجحد الجميل، ولا ننكر ما في الأمر من أسباب وبواعث، ولكنا نعتقد أن مصر التي اتخذتها الأقطار العربية شقيقة كبرى لها والتي حفزها باعث الشفقة والرحمة بالإنسانية المعذَّبة إلى مساعدة فنلندا المجاهدة مع ضعف الصلة بينهما، كان يرجى أن تتجلى شفقتها ورحمتها بالطفولة المشردة في شوارع فلسطين وباليتم المتجلي في ثلاثين ألفاً من أبناء المسلمين المشتتين المساكين، مع قربها منهم واتصالها بهم بمواثيق خالدة من اللغة والجوار والدين. كان يرجى أن تتجلى تلك العاطفة الجميلة مع إخوانها وجيرانها كما تجلت مع أولئك، لا تبتغي فوق ذلك مزيداً!..

هذا بعض ما بين الأحباب من حديث يدور حول ما نأمله من توسعة دائرة التعارف والتعاون، دفعنا إلى إعلانه الواجب، وبعثنا على تحمل الملام فيه فرط الحب والغيرة، فعسى أن يقع موقع القبول من ذوي الألباب.



هل شباب الجيل الحاضر خير[1] من شباب الجيل الماضي؟

حضرتُ المناظرة التي قامت مساء الخميس الماضي بين الدكتور طه حسين بك وآنسة من ناحية والدكتور حسين هيكل باشا وآنسة من ناحية أخرى، وكان موضوع المناظرة: هل شباب الجيل الحاضر خير من شباب الجيل الماضي؟ وكان يؤيد الرأي الأول الدكتور طه ويعارضه الدكتور هيكل، ولقد أدلى الفريقان برأيهما في الموضوع، وتمت المناظرة. إلا أنهما في الواقع لم يفصلا في الأمر، بل كانا يتهيبان التصريح بالحقيقة الواقعة رغم جلائها ووضوحها، خشية غضب الشباب الذي كان يملأ جوانب القاعة وطرقاتها. اللهم إلا ابنة الشاطىء فقد كانت صريحة في معارضتها للدكتور طه، شديدة الوطأة على شباب عصرنا، جريئة في بيان شيء من عيوبهم التي يمتازون بها عن شباب الجيل الماضي!

والموضوع يستحق العناية والاهتمام، وجدير بأن يبحثه قادة الرأي وأرباب الفكر وحملة الأقلام بصراحة لا يشوبها لبس، وبجرأة لا يخالطها ضعف، رجاء أن يعرف شباب اليوم مواطن الضعف والنقص في رجولتهم وأخلاقهم وفي حياتهم الدينية والاجتماعية، ولهذا كانت خيبة كثير ممن حضر المناقشة شديدة حقاً حين رأوا من تكلم في هذا الموضوع تحاموا أن

---

(١) مجلة الفتح الغراء، العدد: ٦٩٥ العام الرابع عشر ١٣٥٩هـ.

يتحدثوا فيه بصراحة مجدية في حشد ضم آلاف الشباب المتعطشين إلى سماع آرائهم فيهم!

وأنا أحب أن أهتبل هذه الفرصة لأتحدث في هذا الموضوع حديثاً صريحاً قد يكون قاسياً، ولكنه هو الذي ينبغي أن يطرق آذان الشباب، لا أحاديث التملق والمداهنة والإطراء!.

مما لا ريب فيه أن شباب هذا الجيل أخذوا بقسط وافر من الثقافة العامة الواسعة، وفتحت أمامهم أبواب المعاهد والجامعات، وذللت لهم طرق العلم والاطلاع على آراء العلماء والأدباء من كل أمة بما ينشر في الصحف والمجلات والمؤلفات والإذاعات، وكل هذا لم يتهيأ لشباب الجيل الماضي إلا نزراً يسيراً. كما أن هذه الحروب المتكررة في خلال عشرين عاماً، وهذه الأعاصير التي تعصف بسلم العالم وأمنه ورخائه، أطلعت شباب اليوم على كثير من الحقائق التي كانت خافية على إخوانهم بالأمس، فمن هنا يصح القول بأنهم من هذه الناحية يفضلون شباب الجيل الماضي. وهنالك نواح أخرى ينبغي فيها المقارنة، وهي النواحي الدينية والخُلقية والاجتماعية:

أما الناحية الدينية فما نظن أن أحداً يشك في أن شباب الأمس خير من شباب اليوم عقيدة وإيماناً، وحسبك أن تعلم أن مدرساً أجنبياً في الجامعة كان يتلقى عليه شباب الأمس دروساً في الحقوق والقوانين، تعرّض مرة للإسلام وتشريعه تعرضاً بعيداً، فكان ذلك كافياً لإثارة طلابه في الجامعة وامتناعهم عن حضور دروسه حتى يعتذر علناً، وكان لهم ما أرادوا. أما الآن فقد طعن في القرآن علناً وحورب الإسلام غير مرة من بعض المدرسين في الجامعة فلم يكن هنالك ثورة ولا ألم إلا صوتاً خافتاً. ثم كانت نهاية الأمر أن كوفىء المدرس الطاعن بالترقية، ثم غمر بالحب والإكبار، ثم أصبح مطمح الأنظار وحديث الكبار والصغار؟

أكان يحدث في الجيل الماضي أن ينشر ملحد على الناس إلحاده

ولماذا هو ملحد ثم لا يقابل بألم واستنكار، بل يصبح من أعلام البحث تفتح له أرقى مجلاتنا صفحاتها لبحوثه وآرائه؟

أكان يحدث في الجيل الماضي أن يطعن طاعن في السنّة والصحابة وأئمة الحديث وأجلة التابعين، ويصمهم بالوضع والكذب، ادّعاء يزجيه بلا حجة ولا دليل، ثم لا يكون موقف الناس منه إلا أن تطلب مشيخة الأزهر مصادرة كتابه؟

أكان يحدث في الجيل الماضي أن يجهر مدرس في معهد - يؤلمني أن أقول إنه إسلامي - يسب بعض الصحابة الذين اشتركوا في القتال بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، ويتلقى الطلاب هذا كأنه أمر مسلم به ولا شيء فيه؟

وأخيراً هل كان في الجيل الماضي من يجاهر في المجالس الخاصة والعامة بالإلحاد والتهكم على أهل الدين وعقائدهم كما نراه واضحاً جلياً في كثير من شباب اليوم؟

يقول الدكتور طه حسين رداً على تلميح صديقه الدكتور هيكل إلى هذه النقطة: ليطمئن بال صديقي هيكل فإن الجامعة معنية بتنمية بذور الإيمان في صدور الشباب! وقد كان في المستمعين من قال: نعم، ومصداق هذا إلقاء دروس الشعر الجاهلي، واختيار روايات مخصوصة من روايات برنارد شو!..

وأما الناحية الخلقية فحسبك أن تقرأ صحف الصباح والمساء وصحف الأسبوع والشهر لنرى إلى أي حد انحدر المستوى الخلقي في محيط الشبان، حتى بلغ ببعضهم أن يسرق أمتعة زملائه، وبآخرين أن يدخلوا المتاجر فيسرقوا منها ما يستطيعون، وبآخر أن يهاجم فتاة فيقبلها في عرض الطريق وعلى مشهد من المارة، وينشر خبر ذلك في الصحف اليومية نقلاً عن سجلات الشرطة، فهل كان يحدث هذا في الجيل الماضي؟

هل كان يحدث في الجيل الماضي أن تدخل حديقة من حدائق القاهرة في يوم عيد فترى جماعة من الشباب يتبعون فتاة مصفقين مغنين ضاحكين؟ وهل أنشىء قسم شرطة الآداب إلا لأن الانحدار في الخلق أوجب إنشاءه؟

هل كان يحدث في الجيل الماضي أن لا يغادر الشاب بيته إلا بعد أن يقف ساعات أمام المرآة يصقل شعره ويلمع خده، ويصلح هندامه، ويضفي على رأسه ووجهه أنواع العطور والرياحين؟

وأخيراً هل كان يحدث في الجيل الماضي هذا الاختلاط الشنيع القبيح في الحدائق ودور اللهو والسيارات العامة والشوارع والأندية والحفلات الرسمية وغيرها حتى غدونا نقرأ في الصحف أن حفلة أقيمت يوم كذا وحضر فيها فلان ومعه عقيلته، وفلان وعقيلته، وفلان وعقيلته!..

قال الدكتور طه حسين في رده على الدكتور هيكل: إنه لا يحسن بنا أن نأخذ عن الغرب كل ما فيه فليس كل ما يصلح له يصلح لنا[1]: ونحن نقول: نعم، ومصداق هذا الاختلاطُ بين الجنسين في دور العلم الذي دافع ولا يزال يدافع الدكتور عنه بكل ما أوتي من قوة ونفوذ!..

وأما الناحية الاجتماعية فحسبك أن تختلط بالشباب لتطلع على مبلغ كسلهم في تحصيل العلم وقد مُهدت لهم سبله، وعلى مبلغ طموحهم إلى الوظائف وقد استغرقت الظوائف نصف ميزانية الدولة، وعلى مبلغ لهوهم في الحياة وقد جدّت الأمم وجاد شبابها بأرواحهم فداء بلادهم وأممهم! اقرأ الصحف ترى أخبار الشكوى من صعوبة الامتحانات، وتذمر الأمة من كثرة المتعطلين من المتعلمين! واشتغال النيابة بحوادث المنتحرين. وقف على

(١) الفتح - يخيل إلينا أن في هذا القول تراجعاً عما قاله الدكتور قبل بضعة أسابيع في القاعة الشرقية بالجامعة الأمريكية، فقد سمعنا أن اللغط اشتد حول تلك الكلمة وأن المجاهد العظيم والنائب المحتوم عبدالرحمن فهمي بك ردد شكوى الناس على مسمع بعض المراجع، وأطلعها على مقالة الفتح ومقالة الأستاذ محمود شاكر. فلعل هذا التراجع من أثر ذلك التذمر.

أبواب دور اللهو ثم انظر إلى شبابنا كيف يتزاحمون بالمناكب من دار إلى دار ومن بار إلى بار ومن سينما إلى مرقص، كل هذا والأمة في أشد الحاجة إلى هؤلاء الشباب يداوون جراحها ويصلحون فسادها ويكافحون شتى آفاتها، فكيف يكون هذا الجيل خيراً من سابقه وهذا هو لهوه وكسله وفقدانه المثل الأعلى ثم تمرّغه في النهاية على أعتاب الدواوين تزاحماً على الظوائف؟!..

قال الدكتور طه: إن شباب هذا الجيل يطلبون العلم لذاته لا للوظائف، فقاطعه الشباب أنفسهم صائحين: لا لا. ثم أعقبوا ذلك بثورة ضاحكة!

وقالت الآنسة التي ناصرت الدكتور: إن مما يمتاز به هذا الجيل عن سابقه أن شبابه أصبحوا فتياناً رياضيين ممتلئين بالحيوية المتدفقة مقبلين على اللهو ودور السينما!.. وأن فتاته أصبحت رشيقة جميلة بعد أن كانت لا تصلح إلا للحياة المنزلية!..

وكان خير ردّ عليها ردّ الشباب أنفسهم: الضحك، والتصفيق، والهرج والمرج!..

أما بعد فإني خرجت من تلك المناظرة وأنا موقن بأن هؤلاء الشباب يشعرون بعيوبهم ويعلمونها حق العلم، ولكنهم لا يجدون من يوجههم إلى الحياة الصالحة الفاضلة الكريمة. وما دام جمهرة قادة الفكر فيهم يزينون لهم أوضاعهم ويسمونها بغير أسمائها ويتملقون لهم بالثناء والإطراء - مع قدرتهم على إصلاح أخطائهم بحسب مركزهم الاجتماعي - فستكون العاقبة وخيمة، وسيكون حساب التاريخ لهم عسيراً، وستصدر الأجيال المقبلة حكمها العادل على كل مقصر في هذا المجال الحقيقي للتشييد والإصلاح، أما حساب الله يوم تنشر لديه صحائف الأعمال فسيكون حساباً شاملاً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ولا حسنة ولا سيئة ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.



الفتح في عامها الخامس عشر[1]

تدخل (الفتح) بهذا العدد في عامها الخامس عشر، مجاهدة في سبيل الله، رافعة لواء الإسلام، لم يثنها عن جهادها القوي الرائع تقلبات الأيام ولا تألب الأزمات ولا تكاتف القوى الشريرة على إخفات صوتها وإخماد جذوتها، وهي بذلك قد أدَّت ولا تزال تؤدِّي أجلَّ خدمة لأبناء الإسلام في العصر الحاضر. وأية خدمة للإسلام أكبر من مكافحة الغفلة المستولية على قلوب أبنائه استيلاءً مخيفاً مرعباً شاملاً لشتى طبقاتهم وهيئاتهم؟ أية خدمة للإسلام أجلُّ من محاربة الدعايات الخبيثة الهدَّامة لأسس الإسلام وعقائده وآدابه حرباً لا شفقة فيها ولا هوادة وإن تكن منطوية في بعض الأحيان على شيء من المصانعة والمواربة؟ أية خدمة للإسلام أعظم من توجيه شبابه وناشئته وجهة الخير والفضيلة والحق، ووجهة الرجولة واليقظة والشعور بالواجب، ووجهة الإحساس بالكرامة المهيضة والعزة الذليلة والشرف المثلوم؟ تلك هي أهداف (الفتح) في جهادها، فأية صحيفة إسلامية في العصر الحديث سجل لها في صفحات الجهاد الإسلامي السلمي كما سجل للفتح من آيات بينة، وجولات موفقة، وعزمات صادقة؟

لو أن بيدي شيئاً من الأمر في هذا الوطن ازسلامي الأكبر لجعلت من (الفتح) صحيفة المسلمين الكبرى تطالعهم كل يوم بتغريدها الهنيّ، أو

---

(١) مجلة الفتح الغراء افتتاحية العام الخامس عشر ١٣٥٩هـ.

بلحنها الشجي، وتذكيرها القوي، وبآرائها المسددة في توجيه السياسة الإسلامية العامة. ولست والله مغالياً في هذا ولا مفرطاً في الثناء، ولكني مشعر بالحاجة الماسّة الملحة إلى مثل هذا العمل الجليل، ولا أعتقد أن الإسلام نُكب في هذا العصر بأشدَّ مما نكب به في تلك الصحف والمجلات التي يطالعها الجمهور الإسلامي صباح مساء فلا يستفيد منها في دينه ولا خلقه ولا في توجيهه نحو المثل العليا، ولكن يأخذ منها إماتة الشعور الإسلامي وتنمية الشهوات الجامحة والتحلل من قيود الآداب والأخلاق؟. وإن كنتَ في شكّ من هذا فتناول أكبر صحيفة يومية ثم ألق النظر على ما تنشره من صور على أنظار الناس فترى صورة الممثلة الذائعة الصيت وهي ترتدي ملابس الاستحمام!. وصورة النجمة المشهورة وهي تلبس ثوباً بديعاً للسهرة!. وصورة السيدة الفلانية في سباق الخيل وقد استرعت الأنظار بجمالها وأناقة ملابسها! لم كل هذا؟ وأية فائدة يجنيها الجمهور من مثل هذه الصور تنشر كل يوم فيراها الشاب والفتاة والصغير والكبير؟ أو ليس من شأن هذه الأمور أن يعتاد الجمهور رؤية المناظر المختلفة للمتاجرات بلحومهن ومحاسنهن، ثم يستحسنها، ثم يندفع في تقليدها ومجاراتها؟. وإذا تركتَ الصحف اليومية إلى الأسبوعية رأيت في الكثير منها تحريضاً صريحاً مكشوفاً على الفجور والرذيلة بما ينشر فيها من أبواب «السينما والملاهي» و «المسارح والمراقص» وأخبار «الحفلات والدعوات» مصحوباً كل ذلك بصور تجرح فؤاد المسلم الغيور على دينه وشرف أمته وأعراض أسره! تلك هي حالة الصحف التي يقبل عليها الجمهور قراءة واقتناءً وإذا اتفق لك أن رأيت من يقرأ «الفتح» أو «النذير» أو «الهداية الإسلامية» فتأكد أنه إما طالب من أبناء الأقطار الإسلامية أو شاب من شباب محمد ﷺ أو من الإخوان المسلمين في الجامعة، أو مدرس في إحدى كليات الأزهر ومعاهده.

لا جرم أن كان لتلك الصحف ـ وأكثر من يشرف عليها قوم لا يرون الوفاء للإسلام أمراً محتماً ـ أثر قوي في توجيه الرأي العام إلى مفاتن الغرب

ونحو المادة واللهو والهوى والعبث. كما كان لها أثر في إخماد شعلة الحمية الإسلامية والتهاون في أمر العفة والحشمة والأخلاق الفاضلة في المجتمع. أفلا أكون على حق حين أتمنى على الله عز وجل أن يؤتيني شيئاً من الأمر لأجعل من (الفتح) مناراً يضيء السبيل كل يوم لتلك السفن الماخرة في عباب اليم، التي ضلت طريقها فتقاذفتها الأمواج من ههنا ومن ههنا وحالت دون وصولها إلى الشاطىء قوية سالمة. أجل إن مثل هذا العمل إذا تم - وهو وجود صحيفة إسلامية يومية - من شأنه أن يفتح أبواب الدعوة إلى الله، ويتغلغل في قلوب الأمة ومجتمعاتها وبيوتها فيطهرها من أدران المادة والبيئة الخليعة المستهترة، ويجعل من المسلمين أمة متماسكة القوى متساندة البنيان لا تهون على كل مغير، ولا تسهل على كل طامع، ولا يوجهها من شاء بما شاء، في غفلة من القادة والسادة وحملة الأقلام!.

أما متى يتم هذا الأمر فذلك أمر يتفرَّد به علام الغيوب الذي لا يجري في الكون شيء إلا بأمره ومشيئته.

سيدي الأستاذ «الخطيب»،

لن أحاول إطراءك الآن فهذا شيء يؤلمك ويؤذيك، ولكن سأحاول أن أحمل إليك رجاء قرائك من شباب محمد ﷺ في مصر والشام ومن الصفوة المختارة من أبناء الإسلام في أقطاره المختلفة بأن تثابر على جهادك الهادىء في سبيل الإسلام والمسلمين متابعاً تقوية (الفتح) وتنمية مادتها ليدوي صوتها في الآفاق أقوى مما كان، ولتشق طريقها بين تلك الصحف القوية بماليتها وبأحزابها، ولتؤدي رسالتها السامية إلى أكبر عدد ممكن من شباب الإسلام وعلمائها وأغنيائه. وثق أننا لا نعد الفتح صحيفتك خاصة، ولكنها صحيفة كل مسلم ومسلمة في هذا الوجود، فمن حقهم عليك أن يطالبوك بالمثابرة على العمل وبذل الجهد فيه. ومن حقك عليهم أن تطالبهم بالعمل على ما يضمن بقاء هذه الصحيفة وحياتها إن شاء الله.

أيها الأخ القارىء،

إن هذا العصر عصر تكتّل وتساند، عصر دعاية ونشاط. وما هذه الصحف التي تراها منتشرة في كل مكان إلا عاملة على أمر بَيَّت له أصحابه من قبل، ولولا أن هذه الصحف وجدت من قرائها أنصاراً يتعصبون لها ويدعون إلى قراءتها لما استطاعت أن تصل إلى ما وصلت إليه من قوة وامتداد سلطان. وأنت جندي من جنود الحق فحاسب نفسك: هل آزرت صحيفة كالفتح ودعوت لها؟ هل حاولت نشر مبادئها في كل مجتمع وناد؟ هل حرصت على أن تشعل في قلوب من عرفتهم نار الحماسة كما اشتعلت نار الحماسة في قلبك؟ هل رأيت أن من واجبك أن تبلغ دعوة الحق كما بلغتك وتسمعها غيرك كما سمعتها أنت. وتشركه في لذة الغيرة على الإسلام كما تلذ أنت بذلك ولو نالك أذى وعناد، وأخيراً هل شعرت بأنك غريب في هذا المجتمع المملوء بالآفات والشرور فحاولت أن تجد لك إخواناً تتشاورون في تنظيم الدعوة إلى الله ومكافحة الرذيلة بشتى صورها؟. إذا لم تفعل ذلك إلى الآن فاعلم أنك لم تؤد ما عليك من واجبات نحو دينك ولا ما عليك من دَين نحو صحيفة (الفتح). واعلم أن من خير ما تتقرب به إلى الله في هذا العصر أن تضم إلى قراء صحيفة كالفتح قارئاً جديداً، وإلى جمعية كشباب محمد ﷺ عضواً طاهراً نشيطاً، ولأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة



القاهرة : الأستاذ محب الدين الخطيب

سلام عليك وبعد فقد قرأت في العدد ١٢٨ من صحيفتكم الغراء مقالاً افتتاحياً لأخ من إخواننا المسلمين تحت عنوان «البيعة على الجهاد» مقترحاً أن يرسل كل من صاحب اسمه وعنوانه في صحيفة «الفتح» الغراء والغرض من ذلك تأليف نادٍ أدبي يجمع شتات المسلمين حيث يقول «وملخص اقتراحي أن يرسل كل غيور على دينه اسمه إلى الفتح وعنوانه الكامل معاهداً نفسه وربه على التجرد من حب الجاه والميل مع الهوى الخ»، فنويت حينئذ إرسال اسمي إلى صحيفة الفتح الغراء إلا أنه ما الحيلة والعوائق حجبه ثم قرأت في العدد ١٢٩ من صحيفتكم الغراء مقالاً افتتاحياً آخر لكاتب ذلك المقال المذكور تحت عنوان «المثل الأعلى في الأخلاق والعمل في سبيل الله» وقرأت أيضاً مقالاً آخر افتتاحياً في العدد ١٢٧ لأخ آخر من إخواننا المسلمين تحت عنوان «الجهاد في سبيل الله» فأخذتني حينئذ الغيرة الدينية والنعرة الإسلامية فأرسلت هذا الكتاب معاهداً ربي على أن أكون مستعداً لكل خدمة دينية وأرضى وأقف نفسي في خدمة الدين والوطن جميعاً والسلام

حمص ٢٢ شعبان ١٣٤٥ مصطفى السباعي

(العنوان)

حمص باب السوق

محمد شفيق السباعي ومن يده إلى مصطفى السباعي

رسالة بخط مصطفى السباعي وهو في الثانية عشرة من عمره
مرسلة إلى الأستاذ محب الدين الخطيب